The Islamic University–Gaza
Research and Postgraduate Affairs
Faculty of Literature
Department of History

الجامعـــــــة الإســـلاميــة – غـزة
شؤون البحث العلمي والدراسات العليا
كـليـــــــــــــــــة الآداب
قســــــــم التـــــــــاريخ

موقف الدبلوماسية العباسية من النزاعات الإسلامية

(530–656هـ/ 1136–1258م)

The Abassed Diplomacy Attitude Towards Islamic Internal Disputes

(AD1258-1136 /AH 656-530)

إعداد الباحث

رائد رحاب حرب الجدبه

إشراف الدكتور

غسان محمود وشاح

قُدِّمَ هذا البحث استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة

رجب–1437هـ / أبريل–2016م

إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

موقف الدبلوماسية العباسية من النزاعات الإسلامية
(530-656هـ/ 1136-1258م)

The Abassed Diplomacy Attitude Towards Islamic Internal Disputes
(1136-1258AD = 530-656AH)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	رائد رحاب الجدبة	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
Date:		التاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية-غزة
The Islamic University of Gaza

مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم: ج س غ/35/ Ref:

التاريخ: 2016/09/18م Date:

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **رائد رحاب حرب الجدبة** لنيل درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/ قسم التاريخ**، وموضوعها:

موقف الدبلوماسية العباسية من النزاعات الإسلامية 530 / 656هـ- 1136/ 1258م

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الأحد 16 ذو الحجة 1437هـ، الموافق 2016/09/18م الساعة الواحدة والنصف ظهراً بمبنى طيبة ، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

د. غسان محمود وشاح	مشرفاً و رئيساً	....
د. سامي حمدان أبو زهري	مناقشاً داخلياً	....
د. عبد الحميد جمال الفراني	مناقشاً خارجياً	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية *الآداب*/قسم التاريخ.**

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

نائب الرئيس لشئون البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. عبدالرؤوف علي المناعمة

ملخص الرسالة

أهداف الدراسة:

تتبع أهداف الدراسة من خلال الآتي:

1- الكشف عن العلاقات ما بين الخلافة العباسية والدول الإسلامية الأخرى.
2- إبراز المصادر الإسلامية في تناولها لمواقف الدبلوماسية العباسية من النزاعات الإسلامية.
3- إنعاش المكتبة العربية والإسلامية بدراسة تفيد الباحثين في حل النزاعات داخل الأمة العربية.

منهجية الدراسة: اعتمد الباحث في دراسته المنهج التاريخي الاستقصائي التحليلي .

أهم نتائج الدراسة:

1- أكدت الدراسة بأن التسلط الأجنبي على بغداد أضعف موقف الخليفة الدبلوماسي من الصراعات الداخلية في البلدان الإسلامية.
2- بينت الدراسة بأن النزاعات الداخلية بين المدن الرئيسة في بلاد الشام مهدت الطريق أمام الصليبيين في تكوين الإمارات الصليبية الأربع.
3- وضحت الدراسة أن رغم ضعف مركز الخلافة في بغداد إلا أن الخليفة كان له دور دبلوماسي مهم.

أهم توصيات الدراسة:

1- ضرورة دراسة تجربة الخلافة العباسية وقت الضعف ووقت القوة للاستفادة من الحنكة السياسية والدبلوماسية لمؤسسة الخلافة.

2- التوسع في دراسة الخلافة العباسية زمن السقوط والانهيار.

كلمات مفتاحية: (الخلافة- الدبلوماسية – النزاعات- المعارك- الصلح).

ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية

Abstract

Objectives of the study:
Follow the objectives of the study through the following:

1- Disclosure of relationships between the Abbasid Caliphate and other Muslim countries.
2- Highlight Islamic sources in dealing with the Abbasid Islamic diplomacy of conflict positions.
3- Reviving the Arab and Islamic library in away to benefit researchers in resolving disputes within the Arabic nation.

The study methodology: the researcher adopted in his study of investigative and analytical historical method.

The most important Conclusions:

1- The study confirmed that foreign domination Baghdad Caliph position weakened from inter conflicts in Islamic countries.
2- The study showed that the internal conflicts between the main cities of the Levant had paved the way for the Crusaders in the formation of the Emirates four crusade.
3- The study explained that despite the weakness of the Caliphate Centre in Baghdad, but the Caliph had an important diplomatic role.

The most important recommendations:

1- The study necessity to study Abbasid Caliphate experience weekness and the strength to benefit the political of diplomatic experience of Caliph.
2- To study the period when the Abbasid Caliphate fell extensively.

Keywords: (Succession- Diplomacy- Disputes- battles- Justices of the Peace).

الإهــداء

إلى روح والدتي الطاهرة رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه .

إلى والدي الغالي أطال الله عمره وجعله سندًا في حياتي العلمية والعملية .

إلى زوجتي الوفية وابنتي الغالية حفظهما الله من كل شر .

إلى أهلي الذين غمروني بحبهم وحنانهم ، وتقاسمت معهم أجمل لحظات العمر .

و لن أنسى رفقاء دربي أصدقائي الذين درست معهم و قضينا أوقاتًا ممتعة .

إلى شباب العائلة الكريمة عائلة آل الجدبه أحبابي في الله .

إلى الأسرى البواسل إليكم سلامي أسرى الرباط مفعم بروح الشهداء العظام أبعثه إليكم مع غروب شمس الظلام ليضيء لكم قمر العنان .

إلى كل من يهمه العلم ويتعب في سبيل تحقيق النجاح أهدي لهم جميعًا جهدي المتواضع سائلًا الله أن يوفقني و يسدد خطايَ نحو تحقيق المزيد من النجاح.

شكر وتقدير

أشكر الله رب العالمين صاحب المنة والعطاء أن وفقني لإتمام هذا البحث، وانطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾(1)، ومن قوله ﷺ: "مَنْ لَمْ يَشْكُر النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَزَّ وجَلَّ"(2).

وتقديرًا مني وعرفانًا فإنني أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الدكتور/ غسان محمود وشاح الذي تشرفت بإشرافه على هذه الرسالة مما زادها بهجة ودقة وأصالة بتوجيهاته وإرشاداته القيمة.

والشكر موصول إلى عضوي لجنة المناقشة كل من:

الدكتور/ سامي حمدان أبو زهري حفظه الله.

والدكتور / عبد الحميد الفراني حفظه الله.

لتفضلهما بمناقشة هذه الرسالة فجزاهما الله خير الجزاء.

كما أتقدم بعظيم الشكر والعرفان بالجميل إلى أساتذتي في الجامعة الإسلامية، الذين تتلمذت على أيديهم، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور / رياض مصطفى شاهين الذي بذل وقته الثمين حتى وصل إلى المراتب العلمية العالية.

والشكر موصول للدكتور الفاضل/ فوزي سعيد الجدبة، والدكتور/ أحمد إبراهيم الجدبة، وإلى الحاج/ سهيل جميل الجدبة ... حفظهم الله.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من رافقني في حياتي اليومية: أهلي، وأحبتي فلهم منى ألف شكر وتقدير، كما لا أنسى أن أشكر أصدقاء دربي في الجامعة، والعائلة الكريمة.

والشكر لكل من وقف معى وساندني، ولو بدعوة خير في ظهر الغيب، فبارك الله فيهم جميعًا.

(1) سورة النمل: آية 40.

(2) (سنن أبي داود–كتاب الأدب–باب في شكر المعروف، وسنن الترمذي– كتاب البر والصلة – باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك).

فهرس المحتويات

إقـــرار...أ
ملخص الرسالة..ب
ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية.. ج
الإهـداء .... د
شكر وتقدير... هـ
فهرس المحتويات...و
الفصل التمهيدي ماهية الدبلوماسية وتطورها في التاريخ الإسلامي.............6
ماهية الدبلوماسية..7
الدبلوماسية قبل الدولة العباسية..8
الفصل الأول موقف الدبلوماسية العباسية من الصراعات الإسلامية الداخلية في الوصول إلى السلطة.. 13
1.1 **المبحث الأول: الخارطة السياسية للمنطقة** 14
1.1.1 أولًا: الأوضاع الداخلية لبلاد الشام إبان الحقبة السلجوقية.....................14
1.1.2 ثانيًا: الأوضاع الداخلية في العراق حقبة الدولة السلجوقية 21
1.2 **المبحث الثاني: صراع أبناء البيت السلجوقي في الوصول إلى الحكم، وموقف الدبلوماسية العباسية من تلك الصراعات**...36
1.2.1 أولًا: الدور الدبلوماسي للخليفة المقتفي لأمر الله في التخلص من التسلط السلجوقي على الخلافة "535-555هـ"...36
1.2.2 ثانيًا: الدور الدبلوماسي للخليفة العباسي المستنجد بالله مع السلاطين السلاجقة في النزاع على السلطنة"555هـ-1160م/ 566هـ- 1170م" 47
1.2.3 ثالثًا: الموقف الدبلوماسي الذي لعبه الخليفة العباسي المستضيئ مع السلاطين السلاجقة "566هـ-575هـ/1170م-1179م"...............................50
1.2.4 رابعاً: دور الخليفة الناصر لدين الله(الدبلوماسي في تخلصه من نفوذ السلاجقة ببغداد "575هـ-590هـ/ 1179م- 1193م"...............................53
1.3 **المبحث الثالث: دور الدبلوماسية العباسية في تسوية النزاعات داخل البيت الزنكي والأيوبي للوصول إلى الحكم**..59

1.3.1 أولًا: موقف الدبلوماسية العباسية من النزاعات الداخلية الزنكية للوصول إلى سدة الحكم 59
1.3.2 ثانيًا: موقف الدبلوماسية العباسية من الصراع بين أبناء البيت الأيوبي في الوصول إلى السلطة 69
الفصل الثاني دور الدبلوماسية العباسية في توحيد الجبهة الإسلامية تحت سلطة الخليفة 94
2.1 **المبحث الأول: جهود الدبلوماسية العباسية في التخلص من قيود الدولة السلجوقية والخوارزمية على الخلافة العباسية** 95
2.1.1 أولًا: علاقة الخلافة العباسية بالسلاجقة في خراسان وجهودها في التخلص من سيطرة السلاجقة على العراق 95
2.1.2 ثانيًا: موقف الخلافة العباسية من الدولة الخوارزمية وجهودها في التصدي للزحف الخوارزمي على بغداد 104
2.2 **المبحث الثاني: دور الدبلوماسية العباسية في إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، وتوحيدها مع بلاد الشام** 115
2.2.1 أولًا: توحيد البلدان الإسلامية قبل سقوط الخلافة الفاطمية على يد عماد الدين وأبنه نور الدين زنكي 115
2.2.2 ثانيًا: الحملات النورية على مصر 125
2.2.3 ثالثًا: سقوط الخلافة والأزمات الداخلية في مصر 128
2.3 **المبحث الثالث: دور مؤسسة الخلافة العباسية في استغلال جهود الدولة الأيوبية لتوحيد القوى الإسلامية** 137
2.3.1 أولًا: توحيد الكيانات الإسلامية زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي.......... 137
2.3.2 ثانيًا: توحيد المملكة الأيوبية زمن السلطان العادل........................ 148
2.3.3 ثالثًا: توحيد المملكة الأيوبية زمن السلطان الكامل........................ 155
الفصل الثالث دور الدبلوماسية العباسية في مواجهة الأخطار الخارجية 159
3.1 **المبحث الأول: محاربة الخلافة العباسية العدوان الصليبي على العالم الإسلامي** 160
3.1.1 أولًا: جهود الدبلوماسية العباسية في دعم الدولة الزنكية لمحاربة الصليبيين .. 160
3.1.2 ثانيًا: دعم الخلافة العباسية للدولة الأيوبية في محاربة الصليبيين 183
3.1.3 ثالثًا: سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول........................ 194

الخاتمة.. 201
4.1 أولًا: النتائج 202
4.2 ثانيًا: التوصيات... 203
المصادر والمراجع.. 204

المقدمة

يعود الفضل للسلاجقة في تحرير الخلافة العباسية السنية في بغداد من الاحتلال الشيعي البويهي، مما أهل الدولة السلجوقية لتصبح بمثابة الوصي على الخلافة العباسية، والقوة الضاربة التي تدافع عن الاسلام وعن المذهب السني؛ ولكن بعد وفاة ملكشاه أخر السلاطين السلاجقة العظام، وانقسام الدولة السلجوقية إلى خمس إمارات متنازعة "489هـ/1096" انعكس ذلك سلبًا على الحياة العامة في العالم الإسلامي، فاصبحت المدن الكبرى مسرحًا للاقتتال الداخلي مما دفع مؤسسة الخلافة القيام بدور دبلوماسي نشط، يقوم على المكر، والدهاء، لتعويض النقص، والضعف العسكري، والسياسي الذي أصابها نتيجة السيطرة، والوصاية السلجوقية، فمرة تجد الخلافة تضع علاقات، وتحالفات ضد أمراء السلاجقة المتنازعة من أجل التخلص من السيطرة السلجوقية، ومرة تدعم الأمراء، والعسكريين، الذين يقاتلون المحتل الصليبي فترسل لهم الخلع، والتشريفات، وتعترف بسلطتهم، كما حدث مع الزنكيين، والأيوبيين من أجل صنع جبهة مقاومة إسلامية ضد المحتل الصليبي لذلك تعد المرحلة التي تخلصت فيها الخلافة العباسية من السيطرة والوصاية الخارجية مرحلة مهمة في تاريخ الخلافة العباسية، حيث لقيت مؤسسة الخلافة دورًا دبلوماسيًا مميزًا، كان له دور كبير في تشكيل السياسية الخارجية للمنطقة، فقد سويت كثير من الخلافات وحددت الحدود، وعقدت المعاهدات، وأوقفت الحروب، فكثيرًا ما وفقت في هذا الأداء الدبلوماسي، وأحيانًا كان الأداء الدبلوماسي العباسي ضعيفًا متدنيًا.

أما عن أهم الدوافع وراء اختيار موضوع الدراسة:

1- قلة الدراسات الأكاديمية الجادة التي تتناول هذا الموضوع على الرغم من أهميته.
2- إلقاء الضوء على حقبة مهمة من حقب التاريخ الإسلامي، حيث تركز على الدولة العباسية، ومن حكمها مدة الدراسة.

أهمية الدراسة:

1- إبراز الدور الدبلوماسي الذي لعبته مؤسسة الخلافة في مرحة من أعقد وأهم مراحل التاريخ الإسلامي.
2- إظهار أهمية العمل الدبلوماسي، ودوره في تسوية النزاعات الداخلية، وتشكيل جبهة مقاومة ضد المحتل الأجنبي.

3- الرد على التهم التي أُلصقت بالخلافة العباسية من قبل بعض المستشرقين في مرحلة الدراسة.

4- الكشف عن الدروس والعبر المستفادة من خلال الوصول للأسباب الحقيقية للخلافات الإسلامية، وسبل إذابتها، وتسويتها.

الدراسات السابقة:

بعد البحث، ومراجعة المكتبات، ومكتبة الجامعة الإسلامية، والتنقيب المستمر، لم يعثر الباحث في حدود بحثه، واطلاعه على دراسات سابقة تناولت موضوع الدبلوماسية العباسية بشكل مباشر وصريح، وتبين أن هناك إشارات بسيطة وبشكل مختصر في بعض الدوريات والمقالات، ومن الدراسات التي أشارت بشكل بسيط لهذا الموضوع :

- الراجحي، جيهان سعيد: الحياة الاجتماعية في بغداد من بداية القرن السادس الهجري حتى سقوط بغداد سنة (656هـ/1258م)، جامعة أم القرى بمكة المكرمة،2006م، منشورة.
- صيدم، فريد وحيد: جهاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب وجهوده في توحيد مصر والشام (638-647هـ/1240-1249م) الجامعة الإسلامية غزة، 2010 م، منشورة.
- الغامدي، مسفر سالم: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الأسرة الزنكية "491-569هـ/1097 - 1173م "، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1983م، منشورة .

منهج الدراسة: منهج البحث هو: التاريخي الوصفي التحليلي.

صعوبات الدراسة: واجهت الباحث صعوبات جمة في البحث في المصادر عن موقف الدبلوماسية العباسية من النزاعات الإسلامية، فكل الذي ورد عن الدبلوماسية العباسية من النزاعات الإسلامية النزر القليل، فاجتهد الباحث كثيرًا، للخروج بهذه الدراسة.

تقسيمات الدراسة:

لقد تم تقسيم الدراسة إلى: مقدمة، وفصل تمهيدي، وثلاثة فصول، وخاتمة:

حيث اشتملت المقدمة على نبذة مختصرة عن الموضوع، وأهميته، ومنهج الدراسة، واما الفصل التمهيدي، فقد تحدث عن ماهية الدبلوماسية، وتطورها في التاريخ الإسلامي.

وتناول الفصل الأول: موقف الدبلوماسية العباسية من الصراعات الإسلامية الداخلية في الوصول إلى السلطة، واشتمل على نقاط ثلاثة، وهي: الخارطة السياسية للمنطقة، وصراع أبناء

البيت السلجوقي في الوصول إلى الحكم، وموقف الدبلوماسية العباسية من تلك الصراعات، ودور الدبلوماسية العباسية في تسوية النزاعات داخل البيت الزنكي، والأيوبي للوصول إلى الحكم.

أما الفصل الثاني: فقد تحدث عن دور الدبلوماسية العباسية في توحيد الجبهة الإسلامية تحت سلطة الخليفة، وتمثلت في جهود الخلافة العباسية في التخلص من قيود الدولة السلجوقية، والخوارزمية على الخلافة العباسية، وجهود الدبلوماسية العباسية في دعم الدولة الزنكية في إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، وتوحيدها مع بلاد الشام، ثم دور مؤسسة الخلافة العباسية في اغتنام توظيف جهود الدولة الأيوبية لتوحيد القوى الإسلامية.

أما الفصل الثالث: فقد تناول فيه الباحث دور الخلافة العباسية في مواجهة الأخطار الخارجية، وذلك بدعم الخلافة العباسية الكيانات الإسلامية لمحاربة العدوان الصليبي على العالم الإسلامي، وكذلك جهود الخلافة العباسية في محاربة المغول حتى سقوطها.

دراسة لأهم المصادر:

تطرقنا إلى محتويات الدراسة بفصولها، ومباحثها، أما المصادر التي تم الاعتماد عليها في الدراسة فهي كثيرة ومتنوعة، فمنها كتب التاريخ العام، والتراجم، وكتب الأدب، ومن أهم هذه الكتب:

1- كتاب (ذيل تاريخ دمشق) لابن القلانسي (ت 555هـ/ 1160م)، وتكمن أهمية هذا الكتاب بتسجيله أهم الاحداث منذ بدء الغزو الصليبي لبلاد الشام إلى آخر أيام حياته، وصراع السلاطين السلاجقة فيما بينهم على الحكم.
2- كتاب (البرق الشامي) للأصفهاني (ت 597هـ/1200م)، الذي يعدّ من أهم المصادر التي قدمت لنا معلومات قيّمة عن حياة السلطان صلاح الدين، ودوره في توحيد العالم الإسلامي تحت سلطته بدعم من الخلافة العباسية عن طريق الخلع، والتشريفات.
3- كتاب (مضمار الحقائق وسر الخلائق) لابن شاهنشاه الأيوبي (ت617هـ/1220م)، ويقدم هذا المصدر مادة أساسية عن الناحية السياسية، والعسكرية في تلك الفترة، لأن مؤلفه كان مشتركًا مع السلطان صلاح الدين في توحيد العالم الإسلامي تحت سلطته،

ومما يؤخذ عليه أنه يمثل وجهة النظر الأيوبية لكونه واحدًا منهم، وتولى والده مناصب ادارية عالية في الدولة الأيوبية .

4- كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير،(ت630هـ/1232م) يعد هذا المصدر من أهم المصادر التي اعتمد عليها خلال الدراسة؛ لأنه تناول تفاصيلًا للروايات التي دوّنها، وقد قدم إلى جانبها معلومات مهمه، وتفصيلًا لأهم الأحداث العسكرية التي واجهت السلطان صلاح الدين الأيوبي في محاربة الصليبيين، كذلك تناول ما يجري من الأحداث على الساحة العراقية، وما كانت تعانية الخلافة من الأزمات الداخلية، والاحتلال الأجنبي لها.

5- كتاب (سيرة صلاح الدين الأيوبي المعروف بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لابن شداد، أبو المحاسن يوسف بن الأسدي الحلبي (ت 632هـ/1234م)، فقد قدم معلومات قيّمة عن شخصية صلاح الدين الأيوبي السياسية والحربية، وتعد كتاباته صادقة لقربه وملازمته لشخص صلاح الدين، ويمثل هذا الكتاب الوثيقة التاريخية الصادقة عن بعد الصراع مع الغزاة الصليبيين.

6- كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) لأبي شامة، عبد الرحمن ابن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت665هـ/1266م) . يعدّ هذا الكتاب من الكتب التاريخية المهمة التي تناولت أهم الرسل والتشريفات والتقليد المرسلة من قبل الخلافة العباسية للأمراء والسلاطين، ودعمهم من أجل تكوين الوحدة، ومحاربة العدوان الخارجي المتمثل بالعدوان الصليبي على البلدان الإسلامية، ويتمثل الكتاب كذلك بتناوله عصر السلطان نور الدين محمود رحمه الله، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، إذ كان يتابع سير المعارك والأحداث السياسية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، وموقف الخلافة العباسية من تلك الأحداث التي حدثت أثناء قيام الدولة الزنكية حتى نهاية الدولة الأيوبية.

7- كتاب (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) لابن شداد، عز الدين محمد ابن علي بن إبراهيم (ت684هـ/1285م)، حيث قدم معلومات كثيرة، ومهمة عن مدن الجزيرة الفراتية في مختلف الجوانب السياسية، والحضارية، والمعلومات التي تتعلق بمدن الجزيرة، والشام.

8- كتاب (مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب) لابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1297م) ويعد هذا المصدر وثيقة تاريخية محكمة مهمة للأيوبيين، فقد

أرخ للسلطة الأيوبية من بدايتها إلى نهايتها في مصر وبلاد الشام والجزيرة الفراتية، وقد ضمن الكتاب على وثائق رسمية تتصل بالحياة السياسية في تلك المرحلة، وعلاقة تلك الدولة مع الكيانات السياسية في المنطقة المتمثلة بالخلافة العباسية وغيرها من الكيانات السياسية .

9- كتاب (جامع التواريخ) لرشيد الدين فضل الله الهمذاني (ت 718هـ/1318م)، حيث يقدم هذا المصدر معلومات مهمة عن معركة بغداد، واستيلاء المغول عليها سنة (656هـ/1258م)، وما لحق بها من القتل، والتخريب، وكذلك قتل الخليفة العباسي المستعصم بالله .

الفصل التمهيدي

ماهية الدبلوماسية وتطورها

في التاريخ الإسلامي

ماهية الدبلوماسية

الدبلوماسية لغًا:

الدبلوماسية كلمة يونانية مشتقة من كلمة " Diploma " ومعناها الوثيقة أو الشهادة الرسمية التي يحملها السفير للطرف الأخر، كانت تصدر الوثيقة عن الشخص الذي بيده السلطة العليا في البلاد الإسلامية ويمتاز حامل تلك الوثيقة بامتيازات خاصة تؤهله في حمل رسالة الخليفة للأمراء التابعين له[1].

كانت تعرف الدبلوماسية في عصور صدر الإسلام بأنها دراسة الوثائق القديمة المتعلقة بالعلاقات الدولية، وبذلك تمثل الدبلوماسية في عهد الخلافة العباسبة دراسة للوثائق التي تصدر من قبل الخلافة وعلاقاتها من البلاد الداخلية المجاورة لها، وكان يمثل الرجل الدبلوماسي في تلك الحقبه المبعوثين من قبل الطرفين سوء كانت مرسل او مستقبل[2].

الدبلوماسية اصطلاحًا:

إن أدق تعريفات الدبلوماسية الداخلية للدولة في عصر الإسلام، هي: مقولة معاوية ابن أبي سفيان:" لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت؛ لأنهم إذا شدوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت"[3]، كما عرفها الفقية تشارلس كالفور على انها "علم العلاقات القائمة بين مختلف الدول والناتجة عن المصالح المتبادلة والنابعة من مبادئ القانون الدولي العام ونصوص المعاهدات والاتفاقيات الدولية"[4].

وقد عرف أبو عامر الدبلوماسية، بأنها: هى علم، وفن التمثيل، والمفاوضة[5]، وإن التاريخ الدبلوماسي للخلافة العباسية يكمن في جمع الوثائق الدبلوماسية والتعليق عليها[6]، وهذا ما سيتم تناوله من خلال موقف الخليفة العباسي من تلك الأحداث.

---

(1) شبانه، الدبلوماسية (ص9).

(2) العجرمي، الدبلوماسية (النظرية والتطبيق)(ص6).

(3) الأندلسي، طبائع النساء (222/1)؛ الطرطوشي، سراج الملوك (70/1).

(4) العجرمي، الدبلوماسية (النظرية والتطبيق)(ص8).

(5) الوظيفة الدبلوماسية (ص21).

(6) أبو عامر، المرجع السابق (ص33).

ويستعمل مصطلح الدبلوماسية بمعناه الواسع في التاريخ الدبلوماسي لدولة ما لحقبة زمنية معينه، وهي التسلسل التاريخي للعلاقات الرسمية بين الدول[1]، وهذا ما تقصده الدراسة حيث يمكن القول تاريخ الدبلوماسية الداخلية للخلافة العباسية من (530هـ - 656هـ/1136-1258م)، مع الدول التي تخطب باسمها في تلك الحقبة.

ويتضح من ذلك بأن الدبلوماسية تمثل إدراة العلاقات الخارجية لدولة دون صراع، وذلك من خلال اجراء المفاوضات السرية التي يقوم بها المبعوثين والممثلون لكل من الطرفين، وذلك للوصول إلى حل النزاعات، وتحقيق المصالح المشتركة بين الطرفين.

ولا بد هنا أن نبين المبادئ الأساسية للدبلوماسية بشكل عام للاستفادة منها، والعمل على إسقاطها على الدراسة:

- عندما تتكلم المدافع، يصمت الدبلوماسي.
- الحرب استكمال لجهد الدبلوماسيين بطريقة أخرى.
- الدبلوماسية فن التوفيق بين المصالح المتعارضة[2].

الدبلوماسية قبل الدولة العباسية

كانت العلاقات الدبلوماسية قائمة في عهد ما قبل الإسلام بين القبائل العربية، عن طريق التعاقد، والتعاهد مع بعضها البعض من أجل إقامة علاقات تجارية متحدة[3]، وخير مثال على الوفود الدبلوماسية قبل الاسلام، سفارة عبد المطلب بن هاشم إلى أبرهة الحبشي للمفاوضة من أجل استرداد الإبل التي استولت عليها الحبشة؛ ومن خلال التفاوض مع ملك الحبشة، قال له ملك الحبشة: "سألتني مالك، ولم تسألني الرجوع عن قصد البيت، أنه شرفكم، فقال له عبد المطلب: للبيت رب يحميه"[4].

---

(1) أبو عامر، المرجع السابق(ص27).

(2) شبانه، الدبلوماسية (ص9).

(3) العسكري، الأوائل(ص2-3)؛ خلف، النظرية والممارسة الدبلوماسية (ص28).

(4) السخاوي، المقاصد الحسنة (ص537).

- **أولًا: الدبلوماسية زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين**

عانى الرسول صلى الله عليه وسلم في إقامة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، إلا أنه استطاع أن يقيم علاقات دبلوماسية متوازيه، تعتمد على مبدأ العلاقات السلمية داخل المدينة بين الطوائف المختلفة، وحل النزاعات بالطرق السلمية، ومن ثم قام الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة الصحيفة التي تنظم الشئون الداخلية لدولته الفتية، لحماية حقوق السكان داخل الدولة(1).

وكانت الدبلوماسية تتمثل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال استقباله للوفود، وإرسال الرسل والكتب الى الملوك لدعوتهم للإسلام، كذلك قبول الهدايا من الملوك، والتفاوض والحوار لحل المنازعات بينهم، والمعاهدات التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبرمها مع سكان المدينة(2).

وقد لعب الرسول صلى الله عليه وسلم دورًا مهمًا في تاريخ الدبلوماسية، فقد استطاع نشر الإسلام عن طريق وفود كان يرسلها إلى زعامة القبائل المجاورة له، وإلى ملوك، وأباطرة الدول المحيطة بالحجاز، وذلك لدعوتهم الدخول في الإسلام(3)، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أرسل مبعوثيه إلى كل من : النجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وهرقل ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، وزعماء يهود خيبر، وملك عُمان، والبحرين، واليمن(4).

حافظ الرسول صلى الله عليه وسلم على الدولة الإسلامية من خلال عقد الاتفاقيات، والعهود مع الأطراف المعادية له، وكذلك إرساله الوفود، والقراء؛ لدعوتهم الدخول في الدين الإسلامي، حتى أنه لم يفرض عليهم الدخول في الإسلام؛ بل دعاهم دعوة للإسلام، وهنا نجد بأن الرسول كان له قدرة دبلوماسية رفيعة في كثير من شئون الحياة، وخير مثال على ذلك: قدرته على مسايسة القبائل المجاورة له، وكذلك إقامة الدولة الإسلامية على مبدأ الدبلوماسية، ومحاورة سكان الدولة من يهود، وغيرهم من السكان (5).

---

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(248/16)؛ حبش، الإسلام والدبلوماسية(ص34).

(2) نجم، احكام الرسل والسفراء(ص70-71).

(3) ابن هشام، السيرة النبوية (13/6) خلف، النظرية والممارسة الدبلوماسية (ص30).

(4) ابن هشام، السيرة النبوية (13/6-16) خلف، النظرية والممارسة الدبلوماسية (ص30)؛ أبو عامر، الوظيفة الدبلوماسية (ص53).

(5) الزهري، الطبقات الكبرى (2-97-102)؛ نجم، احكام الرسل والسفراء(ص70-71).

وبذلك لعب الرسول دورًا مهمًا في تاريخ الدبلوماسية، ودعا الناس إلى الدخول في الإسلام من خلال إرسال إليهم الوفود، والدخول معهم في المفاوضات، كذلك عقد مع القبائل المجاورة له اتفاقيات تنص على الهدنة بينهم، وفداء الأسرى، والصلح بعد الحرب.

لم يختلف عهد الخلفاء الراشدين عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في مبدأ الدبلوماسية، فقد قاموا بمفاوضة الشعوب المجاورة لهم، وأخذوا يدعون الناس إلى الدخول في الإسلام، وكذلك اتخذوا الوفود الدبلوماسية وسيلة لإدارة شئون الدولة الخارجية، وذلك من خلال إبرام المعاهدات، والتحالفات مع الدول الأخرى، وكذلك وقف الحرب، وأخذ الجزية، وإبرام الاتفاقيات؛ من أجل إقامة الروابط الاقتصادية، والعسكرية[1].

فقد لعب الخلفاء الراشدون دورًا دبلوماسيًا هامًا في تاريخ البشرية لحماية الناس من شر الحروب، وويلاتها، فقد كان العالم مقسمًا إلى قوتين عظميين: الإمبراطورية الرومانية في الغرب، والإمبراطورية الفارسية في الشرق، وكانت معظم البلاد العربية واقعة ما بين الاحتلال الفارسي، والاحتلال الروماني، لذلك اعتمد الخلفاء الراشدون الطرق الدبلوماسية في البداية، وتجدهم قد اكتفوا بإرسال الرسل للحكام من روم، وفرس، وذلك من أجل حماية المضطهدين من سكان هذه البلاد[2]؛ ولكن بعد أن استطاع المسلمون فتح تلك البلاد أعطوهم الأمان، وخير مثال على ذلك: حينما منح الخليفة عمر بن الخطاب الأمان لأهل بيت المقدس بعد أن استطاع تملكها، وكتب بينهم وثيقة، ومعاهدة عرفت بالعهدة العمرية، وتعد تلك العهدة خير مثال للدبلوماسية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي عهد على نفسه إعطاء الأمان بكافة أشكاله لسكان مدينة بيت المقدس [3].

- **ثانيًا: الدبلوماسية زمن الخلافة الأموية**

بعد أن استلم البلاد الإسلامية بنو أمية، أصبحوا يمثلون الخلافة الإسلامية داخل البلاد، وبذلك حموا البلاد من العدو الخارجي، واتخذوا دمشق عاصمة لهم، وأقام الخليفة معاوية بن أبي سفيان ديوانًا خاصًا بالرسائل التي تخص الخلافة، وسمي بديوان الخاتم[4]، ومن ثم أخذ الخليفة

(1) نجم، أحكام الرسل والسفراء (ص71).
(2) حبش، الإسلام والدبلوماسية (ص36).
(3) العليمي، الأنس الجليل(253/1).
(4) ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط (ص228).

يسايس الناس حتى قال كلمتة المشهورة في تعامله مع الناس: "لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت؛ لأنهم إذا شدوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت"[1].

وكذلك اهتم الأمويون في علاقتهم الدبلوماسية مع الدول المجاورة لهم، وبالأخص فترة الفتوحات الإسلامية في البلاد ففي فتره فتوحات المسلمون في بلاد الصين وحين وصل القائد المسلم قتبه بن مسلم حدود الصين سنة "96هـ/714م"، أرسل الى الإمبراطور الصيني وفدًا دبلوماسيًا كان على رأسه هبيرة بن المشمرج الكلابي[2]، ومن خلال الحديث الذي دار بين الإمبراطور، والوفد الإسلامي، يأس الأمبراطور من قوة وشجاعة القوى الإسلامية فقال للوفد: " ما الذي يُرضي صاحبك؟ فرد عليه هبيره : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويعطي الجزية، فرد الإمبراطور على هبيرة: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا، فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، ودعا الإمبراطور بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير، وذهب، وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم، فأحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمة، وردهم، ووطىء التراب"[3].

وهذا خير مثال يمثل الدبلوماسية الأموية في المحافظة على هيبة الدولة، وكرامتها من خلال فرض القوة، والصمود أمام الأعداء المجاورين للخلافة الإسلامية.

- **ثالثًا: زمن الخلافة العباسية في العصر الأول:**

امتاز العصر العباسي الأول بالفتوحات الإسلامية، التي جعلته يزدهر دبلوماسيًا، ويوطد أركان الدولة على مساحة أوسع ما كانت في عهد الدولة الأموية، فقد أصبحت أكبر دولة في العالم، لذلك زاد نشاطها السياسي، والدبلوماسي على مستوى المنطقة التي سيطرت عليها، فزاد ذلك من بعثاتها الدبلوماسية؛ لتسوية الخلافات مع الكيانات الإسلامية القائمة في تلك الحقبة[4].

---

(1) الأندلسي، طبائع النساء (ص222)؛ الطرطوشي، سراج الملك(ص70).

(2)هبيرة بن المشمرج الكلابي: أحد الأشراف الشجعان الفصحاء، كان مع قتيبة حين غزا الصين. الزركلي، الأعلام(76/8).

(3) الطبري، تاريخ الطبري (32/4)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (141/9–142).

(4) نجم، أحكام الرسل والسفراء(ص 72).

وهنا يمكن القول بأن الدبلوماسية الإسلامية قد تميزت بعدد من الخصائص أهمها:

- أن البعثات الدبلوماسية كانت تقام من أجل الدعوة إلى الإسلام، وإقامة علاقات ودية بين الدول الإسلامية فيما بينها، ومع غيرها من الدول الأخرى.
- كان الهدف من إرسال البعثات الدبلوماسية التحصين، ومراقبة العدو الخارجي المعادي للإسلام، وإجراء تحالفات سياسية، وعسكرية ضده.
- كان يتم تناول الوفود الدبلوماسية من أجل تبادل الأسرى .
- كانت تهدف البعثات الدبلوماسية إلى معرفة أخبار العدو، وقياس قوة الخصم.
- وفي عهد انقسام الدولة الإسلامية كان هدف البعثات الدبلوماسية: تأمين التحالفات السياسية، والعسكرية، ودعم الروابط بين الكيانات الإسلامية التي تحكم باسم الخلافة العباسية في تلك الفترة.
- كانت تقوم الوفود الدبلوماسية من أجل تقديم التهاني والتعازي، وكذلك المصاهرة بين الملوك[1].
- كانت البعثات الدبلوماسية تتشكل لحضور مراسم تنصيب زعيم جديد للدولة، أو للسلطة، أو تتويج أحد الملوك، أو وفاة آخر[2].

ولقد كان للدبلوماسيين في عهد الخلافة العباسية دورٌ مهمٌ في توثيق العلاقات التجارية، والثقافية، وتبادل الأسرى، وكذلك فض المنازعات بين الدول الداخلية للخلافة العباسية، وعقد المعاهدات بينهم، وقد كان للدبلوماسيين دورٌ في توثيق الحكومة الشرعية المركزية في بغداد، وعندما انقسمت الدولة الإسلامية إلى عدد من الممالك والإمارات في أواخر عمر الخلافة العباسية، أخذت الدبلوماسية تقوم بدور جديد في تطبيع العلاقات، وتوثيقها بين الخلافة في بغداد، والممالك الإسلامية الأخرى، وغير الإسلامية[3].

وبذلك نجد بأن الدبلوماسية في العصر العباسي كانت تتمثل في تقديم الهدايا للطرف الآخر من قبل الخليفة العباسي، وبذلك يكون الخليفة قد قبل ما يفعله الأمراء من خلال تقديمه الهدايا، والتحف لهم.

---

(1) أبو عامر، الوظيفة الدبلوماسية(ص55)؛ الرشدان، والموسي، أصول العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، (ص43-54).

(2) فياض، الدبلوماسية (ص120).

(3) الرشدان، والموسي، أصول العلاقات الدبلوماسية والقنصلية (ص 42).

الفصل الأول
موقف الدبلوماسية العباسية من الصراعات الإسلامية الداخلية في الوصول إلى السلطة

1.1 المبحث الأول: الخارطة السياسية للمنطقة

1.1.1أولًا: الأوضاع الداخلية لبلاد الشام إبان الحقبة السلجوقية

سادت في بلاد الشام إبان الفترة السلجوقية أوضاع سياسية، واقتصادية، وعسكرية صعبة، من أجل الوصول إلى السلطنة، وأثرت تلك الأوضاع على المدن الرئيسة، ونتيجة لتلك الصراعات التي حصلت بين الأمراء؛ انشق العالم الإسلامي إلى دويلات عدة، تصارع حكامها على السلطة فيما بينهم، وكانت الدولة السلجوقية، والأيوبية من ضمن الدول التي تنافس فيها كبار رجال الدولة، في الوصول إلى عرش السلطة في المنطقة.

سيطرت الدولة السلجوقية على بلاد العراق، وامتد نفوذها حتى سيطرت على آسيا الصغرى، وبلاد الشام، وبلغت ذروة مجدها في عهد السلطان ألب أرسلان(1)، وابنه السلطان ملكشاه(2)، وقد تم تقسيم البلاد من بعده بين أبنائه، حيث قامت بينهم حروب، وفتن أدت في النهاية إلى انعدام الأمن في البلاد، ونجاح الحملة الصليبية الأولى، التي كان من نتائجها إقامة الإمارات الصليبية الأربع (الرها(3)، وأنطاكية(4)، وطرابلس(5)، ومملكة بيت المقدس).

ومن ضمن الحروب والصراعات حول السلطنة في بلاد الشام، تلك التي قامت بين الأمير سليمان بن قتلمش(6) والأمير شرف الدولة مسلم(7)، وكان مقتل الأمير شرف الدولة، وهزيمة

---

(1) ألب أرسلان: هو ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق كان يلقب عضد الدولة أبو شجاع تولى السلطنة بعد وفاة عمه السلطان السلجوقي طغرل سنة 455هـ. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (393/3).

(2) ملكشاه: هو ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وخطب له من حدود الصين إلى الشام، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى بلاد اليمن. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (317/4).

(3) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. الحموي، معجم البلدان (106/3).

(4) أنطاكية: مدينة عظيمة تقع على طرف بحر الروم بالشام.القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص59).

(5) طرابلس: مدينة على شاطيء بحر الروم، عامرة كثيرة الخيرات والثمرات. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص166).

(6) سليمان بن قتلمش: السلطان سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق السلجوقي جد ملوك الروم. الذهبي، سير أعلام النبلاء(449/18).

(7) شرف الدولة: هو شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل وحلب. ابن العماد، شذرات الذهب (291/3).

عسكره نتيجة النزاع الذي حصل للسيطرة على السلطة في حلب[1]؛ لكنه فشل في السيطرة عليها، فرحل إلى أنطاكية[2].

ومن ثم قام الملك سليمان بجمع جيشه، وقصد حلب مرةً أخرى، فحاصرها، وضيق عليها طامعًا في تملكها، فاستنجد حاكمها ابن اليرغوني الحلبي بالملك تاج الدولة تتش[3]، الذي حشد قواته، وقصد بها حلب، فالتقى العسكريين، وكانت هزيمة الملك سليمان وقتلة أثناء المعركة نتيجة لتلك الصراعات بين الملوك للسيطرة على مدنية حلب، وسار تتش إلى حلب، فملكها[4].

وكان السلطان السلجوقي ملكشاه قد مكَّن نفسه على الحكم في بغداد، فسار إلى الشام لضبط الأمر بها، فسيطر على حلب، وعين عليها الأمير قسيم الدولة آقسنقر[5]، وملك في طريقه حرّان[6]، والرها، وقلعة جعبر[7]، ومنبج [8]، واللاذقية[9]، وكفر طاب[10]، وأفاميه[11] [12]، وضبط أمره بها، ومن ثم اتجه إلى بغداد، ونزل بدار المملكة، وأرسل إلى الخليفة العباسي

---

(1) حلب: مدينة عظيمة تقع شمال بلاد الشام، كانت قاعدة لجند قنسرين لها سور حصين وقلعة حصينة. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص72)

(2) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص69)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (282/1).

(3) تاج الدولة تتش: تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ابن دقاق السلجوقي صاحب البلاد الجزيرة. ابن خلكان، وفيات الأعيان(295/1).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(443/8)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (283/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (28/32)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (371/1).

(5) قسيم الدولة: هو اقسنقر البرسقي كان أميرًا للسلطان محمود على واسط والموصل وجعلة شحنة بغداد. ابن العماد، شذرات الذهب (61/4)

(6) حران: وهي مدينة عظيمة مشهورة، على طريق الموصل والشام والروم. الحموي، معجم البلدان (235/2).

(7) قلعة جعبر: تقع على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت قديمًا تسمى دوسر. الحموي، معجم البلدان (142/2).

(8) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (284/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (28/32).

(9) اللاذقية: مدينة من سواحل بحر الشام عتيقة. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص103)؛ رحلة ابن بطوطة (ص98).

(10) كفر طاب: بلدة على الطريق بين المعرة، وشيزر في بلاد الشام. الحميري، الروض المعطار (ص500).

(11) أفامية: أفامية من أعمال حمص. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص24).

(12) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (144/23)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (371/1).

المقتدي بأمر الله[1] هدايا كثيرة، فقبلها منه الخليفة[2]، وهذا ما يدل على رضى الخليفة عما فعله السلطان ملكشاه في البلاد.

وكان من ضمن النزاع، والصراع في الشام أن حصل نزاع على الحكم بين الخلافة الفاطمية والسلاجقة على دمشق، فقد اتجه بدر الدين الجمالي[3] قائد الجيش المصري إلى دمشق فحاصرها؛ لكنه فشل في السيطرة عليها[4]، فعادت العساكر المصرية مرة أخرى في عام "482هـ/1090م" بقيادة نصير الدولة الجيوشي[5]، وحاصروا صور[6] حتى ملكوها، وملكوا في طريقهم صيدا[7]، وعكا[8]، وجبيل[9]، ووضعوا نواب الخليفة الفاطمي المستنصر بالله[10]، بها[11]، وكان الملك تتش قد اتجه إلى حصن بعلبك[12] للتصدي للخلافة الفاطمية، فسيطر عليها من صاحبها ابن ملاعب الذي طلب الأمان، واتجه إلى مصر[13].

قام السلطان ملكشاه باقطاع أخيه تتش بلاد الشام لتخليصها من أيدي الفاطميين وإخضاعها تحت سلطة السلطان، فسار إلى طرابلس، وفرض عليها الحصار سنة

---

(1) المقتدي بأمر الله: هو القاسم عمدة الدين عبد الله بن ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم عبد الله ابن القادر أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. العصامي، سمط النجوم العوالي (500/3).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (447/8).

(3) بدر الدين الجمالي: بدر الجمالي أمير الجيوش، دخل مصر سنة (466هـ/1073م)، فاستقر بها، فأقره الخليفة في وزارته، وفوض إليه الأمور كلها. العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر (ص91).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (283/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (27/32)

(5) نصير الدولة الجيوشي: هو أمير تابع لبدر الدين الجمالي استطاع السيطرة على القدس، ووضع نواب للخليفة الفاطمي. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص97).

(6) صور: مدينة مشهورة على طرف بحر الشام. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص68).

(7) صيدا: نقع على شاطىء البحر المتوسط. خسرو، سفر ناميه (ص49).

(8) عكا: تقع على ساحل بحر الشام. الحموي، معجم البلدان (141/4).

(9) جبيل: مدينة مثلثة تطل على البحر المتوسط ويحيطها سور حصين. خسرو، سفر ناميه (ص48).

(10) المستنصر بالله: المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم أبي علي منصور بن العزيز بن المعز العبيدي المصري. الذهبي، سير أعلام النبلاء(168/15).

(11) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص70)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (11/33)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (135/12)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (128/5).

(12) بعلبك: مدينة مشهورة في بلاد الشام بقرب من مدينة دمشق. الحموي، معجم البلدان (455/1).

(13) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (70/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (130/5).

"484هـ/1092م"؛ لكنة فشل في تملكها بسبب النزاع الذي حصل بينه وبين أمرائه الذين رحلوا إلى حلب، فاضطر تتش إلى الرحيل عن طرابلس[1]، ويذكر ابن تغري بأن حاكم المدينة ابن عمار احتج عليهم بأن لديه منشور من قبل السلطان ملكشاه يقره على حكم طرابلس، فلم يقبل تتش هذا المنشور، وتوقف آقسنقر عن قتاله فقال له تتش:" أنت تبع لي، فكيف تخالفني، فقال: أنا تبع لك إلا في عصيان السلطان"[2].

وقد أضعفت وفاة السلطان ملكشاه كيان الدولة السلجوقية، حيث قام الملك تاج الدولة تتش، بجمع الجيوش، وأنفق الأموال عليهم، وأخذ يطالب بالسلطنة في بغداد، وطلب من الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله أن يخطب له بالعراق، فرفض الخليفة طلبه، فقام بجمع العسكر، واتحد معه قسيم الدّولة آقسنقر، وياغي سيان[3]، وبوزان[4]، وقصدوا الرّحبة[5]، ونصيبين[6]، فملكوها، وقصد الموصل[7]، وسيطر عليها[8].

يتضح هنا أن موقف الخلافة العباسية بالنسبة لبلاد الشام كان ضعيفاً؛ بسبب ما كانت تعانيه الخلافة من ضعف نتيجة الهيمنة السلجوقية على البلاد التي تحكم باسم الخلافة العباسية. فكان الحال بالنسبة لبلاد الشام، هو الصراع بين الملوك للسيطرة على الحكم، وكذلك تصارع سلاطين السلاجقة في السيطرة عليها.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (477/6)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (22/33).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (132/5).

(3) هو الأمير ياغي سيان بن محمد بن ألب التركماني صاحب أنطاكية. ابن الاثير، الكامل في التاريخ (503/8).

(4) بوزان: هو أبو محمد بوزان بن سنقر بن عبد الله، الرومي الأصل، كان أبوه مولى، توفيسنة اثنتين وعشرين وستمائة بالموصل. الأربلي، تاريخ أربل (396).

(5) الرحبة: مدينة من أحسن بلاد العراق، وأول بلاد الشام.ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (746/2).

(6) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة بقرب سنجار. الحموي، معجم البلدان (288/5)؛ الزبيدي، تاج العروس (278/4).

(7) الموصل: مدينة مشهورة عظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان، وسميت الموصل؛ لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق.الحموي، معجم البلدان (223/5). وهي مدينة على غربي دجلة. الإصطخري، المسالك والممالك (ص30).

(8) الذهبي، تاريخ الإسلام (29/33)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (6/2)؛ اليافعي، مرآة الجنان (141/3)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (144/12).

شاع النزاع والصراع على سلطنة العراق بين أبناء البيت السلجوقي، فأثر ذلك على الوضع السياسي، والعسكري في بلاد الشام، حيث سار تتش من الشام إلى ميافارقين[1]، فملكها، وملك ديار بكر[2]، وأذربيجان[3]، فبادر بركيارق بن ملكشاه[4] للتخلص من عمه تتش، واتفق قسيم الدّولة، وبوزان على طاعة بركيارق، ففارقا تتش، مما جعل تتش يتراجع، ويرحل إلى الشام[5]، وبذلك يكون النزاع على عرش السلطنة السلجوقيه على العراق قد انتقل إلى الشام حيث دارت الحرب بين أتباع السلطان بركيارق، وبين الملك تتش، انهزم فيها أتباع السلطان بركيارق، وقتل قائدهم قسيم الدولة، وبوزان[6].

وبعد أن قوي أمر الملك تتش ببلاد الشام، وسيطرته عليها اتجه إلى بلاد الجزيرة[7]، فملكها، ثمّ ملك خلاط[8]، ثم اتجه إلى أذربيجان، فملكها[9]، وملك كل بلدة مر بها، وخطب له على منابر الإسلام في الشام، والجزيرة، وبغداد[10]؛ ولكنه قتل على يد ابن أخيه السلطان بركيارق، ووضع حد لطموحاته بالسيطرة على البلدان الإسلامية، والخطبة له فيها، والجدير أن الملك تتش كان قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه الملك رضوان[11]، وكتب إليه أن يسير إلى

(1) ميافارقين: بلد يقع في ديار بكر. الحموي، معجم البلدان (235/5). محاطة بسور عظيم من الحجر الأبيض. خسرو، سفر ناميه (ص41).

(2) ديار بكر: ناحية ذات قرى ومدن كثيرة بين الشام والعراق. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص149).

(3) أذربيجان: إقليم واسع يقع في الجزء الشمالي الغربي من إيران، أشهر مدنها تبريز. الحموي، معجم البلدان، (128/1).

(4) بركيارق: أبو المظفر ركن الدين ابن السلطان ملكشاه ابن ألب رسلان ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق ابن دقاق تولى السطنة العراق اثني عشر سنة. ابن خلكان، وفيات الأعيان (268/1).

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام (31/33).

(6) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص74)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (34/33)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (229/1).

(7) الجزيرة: بلاد تشتمل على ديار بكر ومضر وربيعة، وسميت جزيرة لأنها بين دجلة والفرات. الحموي، معجم البلدان (134/2).

(8) خلاط: مدينة كبيرة مشهورة قصبة بلاد أرمينية، القزويني، آثار البلاد (ص215).

(9) الذهبي، تاريخ الإسلام (34/33)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (595/3).

(10) ابن العديم، زبدة الحلب (231/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (195/26).

(11) رضوان: هو فخر الملوك استقل بمملكة حلب بعد مقتل والده، وقرر الخطبة، والسكة باسمه، توفي سنة(507هـ/1013م). أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(ص303)؛ بدران، منادمة الأطلال(ص283).

العراق، ويقيم بدار المملكة؛ ولكن بعد أن بلغه قتل أبيه عاد إلى حلب، وملكها[1]، وقسمت بلاد الشام، فسيطر الملك رضوان بن تتش على حلب، وسيطر أخوه الملك دقاق[2] على دمشق، وأخذ له العهد على الأجناد، والعسكرية، واستقام له الأمر[3].

نشب النزاع والاختلاف بين الأخوين بأن طمع الملك رضوان في السيطرة على دمشق، فجمع العسكر، واستغل فرصة غياب الملك دقاق عنها، فنزل بعسكره دمشق سنة "489هـ/1069م"، فلم يتمكن من ملكها[4]، ثم التقى الأخوان بقنسرين[5]، ودارت بينهم معركة انهزم فيها دقاق، ونهبت عساكره، وعلى إثر ذلك خطب لرضوان في دمشق[6].

ومن أجل أن يقوى الملك رضوان نفسه خطب للخليفة الفاطمي المستعلي بأمر بالله[7] سنة "490هـ/ 1097م"، مقابل مساعدته في حروبه ضد أخيه، فخطب في حلب للمستعلي، ثم للأفضل[8]، ثم لنفسه؛ لكن سرعان ما أعادها للخليفة العباسي، وأرسل إلى بغداد يعتذر مما فعله[9]، وهذا ما دل على ضعف الخلافة العباسية من تلك الإجراءات التي يتحكم بها بعض الملوك في بلاد الشام.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (503/8)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (39/33-40).

(2) دقاق: هو شمس الملوك دقاق بين تاج الدولة تتش تولى أمر دمشق بعد وفاة ابية حتى توفي سنة 497هـ/1103م. الذهبي، تاريخ الإسلام (60/34).

(3) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص77)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (504/8)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (231/1)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (290/1).

(4) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص78)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (ص234).

(5) قنسرين: هي مدينة شامية بالقرب من حمص وحلب. الحموي، معجم البلدان (404/4).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (11/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (292/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (47/33)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (171/5-172).

(7) الخليفة المستعلي: هو أبو القاسم أحمد المنعوت بالمستعلي ابن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز ابن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيداللهولي الأمر بعد أبيه المستنصر بالديار المصرية والشامية، ابن خلكان، وفيات الأعيان (178/1-179).

(8) الأفضل: هو الأفضل أمير الجيوش، بدر بن عبد اللّه الجمالي. بويع يوم موت أبيه، وهو ابن سبع سنين وسبعة وعشرين يومًا، وبقي في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر. العصامي، سمط النجوم العوالي (562/3).

(9) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (11/9)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (236/1).

على إثر ذلك خرج الأفضل أمير الجيوش من مصر في عسكره إلى الشام[1]، ونزل في بيت المقدس، وفيها الأميران: سقمان[2]، وإلغازي[3]، فراسلهما يلتمس منهما تسليم بيت المقدس إليه، فلم يجيباه إلى ذلك، فدارت الحرب بينهما، ودخلها الأفضل سنة "491هـ/1098م" ثم عاد بعسكره إلى مصر [4].

وكانت نتيجة تلك النزاعات، والصراعات التي دارت بين القوى الإسلامية في بلاد الشام انقسام العالم الإسلامي، فقد خضع الجزء الشمالى منه تحت سيطرة السلطنة السلجوقية التابعة للخلافة العباسية، أما الجزء الجنوبي فقد خضع تحت نفوذ الخلافة الفاطمية المعادية للمذهب السني، وبقيت المنطقة الوسطي من الشام تحت زعامة الفرق الدينية الأخرى، والقيادات المستقلة في حكمها عن المدن الأخرى، وقد كان للانقسام السياسي العسكري بين المدن المركزية في الشام دور في إفساح المجال للحملات الصليبية في احتلال المدن بسهوله.

فهذه النزاعات والصراعات شجعت الخلافة الفاطمية في التصدي للسلاجقة في بلاد الشام، الأمر الذي جعلها تراسل الصليبيين من أجل تقسيم الشام بينهم، والتخلص من القوة السلجوقية المعادية للخلافة الفاطمية[5]، وكان هدف الخليفة الفاطمي المستعلي بأمر الله من ذلك أن يضع حدًا فاصلًا بينه، وبين السلاجقة في بلاد الشام.

يتضح من ذلك بأن ما وصلت له بلاد الشام جعلها تبقى في حالة من الصراع حتى جاءت الحملة الصليبية فقسمت العالم الإسلامي من خلال احتلال بعض البلدان، حيث احتلت الرها التي فصلت الشام عن أرض العراق، ومدينة بيت المقدس التي فصلت مصر عن بلاد الشام، وأنطاكية التي فصلت بلاد الروم عن الشام، وكذلك مدينة طرابلس التي قسمت جنوب بلاد الشام عن شماله.

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب (1/235-236).

(2) سقمان بن أرتق بن أكسب التركماني صاحب ماردين وجد ملوكها كان أميرًا جليلًا فارسًا. ابن العماد، شذرات الذهب (3/409).

(3) إلغازي: هو إلغازى بن أرتق بن اكسب نجم الدين التركماني صاحب ماردين بعد أن توفي سنة 516هـ/1122م، تولى ماردين أخاه سقمان. الذهبي، العبر في خبر من غبر(4/36).

(4) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص 81)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (1/291).

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (28/161)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (34/8).

1.1.2ثانيًا: الأوضاع الداخلية في العراق حقبة الدولة السلجوقية

بعد أن سادت في بلاد العراق الفتن بسبب النزاع على الحكم داخل البيت البويهي، استطاع الخليفة التخلص من حكم البويهيين عندما استدعى السلاجقة بقيادة طغرل بك[1]، الذي دخل بغداد سنة "447هـ / 1055م"، واستطاع التخلص من البويهيين، وأخذ من الخليفة تقليدًا بأن يصبح سلطانا على جميع المناطق التي تحت يديه، حتى ذكر اسمه على المنابر بعد الخليفة العباسي [2]، وكان الخليفة القائم بأمر الله [3] قد فوض الأمر للسلطان، ويتمثل ذلك بقول الخليفة: " أمير المؤمنين حامد لسعيك، شاكر لفعلك، آنس بقربك، وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده، فاتق الله فيما ولاك، واجتهد في عمارة البلاد، وإصلاح العباد، ونشر العدل، وكف الظلم"، فرد السلطان على الخليفة بقولة:" أنا خادم أمير المؤمنين، وعبده، ومتصرف على أمره، ونهيه، ومتشرف بما أهلني له، واستخدمني فيه، ومن الله أستمد المعونة، والتوفيق"[4].

وبذلك استطاع السلاجقة حماية الخلافة العباسية من السقوط على أيدي الشيعة البويهيين؛ إلا أنهم تسلطوا على الحكم داخل شئون الخلافة، حتى أصبحت العراق تدين بالزعامة الروحية للخليفة العباسي، والزعامة السياسية للسلطان السلجوقي[5]، وبدخول طغرل بغداد تحقق للسلاجقة ما كانوا يطمحون به، فقد اتخذوا الخلافة العباسية رمزًا دينيًا للعالم الإسلامي[6].

ومن ثم اعتلى السلطان ألب أرسلان بن داود عرش السلاجقة بعد وفاة عمه طغرل بيك، ورحب به الخليفة، ولقبة " السلطان المعظم عضد الدولة، وتاج الملك أبا شجاع ألب أرسلان محمد بن داود"[7]، وقام الخليفة بإرسال سفارة له بقيادة الشريف نقيب النقباء طراد بن

---

(1) طغرل بك: هو أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب ركن الدين طغرلبك أول ملوك السلجوقية. ابن خلكان، وفيات الأعيان (63/5).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (357/8).

(3) القائم بأمر الله: عبد الله بن أحمد أمير المؤمنين أبو جعفر القائم بأمر الله بن القادر بالله. الكتبي، فوات الوفيات (519/1). كان القائم من أفاضل خلفائهم وصلحائهم. وطالت مدته في الخلافة وزاد به وقار الدولة ونمت قوتها. ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية (ص106).

(4) ابن الجوزي، المنتظم (19/16)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (72/12).

(5) طقوش، تاريخ سلاجقة الروم (ص33).

(6) أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري (ص67).

(7) ابن الجوزي، المنتظم (87/16).

محمد[1] وأبي محمد التميمي[2]، لتقديم الخلع والتقليد للسلطان الجديد وبذلك استقر أمر السلطان ألب أرسلان على العراق[3].

وبتفويض الخليفة للسلاطين السلاجقة أمر البلاد، جعلهم يتسلطون على البلاد التي يحكمونها، حتى أن الخليفة نفسه لم يسلم من شرهم، فقد ضعفت سلطة الخلافة على العراق، مما جعلها تعيش أوضاعًا سيئة تسودها الفتن في كل منطقة، وتصارع الحكام السلاجقة على السلطنة، والخطبة في البلاد الإسلامية، فقد كان السلطان السلجوقي يحكم بغداد بشكل غير مباشر، من خلال شحنة بغداد "قائد الجيش"، ويمر ببغداد لسبب ما، ثم يرحل إلى أصفهان[4] مقر حكم البيت السلجوقي[5].

وما أن اعتلى السلطان ملكشاه أمر السلطنة في العراق حتى قام الخليفة المقتدي بأمر الله بتفويضه أمر البلاد من الناحية السياسة، ونشر الأمن فيها ولم يتبق للخلافة في بغداد، وغيرها سوى الصفة الشرعية على البلاد[6]، لذلك أخذ الخليفة يتقرب من السلطان السلجوقي؛ من أجل تقوية مكانته السياسية في البلاد، وذلك عن طريق الزواج السياسي لحماية نفسه من الأعداء عندما أراد زفاف الخليفة من ابنة السلطان في سنة "480هـ/1088م"[7].

كان السلاجقة يتسلطون على الشئون الداخلية للخلافة حتى أنهم كانوا متى أردوا خلع الخليفة خلعوه، ومتى أرادوا التخلص منه قتلوه، وخير دليل على ذلك عندما أراد السلطان ملكشاه تغيير الخليفة، فقام بطرده من بغداد، وأمهله مدة قصيرة لتركها، وأرسل إليه " لا بد أن تترك لي

---

(1) طراد بن محمد: هو طراد بن محمد بن علي بن الحسن أبو الفوارس الزينبي، لقب بالكامل تولى النقابة داخل الخلافة سنة (453هـ/1061م) كان يرسل به إلى ملوك الأطراف بالعراق. الصفدي، الوافي بالوفيات(274/5).

(2) أبو محمد التميمي: هو رزق الله بن عبد الوهاب أبو محمد ابن أبي الفرج البغدادي. فقيه الحنابلة، وشيخهم، كان فقيهًا فاضلًا في المذهب، والخلاف، والأصول، توفي سنة (488هـ/1095م) . الصفدي، الوافي بالوفيات(4/453-454).

(3) ابن كثير، البداية والنهاية (91/12).

(4) أصفهان: تعتبر أهم مدن إيران، وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن. الحموي، معجم البلدان (206/1-208).

(5) ابن الجوزي، المنتظم (259/16).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (449/8).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (451/8)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (144/23).

بغداد، وتذهب إلى أي بلد شئت"، فانزعج الخليفة، وبعث إليه يقول:" أمهلني شهرًا، فقال: ولا ساعة" فبعث الخليفة إلى وزير السّلطان تاج الملك، فطلب المهلة عشرة أيام(1).

وانفرط عقد الدولة السلجوقية بوفاة السلطان ملكشاه، وتمزقت وحدتها، وقوتها، وانتهى عصر السلاجقة العظام، وبموته انقسم السلاجقة إلى خمس إمارات، استقلت كل واحدة عن الأخرى(2)، حتى وصف ابن الأثير الحالة بعد موت السلطان ملكشاه بأن "انحلت الدولة ووقع السيف"(3).

من الملاحظ هنا أن الخليفة العباسي لم يكن له أية سلطة على البيت السلجوقي فعندما توفي السلطان ملكشاه لم تشهد جنازته، ولم يصلِ عليه في العلن(4)، فقد قامت زوجة السلطان (تركان خاتون) بإقامة الخطبة لابنها السلطان محمود، وطلبت من الخليفة المقتدي بأن يُخطب لابنها فأجاب الخليفة، وخُطب له على منابر بغداد، ولُقب "ناصر الدنيا والدين"، وهو في السنة الخامسة من عمره، وأمرت زوجة السلطان بالقبض على بركيارق أكبر أولاد السّلطان ملكشاه لانه من أم أخرى فقبض عليه في أصفهان(5).

لما علم بركيارق بن ملكشاه بوفاة أبيه هرب من السجن، وذهب إلى الري، فوقعت معركة بينه، وبين عسكر تركان خاتون التي انهزمت بها، وعلى إثر ذلك رجع بركيارق إلى أصفهان(6)، ومن هنا بدأت حلقة النزاع، والصراع على عرش السلطنة بين أبناء البيت السلجوقي(7).

ففي عام "486هـ/1093م" خطب تاج الدولة تتش السلجوقي لنفسه بعد موت أخيه ملكشاه، وأرسل إلى الخليفة بأن يخطب له؛ لكن الخليفة المقتدي أرسل إليه "إنما تصلح للخطبة إذا حصلت الدنيا بحكمك، والخزائن التي بأصفهان معك، وتكون حاكم بلاد الجزيرة،

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (134/5)؛ ابن العماد، شذرات الذهب (377/3).
(2) أبو النصر، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري (ص111).
(3) الكامل في التاريخ (379/8).
(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (192/26).
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (484/8-485)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (287/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (25/33) ابن الوردي، تتمة المختصر (6/2)؛ سيد، مختصر تاريخ العرب (ص280).
(6) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (193/26)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (26/33).
(7) حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (ص40).

وخراسان[1]، ولم يبق من أولاد أخيك ملكشاه من يخالفك، وأما في هذا الحال، فلا سبيل إلى ما التمسته"[2] وهذه سياسة قوية استخدمها الخلفاء العباسيون للتخلص من قوة البيت السلجوقي من أجل تفكيك هذه القوة، وبسط سيطرة الخليفة على بغداد، فتجد الخليفة أقام الخطبة لمحمود رغم صغر سنة، وطلب الخليفة من الملك تتش أن يسيطر على أكبر منطقة من العالم الإسلامي من أجل إقامة الخطبة له في العراق.

ويبدو واضحًا هنا الموقف الدبلوماسي لمؤسسة الخلافة، فهي تعوض ضعفها العسكري بسياسة دبلوماسية نشطة قائمة على الدهاء، وزرع بذور الفرقة، والخلاف بين الأطراف من أجل إضعاف الجميع، وبالتالي يصبح الجميع بحاجة الخلافة، حيث صرح للأمير تتش إن أردت أن يخطب لك على منابر بغداد، وسك العملة باسمك، عليك اتباع سياسة التوسع، والقضاء على الآخرين، والسيطرة على الخزائن، عندها لن يكون هناك مانع، أو معارضة من مؤسسة الخلافة بأن يخطب لك على المنابر، وتضرب العملة باسمك .

ويبين ابن خلدون وضع الخلافة العباسية في تلك المرحلة بقوله: "اضطربت بغداد ... بالفتن، وكثر فيها المفسدون، والدعار، والعيارون"، وذكر كذلك أنه لم تستطع الدولة السلجوقية حسم الفتن، ويرجع سبب ذلك أن مقر حكمهم بأصفهان، وبعدهم عن بغداد، فقد كانت بغداد تحكم بطريقة غير مباشرة من خلال الشحنة [3].

وكان الخليفة العباسي المقتدي بالله قد خطب للسلطان بركيارق، ولقبه "ركن الدين"، وحمل الوزير عميد الدولة بن جهير[4] الخلع إلى بركيارق، فلبسها، وعرض التقليد على الخليفة، وبعد وفاة الخليفة المقتدي سنة "487هـ/1094م"، قام السلطان بركيارق بأخذ البيعة للمستظهر بالله

---

(1) خراسان: هي إقليم خراسان، وتسمى أرض الجبال، تتكون من خمسمائة مدينة، من أهم مدنها: همذان، والسوس، وششتر، وزرنج، ونيسابور، وسرخس، وغزنة، ومرو، والطالقان، وبلخ، وفاراب، وبدخشان، وقم، وقاشان، وأصفهان، وجرجان، والبيلقان، وراعة، وأردبيل، وطوس. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (ص147).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (137/5).

(3) تاريخ ابن خلدون (590/3).

(4) عميد الدولة بن جهير: عميد الدولة أبو منصور محمد بن فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير الوزير وزر للمقتدي بالله سنة اثنتين وسبعين، ثم عزل بعد خمس سنن، ثم وزر سنة أربع وثمانين إلى أن مات. ابن العماد، شذرات الذهب، (400/3).

رغم صغر سنة الذي بلغ ست عشرة سنة[1]، فقام الخليفة بإرسال الخلع، والتقليد إلى السلطان[2]، ونجد هنا ما يقوم به السلاطين السلاجقة من تعيين الخلفاء العباسيين الضعفاء، وهم من يختارون هؤلاء الخلفاء من أجل إبقاء سيطرتهم على سلطة الخلافة في العراق.

بعد أن تخلص بركيارق من أخيه محمود في نزاعه على السلطة في بغداد، عاد تتش من أذربيجان إلى الشام، وطالب بالسلطنة، وتخلص من أمراء السلطان بركيارق في الشام، واستولى في طريقه على حران، والرها، ثم ملك بلاد الجزيرة ، وسار إلى أذربيجان فملك بلادها، وملك همذان[3]، وأرسل يطلب الخطبة ببغداد من المستظهر بالله، فأجيب الخليفة إليه[4]، وقد حصلت حروب كثيره بين السلاطين، والملوك؛ للسيطرة على الحكم، والسلطنة[5].

عندما أصبحت البلاد تحت سيادة الملك تتش، أصرَّ السلطان بركيارق على مواجهته، ووصل إلى أربل[6]، وفي بداية الأمر انهزم بركيارق أمام عسكر عمه تتش، وهرب، وانضم عسكره إلى عمه، فتضاعفت عدته، وقويت شكوته، ووصل إلى همذان، وكاتب الملك تتش ابنه الملك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إلى العراق؛ لإقامة الخطبة له في بغداد بعد الخليفة العباسي، فسار إليها، ومعه جماعة من أمراء العرب سنة "487هـ/1094م"[7]، ومن ثم ذهب تتش إلى مدينة الري، فملكها، واستولى على البلاد، والأعمال، والمعاقل من الشام إلى الري، فبرز إليه بركيارق بعسكرة من أصفهان، ودارت بينهم معركة سنة "488هـ/1095م" كانت نتيجها أن قتل تتش، وتفرق عسكره، وأسر الكثير من الجند[8]، وهنا تخلص السلطان بركيارق

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (288/1–289).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (493/8).

(3) همذان: مدينة مشهورة من مدن الجبال بإيران. الحموي، معجم البلدان (410/5).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (289/1).

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (146/23).

(6) أربل: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة بين الزابين، وتعدّ من أعمال الموصل. الحموي، معجم البلدان (138/1).

(7) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص 75).

(8) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (195/26)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (39/33)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (231/1).

من عمه تتش، وانفرد بالسلطنة على بلاد العراق، والشام، والجزيرة، واستقام أمره، وخطب له ببغداد[1].

لم يدم استقرار السلطان بركيارق بأمر بغداد لفترة طويلة، فقد ظهر أخوه السلطان محمد[2] منازعًا له على الحكم، وسيطر على الري مقر حكم السلاجقة في أصفهان سنة "492هـ/1099م" مطالبًا بسلطنة العراق، وتحالف مع أخيه سنجر[3]؛ لكي يخطب له ببغداد[4]، وانضم إليه سعد الدولة كوهرائين[5]، وقوام الدين كربوقا ملك الموصل، وجكرمش حاكم الجزيرة فبايعوه، وسار كربوقا، وجكرمش في خدمته إلى أصفهان، وخاطب الخليفة في الخطبة للسلطان محمد، فاستجاب إليهم، وخطب له سنة "493هـ/1099م"، ولقب "غياث الدنيا، والدين"[6].

ويستنتج من ذلك بأنه تم الصراع على الحكم، والسلطنة بين أبناء البيت السلجوقي خارج نطاق بغداد، فقد طالب السلطان تتش بالسلطنة، وهو يحكم بالشام، وكذلك طالبها السلطان محمد، وهو يحكم ببلاد العراق، وأما السلطان بركيارق فقد طالب بالسلطنة، وهو يحكم ببلاد أصفهان، وأما الخليفة، فلم يكن له من الحكم شيئًا، فقد كان يخطب للقوي منهم، والذي يسيطر على أكبر منطقة من العالم الإسلامي[7].

لم يقف السلطان بركيارق مكتوف الأيدي، فقد سار إلى بغداد، وأعيدت الخطبة له، ومن ثم التقى بعسكر أخيه بالقرب من همذان، فانهزم عسكره، وأرسل السلطان محمد إلى بغداد،

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (502/8)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (290/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (39/33)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (595/3).

(2) السلطان محمد: محمد بن ملكشاه السلجوقي أبو شجاع محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان. ابن خلكان، وفيات الأعيان (71/5).

(3) سنجر: أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق سلطان خراسان، وغزنة، وما وراء النهر، وخطب له بالعراقيين، وأذربيجان، وأران، وأرمينية، والشام، والموصل، وديار بكر، وربيعة، والحرمين، وتلقب بالسلطان الأعظم معز الدين. ابن خلكان، وفيات الأعيان (427/2).

(4) ابن كثير، البداية والنهاية (157/12).

(5) سعد الدولة: سعد الدولة كوهرائين خادمًا كبيرًا محتشمًا ، ولي بغداد، وخدم ملوكها ، ورأى ما لم يره أمير من نفوذه الكلمة، والعز . وكان حليمًا، كريمًا، حسن السيرة. الذهبي: تاريخ الإسلام(23/34).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (22/9)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (197/26).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (22/9)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (197/26).

فخطب الخليفة له يوم الجمعة في الرابع عشر من رجب لعام "493هـ/1100م"[1]، وفي نفس العام وقعت الحرب بين بركيارق، وأخيه السلطان سنجر في خراسان، فانهزم بركيارق، وعسكره، واتجه إلى جرجان[2]، ثم إلى دامغان[3]، فملكها[4]، وأخذ يتنقل في أصفهان حتى كون عسكر من جديد، واستطاع من خلاله إلحاق الهزيمة بأخيه محمد سنة "494هـ/ 1101م"[5].

وما أن انهرم السلطان محمد حتى سار إلى أخيه الملك سنجر في خرسان، واتحدا، واتفقا ضد أخيهما بركيارق، وسار الملك سنجر من خراسان في عساكره نحو أخيه السلطان محمد، واجتمعوا بجرجان، ومنها انتقلوا إلى دامغان، ثم إلى الري[6]، وكان بركيارق قد سار نحو بغداد، وطلب من الخليفة الأموال لتجهيز الجيش ضد أخويه، فحمل الخليفة إليه خمسين ألف دينار[7].

اتجه السلطان محمد، وسنجر إلى بغداد، وانضم إليهم إلغازي، فلما وصلت الأخبار لبركيارق كان مريضًا، ففارق بغداد واتجه إلى واسط[8]، ودخل السلطان محمد بغداد سنة "495هـ/1102م"، ونزل بدار المملكة، فبرز إليه توقيع الخليفة المستظهر بالله، وخطب له بالديوان[9]، وفرح الخليفة، والناس بقدومه [10]، "فجلس الخليفة بدار الخلافة، وعلى كتفيه البردة، والقضيب بيده، وجاء الملكان الأخوان: محمد، وسنجر أبناء ملكشاه، فقبلا الأرض، وخلع عليهما الخلع السلطانية، فخلع على محمد: سيفًا، وطوقًا، وسوارًا لؤلؤًا، وأفراسًا من مراكبه،

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (26/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (293/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (198/26).

(2) جرجان: مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان. بناها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (ص141).

(3) دامغان: مدينة بين الري، ونيسابور، وهي أقرب إلى نيسابور. البكري، معجم ما استعجم (539/2).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (293/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (199/26).

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(294/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(199/26)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام(26/34).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (32/9)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (200/26)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (ص 34، 26).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(33/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (294/1).

(8) واسط: مدينة بين الكوفة والبصرة من الجانب الغربي. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (ص195).

(9) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (34/9-35)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (201/26).

(10) الذهبي، تاريخ الإسلام (27/34).

وعلى سنجر دون ذلك، وولى السلطان محمد بغداد، واستنابه في جميع ما يتعلق بأمر الخلافة"[1].

وبعد أن استقرت الأمور في بغداد قصد السلطان سنجر خراسان، أما السلطان محمد فسار إلى همذان، فاستغل بركيارق غيابهم عن بغداد، وقصدها، فما كان من الخليفة إلا أن أرسل للسلطان محمد بما حدث، ودعاه للعودة فلبى السلطان دعوة الخليفة، فنزل بغداد، ورتب أمورها، وعين إلغازي شحنة[2]، وأخذ يتبع أخاه حتى بلغ نهاوند[3]، فتصافى الطرفان، واجتمعوا واتفقوا على الصلح، فاستقرت القاعدة أن يكون بركيارق السلطان، ومحمد الملك، ويضرب له ثلاث نواب، ويكون له من البلاد جنزة[4]، وأعمالها، وأذربيجان، وديار بكر، والجزيرة، والموصل، وحلف كل واحد منهما لصاحبه؛ وحينها خطب الخليفة للسلطان بركيارق في بغداد[5].

لم يستمر وفاقهم طويلًا، فوقع الخلاف حتى دارت بينهما معركة، انهزم فيها السلطان محمد[6]، وهرب إلى أصفهان في سبعين فارسًا، وأخذ يحصنها، ويجدد أسوارها، وقام بتعميق الخندق، وسلم إلى كل أمير كان معه في البلد ألف ومائة فارس وخمسمائة رجل، ونصب المنجنيق[7]، وبقي السلطان بركيارق يتبع أخاه إلى أصفهان حتى حاصره بها، فرأى السلطان محمد أنه لا قدرة له على الصمود في وجه أخيه، فهرب إلى همذان، وأرسل بركيارق خلفه عسكرًا؛ لكنهم فشلوا بالإمساك به[8]، ثم التقى العسكران، ودارت بينهم معركة سنة

(1) ابن كثير، البداية والنهاية (162/12)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (168/5).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(9/46-47).

(3) نهاوند: مدينة عظيمة في قبلة همذان، الحموي، معجم البلدان(313/5).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (296/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (42/34).

(5) جنزة بالفتح اسم أعظم مدينة بأران، وهي بين شروان، وأذربيجان، وهي التي تسميها العامة كنجه. الحموي، معجم البلدان(171/2).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (48/9).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (49/9)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (201/26).

(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (49/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (296/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (43/34).

"496هـ/1103م" وهو اللقاء الخامس وكان النصر فيه لمحمد، وانهزم بركيارق وأصحابه، وسار محمد إلى خلاط، ثم إلى تبريز [1] وأذربيجان[2].

ومن ثم وقع الصلح بين السلطانين الأخوين: بركيارق، ومحمد، وكان سبب ذلك" أن الحروب تطاولت بينهما، وعم الفساد، فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعًا فيها، ومحكومًا عليها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين"[3].

كان من ضمن ما تم الاتفاق عليه أن خطب للسلطان بركيارق بالري، وبلاد الجبل، وطبرستان[4]، وخوزستان[5]، وبلاد فارس، وديار بكر، والجزيرة، وبالحرمين الشريفين، أما السلطان محمد بن ملكشاه فقد خطب له في بلاد أذربيجان، وأرمينية[6]، وأصفهان، والعراق كلها ما عدا مدينة تكريت[7] [8]، وأما خراسان فإن السلطان سنجر قد ملكها، وخطب له فيها، وهي: من حدود جرجان إلى ما وراء النهر، ومن ثم لأخيه السلطان محمد[9]، ووضعت الحرب بينهم على الآتي:

- أن لا يذكر بركيارق في البلاد التي استقرت لمحمد.
- أن يكون الاتصال بينهم عن طريق الوزراء.
- أن لا يعارض العسكر في قصد أيهما شاء.

---

(1) تبريز: تعتبر من أشهر مدن أذربيجان. الحموي، معجم البلدان(13/2).

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (201/26).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (57/34)؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص428)؛ حسن، تاريخ الإسلام، (ص44).

(4) طبرستان: هي المنطقة الجبلية التي تحيط بجنوب بحر الخزر (قزوين)، وتضم بلدانا واسعة، وحصونا كثيرة. ويطلق على طبرستان اسم (مازندران). الحموي، معجم البلدان (13/4).

(5) خوزستان: تقع في جنوب بلاد فارس وأصفهان.الإصطخري، المسالك والممالك (ص35).

(6) أرمينية: تقع بين أذربيجان، والروم، ذات مدن، وقلاع، وقرى كثيرة. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (ص203).

(7) تكريت: مدينة تقع على ضفة دجلة الغربية، وكانت تعد آخر مدينة في حد العراق تفصل بينه وبين الجزيرة. الحموي: معجم البلدان (38/2).

(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (71/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(297/1).

(9) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ص71)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (57/34).

- أن تكون بلاد محمد من النهر المعروف باسبيذز إلى باب الأبواب، وديار بكر، والجزيرة، والموصل، والشام، ويكون له من العراق بلاد صدقة بن مزيد[1]، وهي بلاد الحلة[2].

وبناءً علي ما تم الاتفاق عليه " كتبت العهود والأيمان والمواثيق "[3]، ولما وصلت الرسل إلى الخليفة المستظهر بالصلح، وما استقر عليه الحال، خطب لبركيارق في الديوان، ثم خطب له في الجوامع، وقطعت خطبة السلطان محمد[4].

وما أن توفي السلطان بركيارق "498هـ/1104م" حتى حلف الجيش لولده ملكشاه، وقلده الخليفة، وخطب له ببغداد، وعمره خمس سنين[5]، ولقب "بجلال الدولة"[6]، وما أن علم السلطان محمد سار إلى بغداد، وخطب له بالجانب الغربي، ولملكشاه بن بركيارق بالجانب الشرقي[7]، واضطربت الأمور ببغداد، فدخل أتابك ملكشاه إياز في طاعة السلطان محمد، وخدمته[8]، وبذلك استقر الأمر، وأقيمت الخطبة للسلطان محمد بعد أن قامت الحروب بينه، وبين أخيه بركيارق أكثر من خمسة حروب للسيطرة على سلطنة العراق؛ وقد كان السلطان محمد كما وصفه ابن خلكان" رجل الملوك السلجوقية، وفحلهم"[9].

يمكن القول هنا بأن الخليفة العباسي لم يكن له أي دور ملموس في فترة حروب أبناء السلطان ملكشاه للوصول إلى الحكم، غير أنه كان يقيم الخطبة للسلطان الذي ينتصر على منافسه في الوصول إلى الحكم، وما أن استقر أمر السلطان محمد في بغداد حتى قام الخليفة

---

(1) صدقة بن مزيد: هو أبو الحسن صدقة الملقب سيف الدولة فخر الدين بن بهاء الدولة أبي كامل منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري صاحب الحلة. ابن خلكان، وفيات الأعيان (240/2).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (71/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (297/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (202/26)؛ حسن، تاريخ الإسلام (ص44).

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص429).

(4) ابن الجوزي، المنتظم (85/17)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (71/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (297/1).

(5) السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص429).

(6) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (205/26).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (80/9).

(8) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص88).

(9) وفيات الأعيان (72/5)؛ حسن، تاريخ الإسلام (ص48).

المستظهر بتمكين نفسه في بغداد بالزواج من أخت السلطان محمد خاتون بنت ملكشاه سنة "502هـ/1109م"[1].

بلاد العراق عهد الخليفة المسترشد بالله[2]

توفي السلطان محمد بن ملكشاه سنة "511هـ/1118م"، وعقب وفاة السلطان، توفي الخليفة المستظهر بالله سنة "512هـ/1119م" [3]، وولي الأمر من بعده الخليفة المسترشد بالله، وجدد له أخذ البيعة، واستقام له الأمر[4]، وفي تلك الفترة انتقلت السلطنة السلجوقية من العراق إلى خراسان، وذلك أن سنجر لم يبق في البيت أكبر منه، فكان هو السلطان المشار إليه؛ لأنه كان ملكًا في حياة أخيه، وعظم شأنه، واستولى على عدة ممالك[5]، وفي نفس الوقت خطب للسلطان محمود بن محمد[6] في بغداد[7].

كانت نتيجة كثرة الحروب، والفتن التي عمت بغداد أن انتشر الغلاء، وانعدم الأمن، حتى عادت الحرب مرة أخرى بين السلطان محمود بن محمد، وعمه السلطان سنجر سنة "513هـ/1120م"، فانتصر السلطان سنجر، فخطب له ببغداد[8]، ومن ثم استقام الأمر بين السلطان سنجر، وابن أخيه[9]، وخطب للسلطانين في موضع واحد، وسمي كل واحد منهما شاهنشاه[10].

---

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (149/23)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (ص 35، 14)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (170/12).

(2) المسترشد بالله: الفضل بن المستظهر أحمد بن المقتدي عبد اللّه بن محمد الذخيرة بن القائم. الذهبي، سير أعلام النبلاء(561/19)

(3) ذيل تاريخ دمشق (ص 123)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(305/1).

(4) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص 123).

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (213/26).

(6) السلطان محمود: مغيث الدين السلجوقي أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي. ابن خلكان، وفيات الأعيان (182/5).

(7) ابن كثير، البداية والنهاية (182/12).

(8) ابن كثير، البداية والنهاية (182/12- 184).

(9) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص124).

(10) ابن الجوزي، المنتظم (185/17).

بعد إن استوى الأمر بين السلطان محمود، وعمه سنجر ظهر الملك مسعود[1] منافس لأخيه محمود في السلطنة، فوقعت معركة بينهم عند عقبة أسد أباذ سنة "514هـ/1121م"، فانهزم عسكر مسعود، ثم أرسل إلى أخيه مسعود الأمان، واستقدمه عليه، واصطلحا[2].

جلس الأخوان عند الخليفة، وقبلا الأرض، فأصلح بينهما، ووقفا بين يديه" فخلع على محمود سبع خلع، وطوقًا، وسوارين، وتاجًا، وأجلسه على كرسي، ووعظه الخليفة، وتلا عليه قوله تعالى:" فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ "[3]، وأمره بالإحسان إلى الرعايا، وعقد له لواءين بيده، وقلده الملك، وخرجا من بين يديه مطاعين معظمين، والجيش بين أيديهما في أبهة عظيمة جدًا"[4]، وهنا نجد الخليفة أراد إقامة الصلح بين السلطانين: مسعود، ومحمود أبناء السلطان محمد، لمواجهة القوى العظمي المتمثلة بشخص السلطان سنجر سلطان السلاجقة الأكبر في خراسان المتحكم في شئون السلاجقة في العراق.

لم يستقر الوضع في بغداد على ماهو عليه، فقد ثار الأمير دبيس بن صدقة ضد الخليفة، فتصدى له الخليفة، وقام بحملة ضده حتى استطاع هزيمته[5]، ويتضح من ذلك بأن الخليفة استطاع صد الأمير دبيس دون الاستعانة، أو الاستنجاد بالسلطان السلجوقي كما كان يستنجد بهم من قبل، وهنا يمكن القول بأن الخلافة العباسية أخذت تعيد كرامتها شيئًا فشيئًا حتى استطاعت في النهاية الاستقلال عن الحكم الأجنبي الخارجي، والنفوذ في الحكم لوحدها.

بعد أن تخلص السلطان محمود من شأن أخيه مسعود، ظهر أخيه طغرل مطالبًا بالسلطنة، واستنجد بالأمير دبيس، وتحدا على قصد بغداد للسيطرة عليها[6]، فقصدوها سنة "519هـ/1125م" وطلب طغرل من الخليفة أن يخطب له؛ لكن فشلت الحملة على بغداد بسبب مرضه، والسيل العظيم الذي ضرب بغداد بسبب المطر[7]، ومن ثم التجأ دبيس، وطغرل إلى

---

(1) السلطان مسعود: غياث الدين السلجوقي أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي. ابن خلكان، وفيات الأعيان (200/5).

(2) ابن الجوزي، المنتظم (186/17-187)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (185/12).

(3) الزلزلة: [7-8].

(4) ابن الجوزي، المنتظم (196/17)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (188/12).

(5) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص127)؛ ابن الجوزي، المنتظم (217/17)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (ص12، 191).

(6) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص132)؛ ابن الجوزي، المنتظم (228/17).

(7) ابن الجوزي، المنتظم (228/17-229)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (194/12).

الملك سنجر، وحرضوه ضد الخليفة، والسلطان معًا على أن الخليفة يريد أن يستأثر بالملك، وقد خرج من بغداد لمحاربة السلاجقة[1].

وهنا نجد أن الخليفة المسترشد بعد أن تخلص من الملك طغرل أراد أن يتخلص من كبير البيت السلجوقي السلطان سنجر، فأرسل مبعوثة الدبلوماسي الوزير جلال الدين بن صدقة للسلطان محمود[2]، واستطاع من خلال سفارته أن يتفق مع السلطان محمود ضد عمه السلطان سنجر، فلما علم سنجر بذلك كتب إلى ابن أخيه محمود ينهاه عن محالفة الخليفة، ويحذره منه، وكتب اليه :"أنت يميني، والخليفة قد عزم على أن يمكر بي وبك، فإذا اتفقتما علي، فرغ مني، وعاد إليك، فلا تلتفت إليه، وأنت تعلم أنه ليس لي ولد، وإنك ضربت معي مصافًا، وظفرت بك، فلم أسيء إليك، وقتلت من كان سببًا لقتالنا، وأعدتك إلى السلطنة، وجعلتك ولي عهدي، وزوجتك ابنتي"[3].

فأصغى السلطان محمود إلى قول عمه، وتراجع عن عزمه، وأراد دخول بغداد، فكتب إليه الخليفة ينهاه عن دخول بغداد، بسبب قلة الميرة؛ لكن السلطان رفض، وسار إلى بغداد، فخرج الخليفة من داره، وأمر تجهيز العسكر ومحاربة السلاجقة فخطب بالناس خطبة عظيمة بليغة يستنفر الناس ضد السلاجقة، وما أن دخل السلطان محمود بغداد راسل الخليفة في الصلح، فرفض الخليفة طلبه، فاستنجد السلطان بعماد الدين زنكي[4]، الذي سار على رأس عسكره من واسط لدعم السلطان، فلما عرف الخليفة بذلك دعا السلطان إلى الصلح [5].

فأرسل الخليفة مبعوثيه وهم قاضي القضاة الزينبي، وإسماعيل الصوفي ونيفًا، وثلاثين شاهدًا للسلطان، فاحتجزهم السلطان عنده، وكادت أن تقوم الحرب، وأخذوا عامة بغداد يشتمون السلطان: "يا باطني لما لم تقدر على غزو الروم جئت تغزو الخليفة والمسلمين"، واستمع

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية (195/12).

(2) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص 132).

(3) ابن الجوزي، المنتظم (231/17)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (308/35).

(4) عماد الدين زنكي: أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور حاكم الموصل، وحلب. ابن خلكان، وفيات الأعيان (327/2).

(5) ابن الجوزي، المنتظم (232/17- 236)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (195/12- 196).

السلطان لقاضي القضاة الزينبي، وقال له :" سمعًا وطاعة لأمير المؤمنين، ولم يخالف في شيء مما اقترح عليه، وحلف، وبذلك وقع الصلح بين الطرفين"[1].

لم يرض الخليفة على الصلح الذي وقع تحت ضغط قوة السلاجقة، وما إن اضطربت بغداد، عند هجوم دبيس عليها سنة "522هـ/1128م"، لعب الخليفة دورًا بارزًا فاستنجد بالسلطان، وكاتبه "إنك إن لم تمنعه من المجيء، وإلا احتجنا أن نخرج إليه، وينتقض العهد الذي بيننا، وبينك"[2]، وكان السلطان حينها بالري مشغولًا بأمر عمه سنجر الذي استدعاه من أجل تفقد أمره، فسار إليه السلطان محمود، واستقبل من قبل عمه، وبالغ في إكرامه، وعاد سنجر إلى خراسان، ورجع محمود إلى همذان[3]، ودخل السلطان محمود بغداد سنة "523هـ/1129م"، وطلب من الخليفة الإعفاء عن دبيس، والدخول إلى بغداد؛ لكن الخليفة رفض طلب السلطان، وخلع عليه الخلع[4].

لم تستقر الأمور للسلطان محمود على عرش السلطنة، فقد نافسه أخوه مسعود على الحكم، وأخذ يجمع العساكر، يريد السيطرة على العراق، وهنا وظف الخليفة الموقف من أجل تكوين نفسه، فأرسل للسلطان محمود "إنك تعلم ما بيني وبينك من العهد واليمين، وإني لا أخرج ولا أدون عسكرًا، وإذا خرجت عاد العدو، وملك الحلة، وربما تجد منه ما تعلم" فما كان من السلطان إلا أن أجاب للخليفة بتكوين نفسه عند الحاجة بأن قال له :" فمهما رأيت من المصلحة فافعله"[5]، وبذلك استطاع الخليفة تحرير بغداد من قيود السلاجقة من خلال تكوين جيش لمواجهة أعداء الخلافة.

وما أن اعتلا السلطان مسعود عرش سلاجقة العراق بعد وفاة أخيه أخذ الخليفة بمحاربته، فوقعت بينهم حربًا سنة "529هـ/1135" أدت إلى هزيمة عسكر الخليفة، وأخذ أسيرًا، ومن ثم تردد الرسل بينهم بالصلح على مالٍ يؤديه الخليفة للسلطان، وأن لا يعود يجمع العساكر، ولا يخرج من داره[6].

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام (5/36).

(2) ابن الجوزي، المنتظم (250/17).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (247/9– 248).

(4) ابن الجوزي، المنتظم (250/17–253)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (249/9).

(5) ابن الجوزي، المنتظم (263/17–264).

(6) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص122).

وقد طال حصار الخليفة عند السلطان الذي كان على اتصال مباشر بعمه سنجر، يشاوره في أمر الخليفة، فأرسل عمه إليه رسالتين، كانت الأولى علنية تحث السلطان مسعود بإعادة الخليفة إلى بغداد(1)، أما الرسالة الأخرى فقد كانت سرية تنص على التخلص من الخليفة وقتله(2)، وهو ما حصل فأثناء استعداد الخليفة للرجوع إلى بغداد قصده أربعةٌ وعشرون رجلًا من الباطنية، ودخلوا عليه في خيمته، فقتلوه(3).

ويمكن القول هنا بأن السلاطين السلاجقة مسعود، وعمه سنجر هم من اتفقوا على قتل الخليفة، وما يدل على ذلك بأن السلطان انتظر موافقة عمه في التخلص من الخليفة، وجعل خيمة الخليفة بعيده عن عسكره حتى لا يتهم بقتل الخليفة، وما يؤكد اتهام سنجر بالمشاركة في مقتل الخليفة أيضًا هو أن الباطنية التي قتلت الخليفة كانوا قد رافقوا رسول السلطان سنجر إلى السلطان مسعود(4)، وما زاد الأمر سوءًا انقسام، وتدهور أمور الدولة الإسلامية في تلك الفترة(5).

وتولى الراشد بالله أمر الخلافة بعد قتل أبيه، وخطب للملك السلجوقي داود بن محمود ببغداد، فما كان من السلطان مسعود إلا أن سيطر على بغداد، بعد هروب الراشد إلى الموصل، فقام بجمع القضاة، والشهود، والفقهاء، للتخلص من الراشد، وبين لهم قول الخليفة :" إني متى جندت، أو خرجت انعزلت"(6)، وشهد جماعة منهم ما يقوم به الراشد من الظُّلم، وأخذ الأموال وسفْك الدماء، وشُرب الخمور، وارتكاب المحارم، فأفتوا بخلع الراشد، وقطعت خطبته من بغداد، وسائر البلاد(7).

وكان السلطان مسعود قد استشار جماعةً من أعيان بغداد فيمن يصلح أن يلي الخلافة، فقالوا: "أن يكون ذو دين، وعقل، ولين جانب، وعفة"(8)، واستشار السلطان مسعود عمه

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(283/9).
(2) ابن الجوزي، المنتظم (298/17)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (61/1)؛ ابن خلدون، تاريخ (376/4).
(3) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص122).
(4) ابن الجوزي، المنتظم (161/17)
(5) زيان: الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية (ص29).
(6) الذهبي، تاريخ الإسلام (59/36).
(7) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (163/23).
(8) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص155)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول(ص 123).

السلطان سنجر على أن يكون الخليفة ذو زهد، ودين(1)، فوجد الصفات كلها موجودة في أبي عبد الله بن المستظهر، فبويع بالخلافة، ولقب بالمقتفي بأمر الله(2) سنة "530هـ/1136م"(3)

1.2 المبحث الثاني: صراع أبناء البيت السلجوقي في الوصول إلى الحكم، وموقف الدبلوماسية العباسية من تلك الصراعات

1.2.1 أولًا: الدور الدبلوماسي للخليفة المقتفي لأمر الله في التخلص من التسلط السلجوقي على الخلافة "535-555هـ"

ذكرنا سابقًا بأن السلطان مسعود قام بتدبير خلع الخليفة الراشد سنة "530هـ/1135م"، وقد ولى المقتفي لأمر الله الخلافة، وعقد له البيعة ببغداد(4)، وجاء اختياره من خلال المشاورات بين السلطان سنجر، والسلطان مسعود حول مواصفات الخليفة الذي يريدونه لتولي الخلافة(5)، وذكر السلطان مسعود الصفات التي يجب توافرها في الخليفة الذي يُرشح لتولي منصب الخلافة، فقد قال: " لا يكون عنده خيل، ولا آلة سفر "(6).

وبذلك يكون السلطان قد قام بتجريد الخليفة من أبسط الأمور التي يجب توفرها لحماية نفسه، فقد أراد أن يكون الخليفة رجلًا سلميًا لا ينازعه في الحكم، ويرضى أن يكون مجرد رمز للسلطنة الروحية، إلا أن الخليفة المقتفي استفاد من الذين سبقوه في الخلافة، لذلك رفض الخضوع للسلاطين السلاجقة، فبالرغم من أن اختياره كان من قبلهم، إلا أنَّه كان لهم

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام (60/36).

(2) هو أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبو العباس، أحمد بن المقتدي بأمر الله، عبد الله بن الأمير محمد الذخير، كان مولده سنة "489هـ/1095م"، "وكان إمامًا عالمًا فاضلًا جميلًا" وكان حسن السيرة، أديبًا، شجاعًا، دمث الأخلاق، أهلًا للخلافة، قليل المثل، وكان قد نشأ نشأة دينية، وتفقه في أمور الدين، هذه النشأة أثرت عليه تأثيرًا كبيرًا في تحديد معالم حياته. ابن الجوزي، المنتظم(10/60-61)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ(355/8)؛ ابن الكازروني، مختصر (29/228)؛ الديار بكري، تاريخ الخميس (ص362).

(3) الحسيني، (زبدة التواريخ) أخبار الأمراء والملوك السلجوقية (ص212)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(632/3).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (355/8).

(5) ابن واصل، مفرج الكروب (67/1-68).

(6) السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص437).

بالمرصاد[1]، فقد تصدى لهم في بعض أمور الحياة السياسية؛ لكنه تحاشى التصادم معهم، ورأى بأن الموقف لا يخدمه، وأخذ بتكوين جيشًا تابعًا له، وذلك بمساعدة السلطان مسعود[2].

وصل المقتفي إلى سدة الحكم في ظروف صعبة، فقد كانت الخلافة تعاني من تسلط السلاطين السلاجقة على الحكم، وتجريدهم للخليفة من مستلزمات الحماية لنفسه، فقد جُرد من أي قوة عسكرية، حتى أن السلطان مسعود أراد أن يُضعف الخلافة فمنع الخليفة من شراء الغلمان، وقام بإخلاء دار الخلافة من الجواري، والغلمان، ومن الدواب، والأثاث، والذهب، والسرادق، والمساند، فلم يترك في إصطبل الخلافة سوى أربعة من الخيل، وثمانية أبغال[3].

أراد السلطان مسعود الضغط على الخليفة وتجريده من الأموال فقام بإرسال وزيره أبو بركات للخليفة يطلب منه مائة ألف دينار كان يفترض أن يدفعها الخليفة المسترشد له، فرد عليه الخليفة "ما رأينا أعجب من أمرك، أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله، فجرى له ما جرى، وعاد أصحابه عراة ... ولم يبق من الدار سوى الأثاث، فأخذته جميعه، وتصرفت في دار الضرب، ودار الذهب، وأخذت التركات والجواري، فمن أي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلاّ أن نخرج من الدار، ونسلمها، وإني قد عاهدت الله تعالى أن لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلمًا"[4].

وبذلك أخذ الخليفة يحاور السلطان مسعود من أجل عدم الدخول معه في صراعات، حتى لا يفقد الخليفة مكانته في بغداد، وباقي البلاد، وما أن سمع السلطان بهذه الرسالة أسقط ستين ألف دينار، وطالب بأربعين[5]؛ ومن الواضح أن الخليفة أراد الوقوف في وجه السلاطين

---

(1) الذهبي، تاريخ الاسلام (61/36)، السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص437)؛ ابن العماد، شذرات الذهب، (173/4).

(2) زيان، حامد، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية (ص30).

(3) الذهبي، تاريخ الاسلام (61/36)؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص437)؛ ابن العماد، شذرات الذهب، (173/4).

(4) ابن الجوزي، المنتظم(320/17)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام(199/36)؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص438).

(5) ابن الجوزي، المنتظم (320/17).

السلاجقة، ويبدو أن السلطان مسعود يعرف قوة الخليفة، فقد وصفه " لقد أجلسنا في الخلافة رجلًا عظيمًا، فالله تعالى يكفينا شره"[1].

وقد حاول الخليفة المقتفي التقرب من السلطان مسعود من خلال الزواج من الخاتون فاطمة بنت السلطان مسعود في عام "534هـ/ 1139م"[2]، وكان هذا الزواج السياسي من أجل توطيد العلاقة الدبلوماسية بين الخليفة والسلطان مسعود؛ لكن سرعان أن اختلف الخليفة مع السلطان، فقد أمر الخليفة بالقبض على المسئول عن ضرب النقود التابعة للسلطان في بغداد سنة "541هـ/ 1146م"، وقابله السلطان مسعود بسجن حاجبه، فأمر الخليفة بإغلاق المساجد ثلاثة أيام إلى أن أطلق سراح الحاجب دون أن يطلق هو سراح المسئول عن ضرب النقود[3]، وبذلك نجح الخليفة أمام السلطان؛ لأنه كان يعد الرمز الديني للدولة، وأن السلطان يتولى السلطنة الزمنية من قبل الخليفة العباسي[4].

وأخذ الخليفة يقاوم السلاجقة، ويتصدى لهم حتى أصبح السلطان مسعود عاجزًا عن شئون البلاد، ولم يبق له إلا الاسم، بالإضافة إلى تضعضع أمر السلطان سنجر، مما مكن الخليفة المقتفي في الخلافة حتى زادت حرمته، وعلت كلمته حتى قال السيوطي عن الخليفة المقتفي: بأنه أصبح "مبدأ صلاح الدولة العباسية"[5]، وهكذا تصرف الخليفة بذكاء، إذ لجأ إلى استخدام سلطته الدينية الروحية، وقام بإثارة الناس ضد السلاجقة.

استمر الخليفة بمحاربة السلاجقة حتى جاءت الفرصة لإقامة عسكرًا خاصًا به، فاستغل النزاعات حول السلطنة في بغداد، وقصدها مجموعة من الأمراء أرادوا السيطرة عليها، وتنصيب محمد ابن السلطان محمود، على عرشها سنة "543هـ/ 1148م"[6]، فلما وصلوا إلى مشارف بغداد سلبوا ونهبوا، فقام الخليفة بإصلاح السور، وترميمه من إحدى الجهات[7]، ثم أرسل إلى السلطان مسعود يعلمه بما حدث في كتاب، جاء فيه: "أمّا الشحنة مسعود بن بلال الذي من

---

(1) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية (ص113).

(2) ابن كثير، البداية والنهاية (216/12).

(3) ابن الجوزي، المنتظم(49/18)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (6/37)؛ ابن كثير، البداية والنهاية(220/12)؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص438).

(4) بارتولد، تاريخ الترك (ص124).

(5) تاريخ الخلفاء (ص438).

(6) ابن الجوزي، المنتظم (ص18، 64)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (355/9).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (356/9).

قبلك فقد هرب إلى تكريت، وقد أحاط العسكر بالبلد، وما يمكنني أن آخذ عسكرًا لأجل العهد الذي بيننا، فدبر الآن" فكتب إليه السلطان مسعود" قد برئت ذمة أمير المؤمنين من العهد الذي بيننا، وقد أذنت أن تجد عسكرًا، وتحتاط لنفسك، وللمسلمين، فجند"[1].

وبذلك استطاع الخليفة تكوين عسكرٍ خاص بالخلافة للتصدي لمن يحاول الاعتداء على بغداد، فأخذ يجند الجند، وقام بحفر الخنادق، وحرض العامة ضد السلاجقة ، وكان السلطان قد سمح للخليفة بتكوين جيش؛ لأن مجيئه للعراق صعب، ومستحيل؛ لانشغاله بمشاكل مع عمه سنجر[2].

تصدى الخليفة لتلك الحملة التي كانت بقيادة ابن السلطان محمود، وكانت نتيجة تصدي أهالي بغداد، حيث فقدوا (500) شهيد أثناء مهاجمتهم للسلاجقة[3]، وبعد هزيمة الأمراء تجمعوا وقبلوا الأرض أمام الخليفة، وترددت الرسائل بينهم، وبين الخليفة على أن يعفوا عنهم، فعفى عنهم، ثم تفرقوا، وفارقوا العراق[4]، إلا أنَّ مجموعة منهم عادت مرة أخرى نحو بغداد سنة "544هـ- 1149م" ومعهم ملكشاه بن محمود[5]، حيث أرادوا تنصيبه سلطانًا عليهم، فلما اقتربوا من بغداد راسلوا الخليفة المقتفي في الخطبة لملكشاه، فلم يستجب الخليفة له، واستطاع إبعادهم عن بغداد[6].

ثم قام الخليفة بمراسلة السلطان مسعود، وأخبره بمجيء هؤلاء، ومطالبتهم بالسلطنة، وامتناعه عن ذلك، ويستعجله بالمجيء[7]، هذا الإجراء يدل على ذكاء الخليفة في دفع السلاجقة للقتال فيما بينهم، وتأمين البلاد من شرهم على الرغم من اتخاذ الإجراءات الاحترازية ضدهم.

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم (64/18-65)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (16/37).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (356/9)؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب (34/27).

(3) ابن الجوزي، المنتظم (66/18)؛ حسن، تاريخ الإسلام (ص58).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (34/27)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (224/12).

(5) ملكشاه بن محمود: هو ملكشاه بن محمود بن محمد شاه ابن ملكشاه. ابن الأثير، الكامل في التاريخ (442/9).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (362/9)؛ ابن الجوزي، المنتظم (71/18)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (225/12).

(7) ابن الجوزي، المنتظم (71/18).

وهنا نجح الخليفة في تحقيق هدفه، حيث قام بتجنيد الجند مستغلًا انشغال السلطان مسعود في محاربة عمه السلطان سنجر، الذي يعد كبير البيت السلجوقي، والذي يعد القوة الحقيقية للسلاجقة، لذلك أخذ الخليفة بمشاورة السلطان مسعود؛ لتحاشي الصدام معه، وتشجيعه على الحرب من أجل إنهاك القوة السلجوقية، وبقي الخليفة داعمًا للسلطان مسعود حتى وفاته سنة "547هـ- 1152م" بهمذان، وبهذا ظلت الخطبة تقام مئة عام إلى حين وفاة السلطان مسعود، فماتت سعادة البيت السلجوقي بموته، فلم تقم لهم بعده راية يعتدون بها[1].

ولما وصل الخبر إلى بغداد بموت السلطان مسعود، هرب شحنة بغداد مسعود بن بلال إلى تكريت، واستظهر الخليفة ببغداد، وجمع الرجال، والعساكر، وأكثر التجنيد، وقام بإراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان[2]، وأصدر الخليفة أمرًا :" مَن تخلّف من الجُند عن الخدمة أبيح دمه"[3]، وكل ذلك كان نتيجة لاختلاف السلاجقة فيما بينهم على السلطنة بعد وفاة السلطان مسعود، وضعفهم، وضعف نوابهم في العراق من جانب آخر، وبالمقابل زادت قوة الخلافة، وهروب الشحنة مسعود بن بلال من بغداد إلى تكريت، والجدير بالذكر أن السلطان مسعود عهد بالسلطنة لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود[4]، غير أنَّ وفاة السلطان مسعود كانت الفرصة الكبيرة التي انتظرها الخليفة المقتفي بأمر الله ليتخلص من كافة القيود، والمواثيق التي ارتبط بها معهم، إذ بدأ المقتفي بأمر الله عام "547هـ/ 1152م" بتحرير معظم مدن العراق، وعودة حكم البلاد إليه مباشرة، وقد ظهر عزم الخليفة على ضرب النفوذ السلجوقي بقوله: "لا صبر على الضيم، بعد اليوم، ولا قوام من هول هؤلاء القوم"[5].

ومن ثم قام الخليفة بجمع الجيوش، وتقوية أسوار بغداد، وبذلك بسط نفوذه الفعلي، والعسكري على كافة مناطق العراق، فقد أرسل جيشًا إلى الكوفة[6]، وبسط نفوذه عليها، ثم سار على رأس الجيش إلى واسط، فأخذها من السلاجقة، وقام في سنة "549هـ/ 1154م" بمحاصرة

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (374/9)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (202/65)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (50/2)؛ القلقشندي، مآثر الأناقة (37/2).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (374/9).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (35/37).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (374/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(353/1)؛ القلقشندي، مآثر الأناقة (37/2).

(5) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق (ص214).

(6) الكوفة: تقع في الجانب الغربي من نهر الفرات بالقرب من بغداد. المقدسي، أحسن التقاسيم (ص116).

تكريت بنفسه، إلا أنه لم يستطع فتحها إلا في الحملة الثانية التي قام بها عام "550هـ/ 1155م"[1].

تولى السلطان ملكشاه بن محمود عرش السلاجقة بعد وفاة السلطان مسعود ، فتسلم ملكشاه السلطنة عام "547هـ/ 1152م"، وكان قد قضى وقته في اللهو واللعب، لذلك لم يستطع القيام بأعباء السلطنة[2]، وسرعان ما قبض عليه من قبل أحد الأمراء، وهو خاصّ بك[3]، واستُبدل بأخيه الملك محمد الذي أصبح سلطان السلاجقة في العراق بعد أن تخلص من أخيه ملكشاه[4]، وقد حاول استكمال سلطته الرسمية، فبعث إلى الخليفة المقتفي لأمر الله مطالبًا إياه بالخطبة له في بغداد، والعراق، فرفض الخليفة طلبه، فسار محمد إلى العراق باتجاه بغداد بعساكره، وبمعونة بعض الأمراء في نهاية سنة "551هـ/ 1146م"[5].

وفي الوقت نفسه عهد السلطان سنجر بالسلطنة في العراق إلى سليمان شاه بن السلطان محمد[6] [7]، إلا أنَّ وقوع سنجر أسيرًا بأيدي الغز سنة "548هـ/ 1153م"، قد أضعف أمر سليمان شاه، وأخذ يتنقل بين المدن مطاردًا من قبل منافسيه على السلطة[8]، حتى توجه إلى بغداد سنة "550هـ/ 1155م" طالبًا حماية الخليفة، فأرسل رسولًا إلى الخليفة المقتفي يعلمه بوصوله، وأرسل زوجته لتكون رهينة، ومعها الكثير من الجواري والأتباع، وقال: "قد أرسلنا هؤلاء رهائن فإن أذِنَ أمير المؤمنين دخول بغداد فعلت وإلاّ رجعت"، فوافق الخليفة على دخوله

(1) النويري، نهاية الأرب (182/23).

(2) حسن، تاريخ الإسلام (ص59).

(3) خاص بك: هو خاص بك التركماني على شأنه أثناء سلطنة السلطان مسعود فأحبه، وقدمه على جميع الأمراء، وعظم شأنه. الذهبي، تاريخ الإسلام(304/37).

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام(35/37).

(5) النويري، نهاية الأرب (37/27-38).

(6) سليمان شاه: الملقب بغياث الدين، وهو سليمان بن محمّد بن ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي المدعوّ شاه أخو السلطان مسعود الصفدي. الوافي بالوفيات (139/5).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (404/9).

(8) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق (ص257-260).

بغداد، فدخلها في شوال سنة "550هـ/1155م"، ولم يستقبل بالكرامة التي كان السلاطين السلاجقة يستقبلون بها[1].

فاستحلفه الخليفة على الطاعة، وصفاء النية، والمناصحة، والمودة، وعدم التعرض للعراق، فلما حلف له السلطان على ذلك، خطب له على منابر بغداد، وخلع عليه خلع الملوك، واتفق على أن يكون العراق للخليفة، ولسليمان شاه ما يفتحه من خراسان[2]، وقدم له الخليفة عشرين ألف دينار[3]، ومن ثم توجه الخليفة إلى دقوقا، وأراد أن يتملكها؛ لكن فشل في السيطرة عليها، فرحل عنها[4].

والجدير بالملاحظة الدور الدبلوماسي الذي لعبه الخليفة العباسي، وكيف أخذ يحرض السلاطين على بعضهم، ويدعم واحدًا على الآخر حتى يتخلص منهم واحدًا تلو الآخر، فقد قام الخليفة بتحريض السلطان سليمان، ودفعه لقتال السلطان محمد بن محمود مجهزًا إياه بثلاثة آلاف فارس، وبالأموال، وسار سليمان شاه نحو بلاد الجبل سنة "550هـ/ 1155م"، وقد ودعه الخليفة عند خروجه، ونفذ معه العسكر؛ بهدف رفع معنوياته وتقويته، ثم كتب الخليفة إلى ملكشاه بن محمود يدعوه إلى موافقة سليمان، والانضمام إليه، فوافق على ذلك، وحلف كل منهما لصاحبه، واتفقا على أن يكون ملكشاه ولي عهد سليمان شاه، ويعززهما الخليفة بالمال، والسلاح[5]، وسارا إلى أذربيجان، فانضم إليهما الأمير السلجوقي أيلدكز[6]، فسار السلطان محمد لملاقاتهم بجيش كبير، ثم دارت بينهم معركة كبيرة في جمادى الأولى "551هـ/

(1) ابن الجوزي، المنتظم (106/18)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (405/9)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (ص5، 287).

(2) ابن الجوزي، المنتظم (106/18)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (405/9)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (233/12).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (5/38).

(4) أبو الفداء، المختصر (329/1).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (405/9)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، (5/38)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (641/3).

(6) إيلدكز: هو شمس الدين إيلدكز أتابك السلطان أرسلان بن طغرل، صاحب همذان، وبلد الجبل، وأذربيجان، وأصفهان، وكان إيلدكز هو الكل داخل الدولة السلجوقية. الذهبي، تاريخ الإسلام (37/38).

1156م"، انتهت بانتصار السلطان محمد، ووقوع السلطان سليمان أسيرًا بأيدي زين الدين علي كوجك[1] أمير الموصل[2].

بعد أن انتصر السلطان محمد على حلفاء الخليفة أراد السيطرة على بغداد من أجل إخضاع الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله، فتوجه نحوها سنة "551هـ/ 1156م"، لإعادة التسلط السلجوقي على العراق من جديد، فأسرع الخليفة بحشد الجيوش، وقام بتوزيع السلاح على الجند، وأبناء الشعب مع مبالغ من المال[3].

وقبل أن يحارب السلطان بغداد أرسل للخليفة، قائلًا: أنه "عبد الطاعة، وأنه ليس له مقصود بمجيئه إلى بغداد، وأنه سيعود عنها إذا رضي الخليفة عنه، ويذكر اسمه على المنابر بعد الخليفة، ويعود عن بغداد، ولا يكون له والٍ، ولا صاحب يشار إليه"؛ لكن الرد كان من جانب الخليفة أن يعود إلى همذان حتى يتم تدبير أمره[4]، ويتضح من ذلك أن موقف السلطان كان ضعيفًا إذ إنه تنازل عن كثير من الأمور التي كانت للسلاطين السلاجقة من قبله مثل ألا يكون له والٍ في بغداد، وأن يذكر اسمه على المنابر، ورغم تنازلاته التي عرضها على الخلفية إلا أن الخليفة رفض الخطبة له.

فما أن رفض الخليفة الخطبة للسلطان محمد حتى أخذ يحارب بغداد، فتصدى له أهلها بشيوخهم، وأطفالهم، وقاتلوهم، ورموهم بالنفط، وغيره، فاستمر القتال لعدة أيام حتى امتد القتال في الجانبين: الشرقي، والغربي من بغداد، وأخذ الخليفة يحرض الناس على القتال، وقام بمنح كل من يجرح أثناء القتال خمسة دنانير، وكذلك استطاع وزيره خرق خطوط السلطان محمد بأن أخذ يكاتب الأمير أيلدكز أحد أمراء السلطان بأن يترك العسكر، ويلتجئ إلى أحد الملكين، ملكشاه، أو أرسلان شاه إلى همذان، فوصلهم الخبر بأن ملكشاه هجم على البلاد، واستولى على همذان، فأضعف ذلك من عضد عسكر السلطان محمد[5].

---

(1) زين الدين على كوجك: نائب قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل كان كوجك شهما شجاعا مهيبا. الذهبي، سير أعلام النبلاء (334/22)

(2) ابن الجوزي، المنتظم (106/18)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (405/9).

(3) ابن الجوزي، المنتظم (106/18-111)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (405/9-409).

(4) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية (ص134).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (409/9-410)؛ البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق (ص229-233)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (9/38).

وأخذ الوزير ابن هبيرة[1] بالتحريض ضد السلطان، فكاتبهم سرًا قائلًا لهم:" وإذا تم هذا – يعني النصر للسلطان– وما يريده من الاستيلاء على بغداد والعراق لا تبقى له حاجة إلى مساعد ولا مؤازر، ويكون آخر استغنائه عنكم فتبقون عنده يعين الاستغناء عنكم ملحوظين .... وتفوتكم صلات أمير المؤمنين، وحياره في كل أوان، ويعمكم من الله البلاء، والخذلان"، فأثر ذلك بالأمراء مع وصول المنح والهدايا منه إليهم، فكان هؤلاء الأمراء كلما اتخذ السلطان قرارًا حاولوا التراجع عن اتخاذه[2].

أمَّا السلطان محمد فقد بقي مصرًا على دخول بغداد، والاستيلاء عليها، واستمرت هجماته على بغداد رغم وجود المقاومة الباسلة من قبل قوات الخليفة، والسكان العامة، وحين فشل في دخولها عمل أربعمائة سلم طوال ليعبر بها مقاتلوه السور[3]، وعندما نصب الجنود السلالم، فتح أبناء الشعب أبواب البلد، قائلين لهم :" أي حاجة بكم إلى السلالم، هذه الأبواب مفتحة، فادخلوا منها؛ ولكن لم يقدر الأعداء حتى على الاقتراب من الأبواب"[4].

فلما هلك عسكر السلطان، ونفذت مؤونتهم تنكر بعض الجند عسكر السلطان، ولجأوا إلى قوات الخلافة، هذا بالإضافة إلى سيطرة ملكشاه على بلاد همذان، وهنا لم يبق للسلطان محمد سوى دخول بغداد، فاتفق مع علي كوجك على مهاجمة بغداد؛ لكن الأمير علي فارق الجيش ورحل، تاركًا السلطان، وقواته يهاجمون بغداد لوحدهم، فتصدى لهم عسكر الخليفة، واستطاع هزيمتهم، فقرر السلطان الرحيل، وأمر الخليفة عسكر السلطان أن يذهبوا إلى همذان، ويتحالفوا مع ملكشاه[5]، وقام أهل بغداد بمهاجمة دار السلطان، واستولوا على ما فيها، وعلى أثر هذا النصر عمت الفرحة جميع أهالي بغداد[6]، وذكر النويري مصير السلاجقة في هذه الحادثة التي كانت بداية النهاية للسلاجقة في العراق، حيث ذكر :" ولم تفلح السلجقية بعدها مع الخلفاء"[7].

---

(1) ابن هبيرة: أبو المظفر الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة، تولى الوزارة زمن الخليفة العباسي المقتفي بأمر الله. ابن خلكان، وفيات الأعيان (230/6).

(2) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية (ص135–136).

(3) ابن الجوزي، المنتظم (113/18–114).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (410/9).

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام (11/38).

(6) ابن الجوزي، المنتظم (115/18–117).

(7) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (38/27).

وبذلك حقق الخليفة هدفين في آن واحد، أن أمِنَ شرهم، وساهم في إقامة الصراعات بينهم، من خلال تعزيز قوة ملكشاه للوقوف بوجه السلطان محمد، وبقي الخليفة يواصل عملية القضاء على مظاهر الاحتلال، والتسلط السلجوقي، فكانت وفاة السلطان سنجر في عام "552هـ/ 1157م" لصالح الخليفة، فقام بقطع الخطبة له، ولم يُقِم له مجلس عزاء[1]، وكان الأمير السلجوقي سنقر الهمداني قد حاول السيطرة على بغداد سنة "553هـ/ 1158م"، فتصدى له جيش الخليفة، واستطاع هزيمته، ومن ثم رحل إلى همذان[2].

بالرغم من ضعف مركز الخلافة في تلك الفترة إلا أن الأمراء والسلاطين حاولوا التقرب من الخليفة رغم استقلالهم عن الخلافة في الشئون السياسية، من أجل أخذ البيعة منه، وتقليده لهم، أو عهده لهم على البلاد التي بيدهم، أو من أجل إطلاق الخليفة عليهم الألقاب، ومنحهم الخلع، هذا الإجراء يبين رضى الخليفة عن الوالي، سواء أكان أميرًا أم سلطانًا، وفي حال رفض الخليفة مطلبهم، فإن ذلك يدل على غضب الخليفة من الوالي أو السلطان مما يؤثر عليه في حكم البلد التي يسيطر عليها[3].

أما السلطان محمد فبعد رجوعه من بغداد إلى همذان كان قد ندم على ما فعله بالخليفة، حيث كان عند مرضه يبكي، ويقول :"هذه العساكر لا يدفعون عني مثقال ذرة من أمر ربي، ولا يزيدون في عمري لحظة"، وعلى أثر مرضه توفي سنة "554هـ/ 1159م"، فاجتمعت العساكر، والأمراء على عمه سليمان شاه، الذي كان مسجونًا بالموصل، فأفرج عنه، وانعقدت له السلطنة، وخطب له على منابر تلك البلاد سوى بغداد والعراق[4]؛ ولكن أيامه في السلطنة كانت قصيرة حيث مات مسمومًا في ربيع الأول عام "555هـ/ 1160م"[5]، غير أن الخليفة المقتفي لأمر الله توفي في 2 ربيع الأول من سنة "555هـ/ 1160م" [6].

ومن الملاحظ ضعف الدولة السلجوقية كان نتيجة نزاع ملوكها على عرش السلطنة، الأمر الذي قد مهد السبيل لاسترداد الخلافة العباسية قوتها، وعظمتها[7]، لذلك استغل الخليفة

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم (118/18).
(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (420/9).
(3) زيدان، جورج، تاريخ التمدن الإسلامي (482/2).
(4) ابن كثير، البداية والنهاية (241/12).
(5) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق (ص264–271).
(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (438/9)؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (ص125).
(7) حسن، تاريخ الإسلام (ص63).

المقتفي الأمر، وكان له فيها الفضل الكبير في محاربة التسلط السلجوقي في العراق، وتوحيد الصف ضدهم، واستطاع أن يقيم سدًا منيعًا للخلافة العباسية، وقطع عنها طمع السلاطين، وبذل الأموال لأصحاب الأخبار حتى كان لا يفوته شيء[1]، حتى عظُم سلطانه، واشتدت شوكته، واستظهر على المخالفين، وأجمع على قصد الجهات المخالفة لأمره، فضلًا عن أنه كان أول خليفة تمكن من الخلافة، وحكم على عسكره، وأصحابه منذ بداية توليه الخلافة، ويعود له الفضل في تكوين الجيش، إضافة إلى أنه سهل كثيرًا على الذين أتوا من بعده في مهمة القضاء على الاحتلال السلجوقي البغيض[2].

(1) ابن الوردي، تتمة المختصر (62/2).

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص510)؛ الذهبي: تاريخ الإسلام (53/37).

1.2.2ثانيًا: الدور الدبلوماسي للخليفة العباسي المستنجد بالله[1] مع السلاطين السلاجقة في النزاع على السلطنة"555هـ-1160م/ 566هـ- 1170م"

لما بويع المستنجد بالله على الخلافة العباسية أقر الوزير ابن هبيرة على الوزارة، وأصحاب الولايات على ولاياتهم، وأزال المكوس، والضرائب، وأمر بالجلوس لعزاء أبيه، وخلع المستنجد بالله عند انتهاء شهر والده على أرباب الدولة[2]، سار على نهج أبيه، فحافظ على استقلال الخلافة، وعزز هيبتها، وحافظ على إبقاء بغداد، والعراق خاضعين للخلافة، وقام بمحاربة السلاجقة، ورفض مطالبهم بالخطبة لهم في بغداد[3]، وبعد وفاة السلطان محمد بن محمود حصل النزاع بين الملوك على السلطنة، واختلفت الأمراء، فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه، وطائفة طلبوا سليمان شاه، وهم الأكثر، وطائفة طلبوا أرسلان الذي مع أيلدكز، فأما ملكشاه فإنه سار من خوزستان حتى وصل إلى أصفهان فملكها، وجمع الأموال وأنفقها على العساكر بهمذان، وأخذ يدعوهم إلى طاعته، فلم يجيبوه[4].

كان موقف الخلافة من ملكشاه موقفًا معاديًا له، حيث كان يطمع في السيطرة على السلطنة، فقام بجمع أتباعه، وجيوشه، وأراد أن يبسط سيطرته على الخلافة العباسية سنة "555هـ/1160م"، فأرسل إلى بغداد طالبًا الخطبة له، على أن تعاد بغداد إلى ما كانت عليه من قبل تحت نفوذ السلاطين السلاجقة، وهدد بالتوجه إلى العراق إن لم تنفذ مطالبه، فرفض

---

(1) هو يوسف أبو المظفر ابن المقتفي محمد بن المستظهر بن أحمد الهاشمي العباسي البغدادي أمير المؤمنين، ولد سنة "508هـ /1114م"، وكان قد ولاه أبوه المقتفي ولاية العهد، فبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه في ربيع الأول سنة "555هـ/ 1160م"، ولقب بالمستنجد بالله، وخطب له في بغداد كخليفة للمسلمين، ونقش خاتم المستنجد بالله بعبارة جميلة تدل على تقواه "من أحب نفسه عمل لها"، وبايعه على الخلافة كل القائمين عليها من أهله وأقاربه. ابن الجوزي، المنتظم (139/18)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (439/9)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (350/5)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (172/23)؛ الذهبي، المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ الدبيثي (383/15)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (257/39)؛ ابن تغري بردي، مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة (ص1، 222)؛ الديار بكري، تاريخ الخميس(363/2).

(2) ابن الجوزي، المنتظم (140/18- 141).

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (379/4).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (434/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(333/2).

الخليفة مطلبه[1]، وخطط في التخلص منه، فتوكل ابن هبيرة تلك المهمة، ونفذت هذه الخطة بدقة ونجاح، حيث مات ملكشاه مسمومًا سنة "555هـ/1160م" في أصفهان[2].

وما أن تخلصت الخلافة من ملشكاه حتى صعد نجم الملك سليمان من الموصل، فقد أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى أتابك قطب الدين قايماز[3] لإخراج سليمان شاه من أسره ليولوه السلطنة، فاستقرت القاعدة بينهم أن يكون سليمان شاه سلطانًا، وقطب الدين أتابكه، وتحالفوا على هذا، وجهز سليمان شاه بالأموال الكثيرة، والدواب، والآلات وغير ذلك مما يصلح للسلاطين، وسار ومعه زين الدين علي، وعسكر الموصل إلى همذان ليتولى السلطنة[4].

وما أن وصل سليمان شاه بلاد الجبل حتى قام بجمع العساكر، فما كان من زين الدين أن عاد إلى الموصل خوفًا على نفسه من السلطان[5]؛ لكن لم يدم سليمان شاه في السلطنة، فقد قبض العسكر عليه سنة "556هـ/1160م"، وخطبوا لأرسلان شاه ابن الملك طغرل[6]، وكان سبب عزل سليمان أنه كان ميالًا للهوى، وقد ترك أمور دولته، وشئونها، وكان عنده استهزاء وقلة مبالاة بالدين، وكان مدمنًا على شرب الخمر في رمضان[7]، فاتفق الأمراء على القبض عليه، وعمل دعوة عظيمة، فلما حضرها الملك سليمان في داره، قبض عليه، ووضع في الحبس مدة، ثم أرسل إليه في السجن من خنقه في سنة "556هـ/1160م"[8].

كان تخلص الأمراء من سليمان شاه من مصلحة الخلافة، وبويع للسلطان أرسلان شاه بن طغرل[9] سلطانًا للسلاجقة[10]، فعظم شأنه، وقوي أمر أيلدكز أتابك السلطان، وخطب لأرسلان

---

(1) المقريزي، السلوك (146/1).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (442/9).

(3) قطب الدين قايماز: كان أستادار للخليفة المستضيئ، ومقدم عسكر بغداد. الذهبي، سير أعلام النبلاء (70/21).

(4) ابن الجوزي، المنتظم (142/18)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (334/1).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (437/9).

(6) ابن الجوزي، المنتظم (142/18).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (445/9)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (243/12).

(8) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (334/1).

(9) أرسلان شاه: أرسلان شاه بن طغرل بك بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان. الذهبي، العبر في خبر من غبر (203/4).

(10) ابن الجوزي، المنتظم (142/18)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (445/9)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (32/38)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (243/12).

شاه بالسلطنة في تلك البلاد، وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه بالسلطنة، وأن تعاد القواعد إلى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود، أي تعاد سيطرة السلاطين السلاجقة إلى الخلافة، ومقدراتها، فلما وصل رسول أيلدكز أهين من قبل الخليفة، ورجع على أقبح حالة[1]، ودام ملك أرسلان شاه إلى سنة "573هـ/1178م"، وأصبح الأمراء من بعده يريدون الحفاظ على ما بأيديهم[2].

كان الخليفة المستنجد على حرص شديد للتخلص من السلاجقة، حيث قام "557هـ/1161م" بالسيطرة على قلعة الماهكي من أيدي السلاجقة، والتخلص منهم، وهي قريبة من بلدة البندنيجين، ومن ثم قام بملاحقة أعوانهم، ففي سنة "558هـ/1162م" أمر الخليفة بقتال بني أسد من أهل الحلة لمناصرتهم للسلاجقة أثناء حصارهم لبغداد، فقام الخليفة بمحاربتهم، وقتل منهم أعدادًا كثيرة، وتفرق الباقون في أنحاء مختلفة، ولم يبق منهم أحدًا بالعراق[3]، وبذلك تخلصت الخلافة العباسية من مصدر كان يثير الفتن، والمشاكل لها.

وفي سنة "562هـ/1166م"، توجه شمله التركماني[4] حاكم الأهواز إلى قلعة الماهكي، وأرسل إلى الخليفة يطالبه بإقطاعه مناطق من العراق، إلا أن الخليفة المستنجد بالله رفض طلبه، وقام بإرسال قوات كبيرة إليه لردعه، مما دفع بشمله إلى أن يعود خائبًا إلى بلاده[5]، وبذلك استطاع الخليفة المستنجد المحافظة على استقرار الأوضاع الداخلية في بغداد وغيرها من مناطق العراق الأخرى، وما ذلك إلا بسبب الدبلوماسية الحازمة للخليفة المستنجد في الضرب على أيدي المعتدين، وإلغاء الكثير من الضرائب التي كانت مفروضة على أبناء الشعب من قبل السلاطين السلاجقة، ونوابهم في العراق، وأزال المكوس، والمظالم[6].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (446/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (334/1)؛ المقريزي، السلوك، (147/1).

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (40/27).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (457/9-464)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(173/23)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (646/3).

(4) شملة: يعرف بشملة التركماني السلطان المتغلب على مملكة فارس أنشأ قلاعا وظلم وتمرد وقوي على السلجوقية تخلص من الأتابك بهلون سنة (570هـ/1174م). الذهبي سير أعلام النبلاء (64/21).

(5) ابن الجوزي، المنتظم (174/18)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ(6/10)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (7/39).

(6) ابن طباطبا، الفخري في الأداب السلطانية (ص115).

وهذا يدل على قوة الخلافة، وضعف السلاجقة، وانقسامهم، وكان هذا ثمرة الجهود الكبيرة التي قطعها الخلفاء: المسترشد، والراشد، والمقتفي لأمر الله، إذْ أتتْ ثمارها في عهد المستنجد، وأصبحت مؤسسة الخلافة العباسية ذات مركز كبير في العالم الإسلامي.

ومن الشخصيات التي كان لها أثرٌ كبيرٌ في إسناد سياسة الخلافة العباسية ضد السلاجقة الوزير العباسي يحيى بن هبيرة، فقد كان له مكانة كبيرة في قمع الدولة السلجوقية[1]، وهكذا يظهر لنا بأنَّ الخليفة المستنجد بالله حاول استعادة نفوذ الخلافة، ومقاومة أعدائها، وإكمال ما قام به الخلفاء السابقون من الاهتمام بالحياة الاجتماعية، وفي اليوم التاسع من ربيع الآخر سنة "566هـ/1170م" توفي الخليفة المستنجد بالله بعد مرض اشتد به[2]، بعد أن استمرت خلافته إحدى عشرة سنة وعمره 56 سنة[3]، ويعتقد بعض المؤرخين أن قطب الدين قايماز، وبعض الأمراء قد تآمروا على الخليفة، فأدخلوه كرهًا إلى الحمام، وأغلقوا عليه الباب فخنقوه[4].

1.2.3ثالثًا: الموقف الدبلوماسي الذي لعبه الخليفة العباسي المستضيئ[5] مع السلاطين السلاجقة "566هـ-575هـ/1170م-1179م"

بعد أن تولى المستضيء بأمر الله أمر الخلافة أظهر العدل، وكان إمامًا عادلًا شريفًا، ليس للمال عنده قدر، حليمًا شفوقًا على الرعية[6]، وكان قليل المعاقبة على الذنوب، محبًا

(1) ابن طباطبا، المرجع السابق(ص114).

(2) ابن الاثير، الكامل في التاريخ (28/10)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (344/1)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص128)؛ الديار البكري، تاريخ الخميس(366/2).

(3) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص128).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (28/10)؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان (284/8)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(344/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (175/23).

(5) الخليفة المستضيء هو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي لأمر الله محمد ابن المستظهر، ولد في 6 شعبان سنة "536هـ/ 1157م" بويع بالخلافة بعد وفاة والده سنة "566هـ/1170م. ابن الجوزي، المنتظم (190/18-191)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(1/ 344)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (262/12).

(6) ابن تغري بردي ، مورد اللطافة (224/1).

للعفو، والصفح عن المذنبين[1]، أطلق كثيرًا من المكوس، وكان شديدًا على أهل العبث والفساد[2].

تحكم قائد الجيش قطب الدين قايماز في الشئون الداخلية للخلافة، وكان معاديًا للخليفة، حيث قام بإحراق بيت صاحب المخزن ظهير الدين بن العطار، مما دفع الخليفة إلى الاستعانة بعامة الناس في بغداد[3]، وقال للعامة :"مال قطب الدين لكم ودمه لي" فما كان من العامة إلا أن قاموا بنهب داره، وهاجموه حتى هرب، ومات قطب الدين، وهو في طريقه إلى الموصل[4].

وبعد أن سيطر صلاح الدين على بلاد الشام، ومصر، وبلغ نفوذه إلى الحجاز، واليمن أقره الخليفة المستضيء بالله على حكم مصر، والمغرب، والنوبة، وغربي الجزيرة العربية، وفلسطين، وبلاد الشام[5]، وبذلك ازدادت هيبة الخلافة العباسية، واتسع نفوذها إلاّ أنَّ العلاقة لم تكن حسنة بين الخلافة، والسلاجقة، كما أن الخليفة المستضيء بالله لم يكن يختلف عن أبيه المستنجد، أو جده المقتفي، فأراد الحفاظ على ما أنجزه أولئك الخلفاء السابقون له، فسار على خطاهم، ولم يلبِّ ما طلب منه بعض ملوك السلاجقة، أو أمرائهم بالخطبة لهم في بغداد.

وهذا ما نراه عندما تعرضت أملاك الخلافة لهجوم الملك السلجوقي محمود بن ملكشاه بن محمود سنة "572هـ/1176م"، حيث هجم من الأحواز على البندنيجين ونهبها، إلاّ أنَّ الخليفة المستضيء بالله جمع عسكره، واستطاع إجباره على الرجوع من حيث أتى[6]، وبذلك استطاعت الخلافة التصدي للسلاجقة بكل قوة، وأصبحت الخلافة عازمة على عدم الاعتراف بأي امتياز للسلاجقة في بغداد، فعندما أرسل البهلوان[7] رسوله إلى الخليفة يطلب الخطبة للسلطان

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (97/10)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص130)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (180/23).
(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (344/1).
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (71/10-72)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (83/2).
(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (71/10-72).
(5) المقريزي، السلوك (169/1).
(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (84/10).
(7) البهلوان: هو محمد ابن الأتابك إيلدكز صاحب أذربيجان وعراق العجم من كبار الملوك كوالده. الذهبي، سير أعلام النبلاء (144/21)

السلجوقي طغرل بن أرسلان[1] سنة "572هـ/1176م"، والاعتراف بسلطنته؛ فإن الخلافة طردت رسول البهلوان، إلا أنها غيرت سياستها فيما بعد، واعترفت بسلطنة طغرل، فخطبت له سنة "573هـ/1177م"[2].

كما أن هذا الاعتراف من الخلافة ما هو إلا لتحقيق هدفٍ لها، وهو إبقاء حالة الفرقة، والانقسام بين السلاجقة عن طريق الاعتراف بأحد ملوكهم، وعدم الاعتراف بالآخرين، وتحديد تطلعات السلاجقة بجعل طغرل، وأتابكه محمد بهلوان سنة "582هـ / 1186م" قوة ضغط عسكرية ضد بقية ملوك السلاجقة، وأن إقامة الخطبة لطغرل وهو صغير السن، ومتحكم فيه وبعيد عن الموقع الجغرافي للخلافة، أفضل من الاعتراف بأي ملك سلجوقي طموح، وقريب من مركز الخلافة. وبذلك تكون الخلافة هي صاحبة القرار الدبلوماسي، والسياسي، والديني، ولا يكون للسلطان سوى الاسم، وبهذا الأسلوب السياسي عزز الخليفة مكانة الخلافة، وجعلها بعيدة عن مظاهر التسلط السلجوقي، وأعز هيبتها، إلاّ أنَّ الخليفة المستضيء بأمر الله قد مرض في أواخر شوال سنة "575هـ/ 1179م" إلى أن توفي في ذي القعدة من نفس السنة، وله من العمر 39 سنة، ومدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر[3]، فغسل وصُلِي عليه ودفن بدار النصر التي بناها حسب وصيته[4].

---

(1) طغرل بن أرسلان: هو طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه آخر الملوك السلجوقية. الذهبي، سير أعلام النبلاء (113/21)

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (351/1)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (86/2).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (97/10)؛ ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر (352/1)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (304/12).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (97/10)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (304/12).

1.2.4رابعاً: دور الخليفة الناصر لدين الله[1] الدبلوماسي في تخلصه من نفوذ السلاجقة ببغداد "575هـ-590هـ/ 1179م- 1193م"

استطاع الناصر لدين الله أن يحافظ على مؤسسة الخلافة، ويسعى إلى توسعها جغرافيًا على حساب الدول الأخرى، حتى أنه استطاع منع القوى الخارجية المعادية للخلافة من سيطرة نفوذها على بغداد؛ وذلك حتى يحافظ على مكانة الخلافة، ومواجهة الدولة السلجوقية، فقد صعد في خلافته السلطان السلجوقي طغرل بن أرسلان كان واقعًا تحت حكم، وسيطرة البهلوان، ولم يكن له غير الاسم فقط[2]، من جانب آخر فإن العلاقة بين الخلافة العباسية والبهلوان كانت جيدة، فقد أظهر طاعته، واحترامه للخليفة العباسي الناصر لدين الله[3]، وهذه سياسة بين الطرفين إضعاف السلطان طغرل بن أرسلان.

إلاّ أن البهلوان توفي سنة (582هـ/1186م)، وخلفه أخوه قزل أرسلان[4] في الحكم [5]، وقد حاول السلطان طغرل أن يستبد بالأمور، وتكون كلمته هي العليا في الحكم، فساءت العلاقة بينه، وبين الأتابك قزل أرسلان، فلم يستطيع السلطان التحكم في الأمور، والتغلب على قزل، فهرب السلطان بعد أن انضّم إليه جماعة من أمراء أتابك أيلدكز، إلاّ أن السلطان تخوف من قيام أتابك تعيين أحد السلاطين المحبوسين كسلطان، لذلك أخذ يفكر في جعل قزل أرسلان أتابكًا له، وبالفعل تصاف الطرفان، وعين قزل أتابك للسلطان[6].

طمع السلطان طغرل الانفراد بالسلطنة، فهرب إلى دمغان، مما جعل الأتابك قزل أرسلان أن سيطر على الأمور في همذان، وما أن هرب السلطان طغرل حتى قام بجمع جنده، وأراد

---

(1) هو أبو العباس أحمد بن المستضيء حسن بن المستنجد يوسف الهاشمي العباسي أمير المؤمنين، ولقب بالناصر لدين الله، وكان مولده في رجب سنة "553هـ/ 1156م"، بويع بالخلافة في بغداد بعد وفاة والده المستضيء. ابن الأثير، الكامل في التاريخ (141/10)؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، (ص244)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(358/1)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص174)؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص451)؛ الديار البكري، تاريخ الخميس (ص366-367)؛ القرماني، أخبار الدول (184/2).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (141/10)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (358/1).

(3) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية (ص172).

(4) قزل أرسلان أخو البهلوان محمد بن إيلدكز ولي أذربيجان، وهمذان ، وإصبهان بعد أخيه ، وخطب لنفسه بالسلطنة بدل السلطان طغرل. الذهبي، تاريخ الإسلام (275/41).

(5) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص133)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (358/1).

(6) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية (ص174).

محاربة أتابكه، فدارت بينهم وقعة سنة "583هـ/1187م" استطاع السلطان فيها هزيمة الأتابك قزل أرسلان[1]، فسار السلطان إلى همذان، ودخلها، وحالف بها بعض أمراء الأتابك قزل، ودخلا في خدمة السلطان، ومنهم: أبناء أخيه للأتابك قزل، وهذا الأمر عزز موقف السلطان، وقوته، ثم أقبل الأمراء لتقديم فروض الطاعة للسلطان، وبقي في همذان شتاء سنة "583هـ/1187م"[2].

قوي أمر السلطان طغرل بن أرسلان شاه، وملك كثيرًا من البلاد[3]، وخشي الأتابك قزل من تناهي قوة السلطان طغرل، فأرسل إلى الخليفة الناصر لدين الله يستنجده للتخلص من السلطان طغرل، وبذل ما في نفسه لخدمة الخلافة، وموالاته لها[4]، حيث تبين للخلافة نوايا السلطان طغرل، وطموحاته، فأرسل رسولًا سنة "583هـ/1187م" إلى بغداد يطلب تعمير بيت السلطنة ليسكنها عند وصوله إلى بغداد، وكان السلطان يريد من ذلك فرض الهيمنة السلجوقية على الخلافة كما كانت في عهد السلاطين السابقين له على عرش السلطنة في بغداد[5].

إلاّ أنَّ رد الخليفة كان حازمًا قويًا مع السلطان، فقد قام بطرد رسول السلطان دون جواب، وأمر بهدم دار السلطنة، فهدمت وأزيلت آثارها تماما[6]، وكان هدمها من قبل الخلافة هو تحدٍ للسلطان، ومن أجل التخلص من السيطرة الخارجية على أمور الخلافة في بغداد، ورفض الخليفة إقامة الخطبة له، وإن دل ذلك فإنما يدل على قوة الخلافة، وعزمها على التخلص من السلطان السلجوقي طغرل، ومن أجل ذلك قام الخليفة بإرسال جيش كبير جهزه من بغداد؛ لمحاربة طغرل بن أرسلان، والوقوف بجانب الأتابك قزل أرسلان، وقد سار جيش الخليفة بقيادة الوزير علي جلال الدين بن يونس، ودفع مبلغ ستمائة ألف دينار لنفقات الجيش[7]، فالتقى جيش الخلافة بالسلطان طغرل، وجرت بينهم معركة، كانت نتيجتها هزيمة عسكر الخلافة، ووقوع

---

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (99/5).
(2) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقي (ص175-176).
(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (360/1).
(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (163/10)؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقي (ص176-177)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (361/1).
(5) ابن الأثير، الكامل (163/10)؛ اليافعي، مرآة الجنان (226/3).
(6) ابن الأثير، الكامل (163/10-164).
(7) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية (ص177).

الوزير أسيرًا بيد السلطان، وعاد عسكر الخلافة إلى بغداد، وذلك سنة "584هـ/1188م" [1]، ويذكر الحسيني المعركة بقوله:" إنَّها حرب شابت منها الذوائب، وتهدمت صفوف الأطلاب، والمقانب، وامتلأت أرض المعركة من القتلى بين الفريقين"[2].

وبهذا الانتصار الذي حققه السلطان طغرل ارتفع شأنه، وسيطر على همذان، وتوافدت إليه الأمراء لتقديم فروض الطاعة له، أما الخليفة فإنه لم يركد من هزيمة السلطان له، فقد جهز حملة أخرى، وزودها بالأسلحة، ومعدات القتال، وقادها مجاهد الدين خالص، فخرج الجيش من بغداد في نهاية سنة "584هـ/1188م" متوجهًا إلى همذان، وسار الأتابك قزل أرسلان على رأس العسكر إلى همذان لمحاربة السلطان، ولما علم السلطان طغرل بذلك غادر همذان، واتجه صوب أصفهان، واستطاع عسكر الخليفة دخول همذان، والإقامة بها عدة أيام، والتقى عسكر الخلافة بالأتابك قزل أرسلان، فقد تم إكرامه، وتسليم الولاية إليه نيابة عن الخليفة الناصر لدين الله، وخلعوا عليه خلعًا سنية، وهكذا يظهر لنا بأنَّ الخليفة الناصر لدين الله وجد قزل أرسلان أكبر حليف له ليضرب به السلاجقة، ويتحدى طموحهم، ويسترجع نفوذ الخلافة، فقد جرت عدة معارك بين الأتابك قزل أرسلان والسلطان طغرل خلال عام "584هـ/1188م"[3].

وفي نهاية هذه المعارك دَبَّ الضعف، والانحلال في جبهة السلطان طغرل نتيجة تحكم الأمراء، وتعرض طغرل لمؤامرة كادت تودي بحياته[4]، فقد استغل الأتابك قزل أرسلان هذه الفرصة، فتحرك لمحاربة طغرل؛ ولكن لم يكن للسلطان طغرل قدرة على مقاومته، فترك عاصمة همذان، بعد أن ثار عليه عمه محمد بن طغرل، وأولاد عمه، وطمع أعداؤه في الاستيلاء على ملكه، فهاجمه قزل أرسلان، واستولى على أمواله، في حين هرب السلطان طغرل إلى القفجاق سنة "585هـ/1189م"[5]، وبذلك استطاع قزل أرسلان الاستيلاء على همذان عاصمة السلاجقة بمساعدة، وتأييد الخليفة له، فازدادت قوته، وأمواله، فأدركت الخلافة

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (178/10)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (182/23)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (38/41-39).

(2) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية (ص177).

(3) الحسيني، المرجع نفسه (ص178).

(4) البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق (ص275-276)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (135/6).

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص198)؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية (ص179-180).

ضرورة دعم قوته، فأرسل إليه الخِلَع، وأصبح أمر المملكة مقررًا له في همذان، وخطب لنفسه بالسلطنة [1].

واتصل السلطان طغرل بصلاح الدين الأيوبي، فقد أرسل إليه رسولًا للحصول على العون منه لاسترجاع ملكه سنة "585هـ/1189م" إلا أنَّ صلاح الدين اعتذر عن ذلك؛ لكونه مشغولًا في حرب الصليبيين[2]، وكلف جمال الدين أبو الفتح للقيام بمهمة الصلح بين قزل أرسلان، والسلطان طغرل؛ لكن الصلح لم يتم، فخاطب السلطان طغرل الخلافة العباسية من أجل إصلاح علاقته معه، فقد اتفق مع أمرائه على إرسال رسول إلى الخلافة سنة "585هـ/1189م"، وحمل الرسول هدايا، وتحف، وطلب المعذرة، والعفو من ديوان الخلافة[3]، مبررًا عمله هذا بأنَّه كان مضطرًا إليه "وهو الآن مملوك الدولة، وعبد الطاعة "[4].

ولغرض التأكيد، وإيضاح نية السلطان تجاه تحسين علاقته بالخلافة، أرسل ابنه ألب أرسلان لبغداد بعد أن طلب منه الخليفة ذلك، فدخلها سنة "586هـ/1190م" وكان صبيًا صغيرًا، فأكرمه الخليفة الناصر، وعفا عن جرائم أبيه، وخلع عليه السلطنة، وطوقه بطوق من ذهب، ثم كتب الخليفة إلى والده السلطان طغرل بأن يقيم في موضعه حتى يدبروا أمره، إلاّ أنَّ السلطان طغرل خالف أوامر الخلافة، فاتجه إلى أذربيجان[5].

فقصده الأتابك قزل أرسلان، فاتجه السلطان إلى همذان، فلم يستطع دخولها لوجود أتباع لقزل أرسلان بها، فتبعه قزل أرسلان، واستطاع هزيمة جيشه، وأسر كبار أمرائه، وأقام قزل أرسلان خطة لإلقاء القبض عليه بالاتفاق مع الأمراء الذين كانوا بخدمته، إذْ أظهروا له الخضوع، والطاعة بأقوالهم، فانخدع السلطان بأقوالهم، فقد خرج، والتف الأمراء حوله، وقالوا له: "إن الأتابك قد أمر بوجوب أسرك"، ثم ضربوا مظلة السلطان واستطاعوا أسره، وكان السلطان طغرل قد اعتقد أنَّ الأتابك سوف يعفو عنه، ويغفر له زلاته، ويقبل أن يكون معه مثلما كان مع أخيه البهلوان[6].

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام (275/41).
(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (107/4).
(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (41/4).
(4) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية (ص179).
(5) الحسيني، المرجع السابق(ص180).
(6) الحسيني، المرجع السابق (ص180).

إلا أن الأتابك قزل أرسلان أراد التخلص نهائيًا من السلطان طغرل، فاعتقله في إحدى القلاع بأذربيجان بالقرب من تبريز، ثم أخرج الأتابك قزل أرسلان سنجر بن سليمان من القلعة، وأجلسه على عرش السلطنة محل السلطان طغرل، بعد استقرار الأوضاع في همذان لصالح الأتابك قزل أرسلان، حاولت الخلافة تجريد السلاجقة من السلطنة، واستعانت بالأتابك قزل، وحرضته على أن يجلس مكان السلطان على العرش، وفالفعل عين الأتابك قزل نفسه سلطانًا سنة "587هـ/1191م"، وصك اسمه على الدراهم، والدنانير، إلا أنَّ الأتابك قزل أرسلان لم يطل به العمر، فقتل في العام نفسه[1]، وتولى الحكم بعده نصر الدين أبي بكر، فقد مكن مقتل الأتابك قزل أرسلان السلطان طغرل من الهرب من سجن القلعة، واستعادة نفوذه في همذان والري[2].

بعد هذا التطور الخطير قرر الخليفة الناصر الاستعانة بالدولة الخوارزمية التي علا شأنها خلال هذه الفترة، والتي كان لها حروب عديدة مع السلاجقة، فقد أرسل الخليفة سنة "590هـ/ 1193م" إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش[3] ملك الدولة الخوارزمية يحرضه على طغرل، ويطلب قتاله، وأرسل رسولًا إلى علاء الدين تكش، ومعه منشور بأقطعة البلاد التي يسيطر عليها من طغرل[4].

فاستجاب علاء الدين تكش لطلب الخليفة، وسار على رأس جيش كبير من نيسابور إلى الري لتنفيذ هذه المهمة، والتقى الطرفان بالقرب من الري بمعركة ضارية جرت من 24 ربيع الأول انتهت بمقتل السلطان السلجوقي طغرل، وقد وصل الخبر إلى الخليفة الناصر لدين الله[5]، الذي لم يكتِف بتحرض علاء الدين على القتال؛ بل أرسل قوات لمؤازرته بقيادة وزيره مؤيد الدين بن القصاب[6]، وهذه القوات لم تشارك لقصر المعركة، وانتهائها قبل وصولها[7]،

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (212/10)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(365/1).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (212/10)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (41/27).

(3) خوارزم شاه: هو السلطان علاء الدين تكش ابن الملك ألب أرسلان شاه ابن أطر. الصفدي، الشعور بالعور (ص138).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (41/27).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (233/10)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(41/27-42).

(6) ابن القصاب: الوزير الكبير مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن على بن أحمد بن القصاب البغدادي. الذهبي، سير أعلام النبلاء (21 /323)

(7) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (135/6)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (111/5).

وتوجه الوزير مؤيد الدين بابن القصاب إلى بلاد خوزستان بأمر من الخليفة، فملكها "591هـ/ 1194م"، وملك مدينة تستر، وملك غيرها من البلاد (1).

وبمقتل السلطان طغرل بن أرسلان آخر سلاطين السلاجقة، تخلص الخليفة الناصر لدين الله من السلاجقة حتى أنهى وجود السلاجقة، وأطماعهم من العراق، والمنطقة العربية، فقد استطاع الخليفة مَحو آثارهم، وملك خوارزم تكش أملاك السلاجقة في بلاد أصفهان بعد انتصاره على طغرل، ومقتله سنة "590هـ/ 1193م"، فأرسل برأسه إلى بغداد، وملك خوارزم شاه جميع تلك البلاد، وانقرضت الدولة السلجوقية من العراق، والجبال، وخراسان، ولم يبق من البيت السلجوقي إلا من هو ببلاد الروم(2).

وكانت مدة هذه الدولة بالعراق منذ خطب للسلطان طغرل بك ببغداد سنة 447هـ/1056م"، وإلى أن قطعت عند إخراج مسعود البلالي الشحنة من بغداد سنة "549هـ/1058" (3)، ويذكر السيوطي واصفًا فترة خلافة السلطان الناصر لدين الله بأنه " ولم تزل مدة حياته في عز، وجلالة، وقمع الأعداء، واستظهار على الملوك، ولم يجد ضيمًا، ولا خرج عليه خارجى إلا قمعه، ولا مخالف إلا دفعه، وكل من أضمر له سوءًا رماه الله بالخذلان"(4).

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (233/10)؛ القلقشندي، مآثر الاناقة (58/2-59).
(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (42/27).
(3) النويري، المرجع السابق (42/27).
(4) تاريخ الخلفاء (ص488).

1.3 المبحث الثالث: دور الدبلوماسية العباسية في تسوية النزاعات داخل البيت الزنكي والأيوبي للوصول إلى الحكم

1.3.1 أولًا: موقف الدبلوماسية العباسية من النزاعات الداخلية الزنكية للوصول إلى سدة الحكم

تعد الدولة الزنكية من أعظم الدول الإسلامية في التاريخ الإسلامي، فقد لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ الخلافة العباسية، وكذلك في تصدي أمرائها للغزو الصليبي في البلدان الإسلامية، ولقد كان صعود هذه الدولة من أحضان الدولة السلجوقية، عندما قام السلطان السلجوقي محمود بن محمد بإقطاع الموصل، والجزيرة، وما يليهما لعماد الدين زنكي سنة "521هـ/1127م"، إلى أن استقل زنكي بالموصل، ثم سار إلى نصيبين فملكها، وسار إلى سنجار[1]، وصالح أهلها، وبذلك ملك زنكي الجزيرة بكمالها[2].

كان عماد الدين زنكي قد استقر في بلاد الجزيرة، وأرسل إليه الخليفة المسترشد بالله سنة "527هـ/1133م" وفدًا دبلوماسيًا بقيادة الشيخ بهاء الدين أبى الفتوح الاسفرايني[3] برسالةٍ فيها عتابٌ لزنكي، وقد زاد رسول الخليفة في عتاب زنكي، فقبض عليه زنكي، وأهانه، فلما سمع الخليفة ما حدث لرسوله غضب بما حدث، سار إليه بثلاثين ألف مقاتل يريد محاصرة الموصل فما أن علم زنكي رحل عنها، فلم يتمكن الخليفة من السيطرة عليها، فعاد إلى بغداد، وعفا الخليفة عن زنكي، ووقع الصلح بينهما[4]، ويذكر ابن الجوزي قائلًا: "ووقع الاتفاق مع زنكي ابن آقسنقر، ووصلت رسله بالحمل والهدايا"، ومن الواضح أن العلاقة بين الخليفة، وزنكي كانت علاقة متذبذبة ما بين سيئة وحسنة[5].

---

(1) سنجار: مدينة مشهورة بأرض الجزيرة بقرب الموصل ونصيبين. القزويني، آثار البلاد (ص160). وهي في وسط برية ديار ربيعة. الاصطخري، المسالك والممالك (ص30).

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص141).

(3) بهاء الدين: هو الشيخ بهاء الدين سعد بن أحمد بن إسماعيل أبو الفتوح الأسفراييني. الذهبي، المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ الدبيثي (190/15)

(4) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص122).

(5) ابن الجوزي، المنتظم (285/17).

ويمكن القول هنا رغم أن الخليفة لم يكن له شأن أمام السلاطين السلاجقة، وأتباعهم في العراق، إلا أنه كان لهم بالمرصاد، فتارة يحاربهم، وتارة يرسل لهم الوفود الدبلوماسية، ويعقد الصلح معهم لحماية البلاد من الفتن والقتال[1].

وبعد مقتل الخليفة المسترشد بالله على يد الباطنية، اجتمع الملوك والأمراء في بغداد، وخرجوا عن طاعة السلطان مسعود بن محمد، ومعهم أتابك زنكي، وخطبوا للملك داود بن محمود بن محمد ببغداد، فلما بلغ السلطان مسعود ما حدث ببغداد جمع العساكر واتجه إلى بغداد، وحاصرها، فهرب منها الخليفه الراشد، وزنكي إلى الموصل، ولما سيطر السلطان مسعود على بغداد قام بقطع خطبة الخليفة الراشد منها[2].

فلما قطعت خطبة الخليفة الراشد من البلاد، خطب عماد الدين زنكي للخليفة الجديد، وهو المقتفي بأمر الله الذي عين من قبل السلاجقة، فأقطع الخليفة لزنكي عشرة بلدان يحكم بها[3]، وأصلح الأمر بين السلطان مسعود، وزنكي فخطب زنكي للسلطان في المناطق التي تخضع لحكمه[4]، وبذلك تحسنت العلاقة ما بين عماد الدين زنكي والسلطنة السلجوقية، والخلافة العباسية، فبرز دور زنكي في بلاد الجزيرة، ولجأ إلى توحيد الدولة الإسلامية لمحاربة الصليبيين؛ لكنه قتل سنة "540هـ/1146م" أثناء حصاره لقلعة جعبر، فكان مقتله خسارة للخلافة العباسية، وذلك لعزمه توحيد العالم الإسلامي تحت سلطة الخليفة[5].

- **نزاع البيت الزنكي على السلطنة بعد وفاة أتابك عماد الدين**

كانت الخلافة العباسية في تلك الفترة تسعى للتخلص من الهيمنة السلجوقية، فأخذت تحافظ على علاقتها مع الكيانات السياسية المجاورة لها، بالمقابل كانت الدولة الزنكية تريد أن تحصل على رضى الخلافة العباسية لتوحيد الجبهة، وصد الخطر الصليبي في الشام، والجزيرة باسم الدبلوماسية العباسية، وهنا اتحد الطرفان على محاربة الأعداء الحقيقيين، وحسم الأمر مع

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم (285/17).
(2) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص123).
(3) ابن الجوزي، المنتظم (321/17).
(4) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص 158).
(5) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص124).

الطرف الآخر، أما من الناحية الخارجية للدولة الزنكية كانت شبة مستقلة عن الخلافة العباسية بعلاقتها من الدول المجاوة لها[1].

وبمقتل عماد الدين زنكي انتقلت الولاية لابنه نور الدين الذي سيطر على حلب[2]؛ لكن في المقابل كان أخوه سيف الدولة غازي قد سيطر على الموصل لذلك بدأ النزاع على السلطنة، وتولى شئون الدولة الزنكية بين الأخوين، فطمع السلاجقة بقيادة الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود بالسيطرة على أملاك الدولة الزنكية، فقام نور الدين بإرسال ألب أرسلان إلى الموصل مع الأمراء، وقال لهم :" إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل، فهي له، وأنتم في خدمته، وإن تأخر، فأنا أقرر أمور الشام وأتوجه إليكم"[3].

وهنا ظهر طمع الملك السلجوقي ألب أرسلان في السيطرة على ملك الموصل، فاتفق الأميران: جمال الدين الأصفهاني، وصلاح الدين الياغيسياني على حفظ الدولة لأبناء زنكي، فأخذ جمال الدين يلهي الملك ألب أرسلان بالشرب، والمغنيات، حتى استطاع دخول الموصل، وحفظها، وعين سيف الدين غازي عليها [4]، وبقي نور الدين محمود يحكم حلب[5].

وبعد أن استقر أمر سيف الدين غازي على الموصل أقر زين الدين على ولاية الموصل، وجعل وزيره جمال الدين، وأرسلوا إلى السلطان مسعود، فاستحلفوه لسيف الدين، فحلف لهم، وأقره على البلاد، وأرسل له الخلع، ولازم سيف الدين خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه، لذلك كان السلطان يحبه كثيرًا، وهنا يمكن القول بأن سيف الدين غازي كسب ود السلطان، وود الخليفة بأن خطب للخليفة، ثم للسلطان، ومن ثم لنفسه[6].

لم يستقر الأمر بين الأخوين، فقد بدأ الصراع بينهما على تولى السلطنة بعد أبيهم، كان سيف الدين أكبر سنًا من أخيه، فسار إلى الشام يريد ضمها إلى ملكه؛ لكنهما اتفقا بأن يلتقيا

---

(1) عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية (ص61-62).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (431/9).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (168/1).

(4) سيف الدين غازي: هو سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل. ابن خلكان، وفيات الأعيان (ص3).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (431/9-432)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (169/1-170)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص124)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (105/27).

(6) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (171/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (105/27).

على أن يكون مع كل منهما خمسمائة فارس، فسار نور الدين إليه بهذه العدة، أما سيف الدين فسار إليه بخمسة فوارس، فلما رآه نور الدين بهذا العدد اطمأن قلبه، وتحالفا، واتفقا فيما بينهم[1]، ودخل نور الدين إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعودة إلى حلب، وترك عسكره عنده، وقال له :" لا غرض لي في مقامك عندي؛ وإنما غرضي أن يعلم الملوك، والفرنجة اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه "، فلم يرجع نور الدين، ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده[2].

استقرت العلاقة بين الأخوين، واتفقا على محاربة الصليبيين، فعندما سيطر نور الدين على حصن العريمة من يد الصليبيين، كان سيف الدين غازي قد أمد أخيه بالعساكر، فاستطاع العسكر الإسلامي أن يسيطر على الحصن وامتلاكه[3].

وكانت علاقة الأخوين أبناء زنكي مع الخلافة العباسية، علاقة تسودها الأمن والسلام، يسعى كل طرف منهم تحقيق غايته، فكان الأخوان يسعيان أن يرضى الخليفة العباسي عنهما من أجل تمكين نفسيهما في المنطقة، ومحاربة الصليبيين، وهنا يظهر النضج الدبلوماسي عند الخلافة العباسية عندما أيدت وحدة الأخوين، واتفاقهما ضد الأعداء، فأمدتهم الخلافة بالمعونه، وحمتهم، من أجل الاستعانه بهم، وانتزاعهما من السلاجقة في حال قامت حرب بين الخلافة والسلاجقة في بغداد[4]؛ ولكن سيف الدين غازي لم يطل في الحكم، فقد توفي سنة "544هـ/1150م" بالموصل[5]، وملك من بعده أخوه قطب الدين مودود[6]، ودخل في طاعة الخلافة العباسية، فأطاعته سائر البلاد التي كانت تحت يد أخيه[7].

---

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (171/1-172)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(105/27-106).

(2) أبو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين (172/1).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (108/27).

(4) عوض، السياسية الخارجية للدولة النورية، (ص55-56).

(5) ابن خلكان، وفيات الأعيان (4/4)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص124)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (106/27)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (203/37).

(6) قطب الدين مودود: قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر المعروف بالأعرج صاحب الموصل. ابن خلكان، وفيات الأعيان (302/5)

(7) ابن الأثير، الباهر (ص94)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (123/27).

- **نزاع البيت الزنكي على الحكم بعد وفاة سيف الدين غازي**

كان للصراع على السلطنة دورٌ كبيرٌ بين الأخوين قطب الدين ممدود، ونور الدين محمود، فكلاهما يطمعان في الانفراد بالسلطنة، حتى كادت أن تندلع الحرب بين الأخوين، فقد قام أمراء الموصل، وعلى رأسهم المقدم عبد الملك حاكم سنجار، بمراسلة نور الدين ليتسلم البلاد باعتباره أكبر سنًا من أخيه قطب الدين، فما كان من نور الدين أن استجاب لهم، وأخذ يفكر في ضم بلاد الجزيرة، والموصل تحت ملكه؛ ليتحقق له توحيد الجبهة الإسلامية في ظل قيادة موحدة، وباعتباره الوريث الشرعي لملك أخيه سيف الدين غازي، فجّد نور الدين في السير، وقطع الفرات متجهًا إلى سنجار، فاستولى عليها[1].

وهنا غضب قطب الدين من دخول نور الدين لسنجار، وعّد ذلك اعتداءً مباشرًا عليه؛ لأنها كانت تابعة له، فجمع العساكر، وسار بها إلى سنجار حتى وصل عند تل يعفر[2] [3]، وهنا تردد الرسل بينهم، فنصح جمال الدين قطب الدين :" ليس من الرأي قتاله، فإننا نحن قد عظّمنا محلّه عند السلطان، وجعلنا أنفسنا دونه، وهو أيضًا يعظمنا عند الفرنج، فإذا لقيناه، فإن هزمناه طمع السلطان فينا ... وإن هزمنا طمع الفرنج فيه، وتطرفوا إلى البلاد"[4].

وأرسل جمال الدين كتابًا إلى نور الدين ينكر فيه قدومه نحو سنجار، واعتدائه على أملاك أخيه، وهدده بالقتال؛ ولكن نور الدين لم يلتفت له، وأظهر له أنه على حق بقوله: " إنني أنا الأكبر، وإني أحق أن أدبر أمر أخي له منكم ... وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم"[5].

وهنا أدرك الوزير جمال الدين ما ينطوي عليه هذا الرد من أخطار، فأشارا على قطب الدين مودود بمصالحة أخيه، والتنازل له عن بعض المواقع في الشام؛ والتي كانت تتبع

---

(1) ابن الأثير، الباهر (ص95-96)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص141)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(282/5).

(2) تل يعفر: اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل. الحموي، معجم البلدان (39/2).

(3) ابن الأثير، الباهر (ص96)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص141).

(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص141).

(5) ابن الأثير، الباهر (ص96)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (234/1).

الموصل، مثل: حمص[1]، والرحبة، والرَّقة[2] [3]، مقابل انسحاب نور الدين من سنجار، والعودة إلى حلب، فوافقهما قطب الدين، وتم الاتفاق بين الأخوين، وانسحب نور الدين من سنجار محملًا بالكنوز التي كانت بخزائن سنجار في أيام أبيه[4].

وأما عن الموقف الدبلوماسي للخلافة العباسية من تلك الصراعات بين الأخوين نور الدين وقطب الدين لم يكن واضحًا؛ وذلك لانشغال الخليفة المقتفي بأمر الله في محاربة السلاجقة[5]، وفي تلك الفتره قام السلاجقة بحملة على بغداد قادها ملكشاه بن السلطان محمود؛ وذلك لتنصيب نفسه سلطانًا على عرش الدولة السلجوقية في بغداد، فما كان من الخليفة المقتفي أن تصدى لتلك الحملة، واستطاع أن يفشلها[6].

ورغم انشغال الخلافة بأمر السلاجقة إلا أنها كانت تتابع ما يحدث عن كثب؛ بل كانت داعمة لنور الدين محمود، في خلافة مع أخية فمن المرجح أن الخلافة كانت تعد نور الدين محمود ليكون الدرع الواقي أو اليد الضارية للخلافة التي تضرب بها الخصوم خصوصًا الاحتلال الصليبي، فليس غريبًا أن ترسل الخلافة المراكب، والسلاح، والعتاد، وكتب الشرعية، والولاية[7].

ففي عام "549هـ/1155م" علم الخليفة اختلاف أهل مصر بعد هلاك الخليفة الظافر بيدين الله، وولي عهده صبي صغير، فأرسل الخليفة مبعوثه إلى نور الدين، وكتب له ولاية مصر، وأعمالها، والساحل، وبعث إليه المراكب، والتحف، وأمره بالمسير إليها، وهنا استخدم الخليفة نور الدين للتخلص من الخلافة الفاطمية في مصر، وصد الخطر الصليبي في البلاد،

(1) حمص: بلد مشهور قديم كبير تقع بين دمشق وحلب. الحموي، معجم البلدان (302/2). وكانت حمص في قديم الزمان أشهر من دمشق، فتحها. العيني، عمدة القاري (83/1).

(2) الرقة : من أكبر مدن ديار بكر، تقع على شرقي الفرات. الاصطخري، المسالك والممالك (ص30)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص123).

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص 141).

(4) ابن الأثير، الباهر(ص96-97)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص141)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص124).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (362/9)؛ ابن الجوزي، المنتظم (71/18)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (225/12).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (362/9).

(7) ابن الجوزي، المنتظم (98/18).

فلن تستطيع ضرب الصليبيين ضربة قوية إلا إذا حسمت مصر التي تتمتع بالقدرات البشرية والطبيعية، بل هي الجبهة الجنوبية الأضعف بالنسبة للكيان الصليبي، ووجود الشيعة فيها يمثل معوقًا لسير مخطط الخلافة، خصوصًا تاريخ الفاطمية زاخر بالتعاون الأمني، والعسكري مع الصليبيين[1].

وكان قطب الدين مودود قد ساعد السلطان محمد في حصار بغداد، فأرسل رسولًا إلى الخليفة المستنجد سنة "555هـ/1160م" يعتذر فيه لمساعدة السلطان محمد في حصار بغداد، ويطلب أن يؤذن له في الحج، فأرسل إليه الخليفة وفدًا دبلوماسيًا بقيادة يوسف الدمشقي مدرس النظامية، وسليمان بن قتلش يطيبان قلبه عن الخليفة، وأذنا له في الحج، فحج، ودخل على الخليفة، فأكرمه، وخلع عليه[2]، وهنا لعب الخليفة دورًا دبلوماسيًا قويًا مع الزنكيين بأن استطاع تقريبهم له من أجل الاستعانه بهم، أو تحيزهم عن دعم السلاجقة ضد الخلافة، حيث هنا استغل عذر قطب الدين له لدعمه للسلاجقة، فقبل عذره لتحييده من دعم السلاجقة مرة أخرى في حصار بغداد.

وفي تلك الفترة ظهر أخ آخر لنور الدين زنكي، وهو نصرة الدين أمير أميران، قام بحركة ثوريه ضد أخيه نور الدين يريد السلطنة، وقد استطاع إخضاع مدينة حلب بمساعدة الطائفة الإسماعيلية[3]، وذلك عام "554هـ/1159م"، وأذن بالناس بحي على خير العمل، وأراد ضم مدينة دمشق إلى حوزته، إلا أن فشل في ضمها وتم قمع ثورته من قبل أخيه نور الدين[4].

- **نزاع أبناء قطب الدين على الحكم في الموصل**

كانت وفاة قطب الدين مودود بالموصل سنة "565هـ/1170م"، قد ترك فراغًا في الحكم بأن تنازع أبناؤه على السلطنة حيث ملك بعده ابنه سيف الدين غازي الثاني[5] [6]، وكان قبل

---

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(161/28)

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (442/9).

(3) الإسماعيلية فرقة باطنية، انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام، السقاف، ومجموعه من الباحثين: موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام (49/9).

(4) ابن العديم، بغية الطلب (2024/4)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (286/5).

(5) سيف الدين غازي: هو سيف الدين بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (4/4).

(6) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (126/27–127).

وفاته قد عهد بملكة إلى ابنه عماد الدين زنكي الثاني[1]، إلا أنه غير رأيه بأن عهد الولاية لابنه الصغير سيف الدين غازي الثاني[2]؛ وحينها كان فخر الدين عبد المسيح قائد الجيش بالموصل هو السبب في تعيين سيف الدين على حكم الموصل[3].

وهنا بدأ تنازع الأخوين في السيطرة على الموصل، فسار عماد الدين الثاني إلى عمه نور الدين مستنصرًا به ضد أخيه، وعبد المسيح، فسار نور الدين سنة "566هـ/1171م"، وعبر الفرات، وملك في طريقه الرقة، والخابور[4]، وأرسل لعبد المسيح " أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم"[5]، وأقام بنصيبين يجمع العساكر، وكانت أكثر عساكره في الشام تحارب الصليبيين، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار، فحاصرها حتى ملكها، وسلمها إلى عماد الدين زنكي الثاني، وجاءته كتب الأمراء بالموصل يبذلون له الطاعة، ويحثونه على الوصول إليهم، فسار إلى الموصل[6].

لم يجد سيف الدين الثاني ملجأ سوى الاستنجاد بأتابك إيلدكز حاكم أذربيجان، وأصفهان، ضد عمه نور الدين، فأرسل إيلدكز إلى نور الدين رسولًا ينهاه عن التعرض للموصل، فرد نور الدين على الرسول:" قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخي منك"، وراسل الأمراء نور الدين لتسليم البلد له، لذلك تراسل سيف الدين على أن يبقى بالموصل على طاعة عمه، وأن يسير عبد المسيح إلى الشام تحت طاعة نور الدين، ويقطعه ما يرضيه، فتسلم البلد[7].

---

(1) عماد الدين زنكي: هو عماد الدين بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، ملك حلب ثم سلمها إلى صلاح الدين، وأخذ بدل منها مدينة سنجار. ابن خلكان، وفيات الأعيان(330/2)

(2) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص141).

(3) ابن العديم، زبدة الحلب (ص353).

(4) الخابور: بين رأس عين والفرات ونهر وآخر شرقي دجلة الموصل. الفيروزآبادي، القاموس المحيط (ص489).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (29/10)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (166/2).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (30/10)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص142)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (ص353).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (30/10)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (ص 354)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص 142).

ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس، وكذلك فعل بنصيبين، وسنجار، والخابور[1]، وأثناء حصاره للموصل وصلتة خلعة من الخليفة المستضيء بأمر الله، فلبسها[2]، فوصول الخلعة إليه من قبل الخليفة تعبر عن رضا الخليفة عن جهوده في توحيد العالم الإسلامي لمواجهة الصليبيين، وعاد نور الدين إلى الشام، واستناب في قلعة الموصل سعد الدين كمشتكين[3]، وأمر سيف الدين الثاني أن لا ينفرد عنه بالحكم، وأقطع مدينة سنجار لعماد الدين الثاني، واستصحب معه إلى الشام فخر الدين عبد المسيح، وأقطعه إقطاعًا كبيرًا[4]، فلم يزل بها إلى أن توفي نور الدين، وملك ابنه الملك الصالح إسماعيل[5] حلب[6].

- **وفاة نور الدين محمود وضعف الدولة الزنكية**

وما أن توفي نور الدين محمود حتى طمع سيف الدين في السلطنة، والسيطرة على البلاد، فاستولى على نصيبين، وملك الخابور، وحران، واتجه نحو الرها، فحاصرها حتى ملكها، وملك في طريقه: الرقة، وسروج[7]، وجميع بلاد الجزيرة، إلا قلعة جعبر لحصانتها، ورأس عين لأنها كانت لقطب الدين حاكم ماردين[8]، وعاد عبد المسيح إلى خدمة سيف الدين، وحرضه للعبور إلى الشام؛ لكنه رجع إلى الموصل، واستقر بها سنة "569هـ/1174م" [9]، وبذلك أصبح لسيف الدين مكانه كبيرة داخل الدولة الزنكية.

في تلك الفترة سيطر السلطان صلاح الدين الأيوبي على مصر وأخذ توكيلًا من الخلافة العباسية بتوحيد الجبهة الإسلامية للتصدي للخطر الصليبي، وبتوكيل الخلافة له على توحيد البلاد زاد عزمة في السيطرة على الشام، فاستغل انشقاق أمراء نور الدين عن ابنه الصالح

---

(1) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص 142).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (31/10)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (168/2).

(3) سعد الدين كمشتكين: هو سعد الدين كمشتكين تولى الموصل من قبل نور الدين ومن ثم تركها وسيطر على حلب. الذهبي، تاريخ الإسلام (28/39-29)

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (31/10).

(5) الصالح إسماعيل: أبو الفتوح إسماعيل بن صاحب الشام نور الدين محمود بن الأتابك، ملك دمشق بعد وفاة أبيه وعمره إحدى عشرة سنة، وحلفوا له أمراء حلب. الذهبي، سير أعلام النبلاء(111/21).

(6) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص 142).

(7) سروج: وهي بلدة قريبة من حران، وديار مضر.الحموي، معجم البلدان (216/3).

(8) ماردين: قلعة مشهورة على قلة جبل بالجزيرة، وهي مشرفة على دنيسر، ودارا، ونصيبين. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص103).

(9) النويري، نهاية الأرب (128/27-129).

إسماعيل، فجمع العساكر، واتجه نحو الشام، فما كان من الملك الصالح إسماعيل أن استنجد بسيف الدين الثاني ضد صلاح الدين، فاستجاب سيف الدين لابن عمه، وكاتب أخاه عماد الدين زنكي الثاني، ودعاه لمحاربة صلاح الدين؛ لكنه رفض مساعدة أخيه بسبب أطماع صلاح الدين في الملك، فقام سيف الدين بتسيير العساكر مع أخيه عز الدين مسعود(1) إلى الشام، وقام هو بمحاصرة أخيه في سنجار، وأثناء حصاره لسنجار أتاه الخبر بانهزام أخيه أمام صلاح الدين، فصالح أخاه بسنجار، ورحل إلى الموصل(2).

كان الملك الصالح إسماعيل قبل وفاته أوصى بتسليم البلاد إلى عز الدين مسعود الذي تولى أمر الموصل بعد وفاة سيف الدين غازي الثاني(3)، فسيطر على حلب؛ لكن طمع عماد الدين بحلب، فأرسل لأخيه:" إن لم تُسلم إليَّ حلب، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين"، فأشار حينئذ جماعة من الأمراء بتسليمها إليه، فاستقر الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين، وأخذ سنجار عوضًا عنها(4)؛ وعلى ذلك استقرت الدولة الزنكية إلى أن جاء صلاح الدين إلى بلاد الجزيرة، ووحدها، وضمها لدولته(5).

وفي النهاية يمكن القول، بأن الخلافة العباسية لم تكن راضية عن الزنكيين بعد وفاة أميرهم نور الدين محمود؛ بسبب كثرة نزاعهم على السلطنة في الموصل، وحلب، لذلك وجدت الخلافة بأن السلطان صلاح الدين الأيوبي هو الشخصية المثالية التي يمكن أن تسد مكان الأمير نور الدين محمود، وكذلك يمكن الاستفادة به في محاربة الصليبيين، وكذلك في توحيد الكيانات الإسلامية تحت راية الخلافة العباسية بعد أن استطاع إسقاط الحكم الشيعي في مصر.

---

(1) عز الدين مسعود: وأبو المظفر عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي ابن آق سنقر أتابك صاحب الموصل. ابن خلكان، وفيات الأعيان (203/5).

(2) النويري، نهاية الأرب (129/27)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (349/1)

(3) الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص 180).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (107/10)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (78/3)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص143).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (107/10)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (78/3).

1.3.2ثانيًا: موقف الدبلوماسية العباسية من الصراع بين أبناء البيت الأيوبي في الوصول إلى السلطة

تعد الدولة الأيوبية إحدى الدول الإسلامية التي نشأت في المشرق الإسلامي، وكان لها دورٌ مهمٌ كبيرٌ في الحياة السياسية، كما كان لها تأثير مباشر على مجريات الأحداث الداخلية للخلافة العباسية، وكذلك وقفت في وجه الاحتلال الصليبي، واستطاعت تحرير بيت المقدس، بعد أن نجحت في توحيد الكيانات الإسلامية تحت رايتها، والذي لم تحرك الخلافة الفاطمية ساكنًا أمام احتلاله من قبل الصليبيين .

قدم نجم الدين أيوب، وأخوه أسد الدين شيركوه[1] إلى العراق في خلافة المسترشد بالله، وقويت مكانة نجم الدين أيوب حتى أصبح دزدارًا[2] بقلعة تكريت[3]؛ ولكن سرعان ما حدث الخلاف بين الأيوبيين مع مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد نتيجة مقتل أحد ملوك بهروز من قبل نجم الدين في تكريت، فقصد الأخوان عماد الدين زنكي الذي أحسن إليهما، وجلسا في خدمته، فلما فتح عماد الدين بعلبك جعل نجم الدين دزدارًا عليها[4].

وبذلك صعد، وبرز دور نجم الدين، وأخيه أسد الدين خصوصًا بعد مقتل زنكي، فقد قام نجم الدين بتسليم بعلبك لنور الدين محمود، وأخذ بدلًا منها إقطاعًا في دمشق، وأصبح من أكابر الأمراء عند نور الدين محمود، وأما أسد الدين فسار في خدمة نور الدين، فأقطعه حمص، والرحبة، وجعله مقدم عسكره، لشجاعته في محاربة الصليبيين[5].

ولقد ساعد الأخوان نور الدين في السيطرة على دمشق، فعلا شأنهما عنده بعد تملكه دمشق، لذلك عندما عزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر لم ير لهذا الأمر الكبير أقْوَم ولا أشجع من أسد الدين[6]، وعندما استنجد شاور[7] بنور الدين من أجل استرداد الوزارة

---

(1) شيركوه: هو الملك المنصور فاتح الديار المصرية أسد الدين شيركوه بن شاذي. الذهبي، سير أعلام النبلاء (587/20).

(2) دزدارًا: ومعناه حافظ القلعة، فإن دز بالفارسي القلعة، ودار الحافظ. المقريزي، اتعاظ الحنفا (305/3).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(234/28-235)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (4/6).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (405/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (235/28)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (303/5)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (5/6).

(5) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (405/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (5/6).

(6) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (406/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (6/6).

(7) شاور: وزير الديار المصرية الملك أبو شجاع شاور بن مجير السعدي الهوازني. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (214/20).

من ضرغام، قام نور الدين بإرسال الحملات على مصر بقيادة شيركوه الذي استطاع السيطرة عليها، وتولى الحكم فيها باسم نور الدين[1].

لم يستمر شيركوه في أمر الوزارة طويلًا، فقد توفي، وتولاها صلاح الدين من بعده، ففتحها، وأسقط الحكم الشيعي فيها، وأعاد الخطبة العباسية لها، وأرسل للخليفة العباسي، يبين فتوحاته، وجهاده للصليبيين، وإعادته الخطبة العباسية، واستيلائه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب، وعلى بلاد اليمن، وطلب صلاح الدين من الخليفة تقليده: مصر، واليمن، والمغرب، والشام، وكل ما فتحه بالسيف[2]، فأرسل الخليفة مبعوثيه للسلطان صلاح الدين، يبين موافقته على تقليده أمر البلاد، وأرسل اليه مع الوفد التشريفات: الأعلام العباسية، وتوقيع الخليفة للسلطان على حكم البلاد التي تحت يده [3].

وبسقوط الخلافة الفاطمية علا شأن صلاح الدين، واستطاع أن يقيم الدولة الأيوبية، واعترف الخليفة العباسي به سلطانًا، وأرسل له تقاليد الحكم[4]، وفي عام "570هـ/1174م" حملت إليه التشريفات، والتقليد، والتمليك، والتفويض[5]، ورغم أن السلطان كان بغنى عن اعتراف الخليفة به كسلطان، وتقيلده البلدان التي سيطر عليها؛ لأن الخلافة في تلك الفترة كانت في غاية التفكك والانحلال، إلا أنه طلب التفويض من الخليفة ليساعده في السيطرة على أكبر قدر ممكن في المنطقه، وليتمكن من مد دولته، وتوسيعها على حساب الممالك الأخرى التابعة للزنكيين، وغيرها من الولايات الإسلامية[6].

وعندما توفي الخليفة العباسي المستضيء بالله، وخلفه ابنه الناصر لدين الله، بايعه صلاح الدين، وأرسل رسولًا إلى بغداد للتعزية بوفاة والده، والتهنئة له بمناسبة توليه مهام الخلافة، وكتب صلاح الدين إلى الخليفة بتفويض الأمور إليه كما كانت أيام والده[7]، فاستجاب الخليفة له،

---

(1) المقريزي، اتعاظ الحنفا (273/3).

(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (365/2-366)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (ص2، 8)؛ الذهبي، تاريخ الاسلام (67/39)؛ القلقشندي، صبح الأعشى (95/13).

(3) المقريزي، السلوك (169/1).

(4) حماة: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الشام كثيرة الخيرات، يحيطها سور محكم، وبها أسواق كبيرة. الحموي، معجم البلدان (300/2). وهي من أمهات الشام الرفيعة. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة (85/1).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (34/10)؛ المقريزي، السلوك (169/1).

(6) زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي (ص 483).

(7) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (60/3).

وأرسل إليه وفدًا دبلوماسيًا بقيادة شيخ الشيوخ[1]، وشهاب الدين بشير الخادم[2]، بالتفويض، والتشريف الجديد، ولقَّبه بالألقاب السنية، منها: " الملك الأجلُّ السيد صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة، فخر الملة، صفي الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمرتدين، أمير المجاهدين"[3].

- **صراع أبناء البيت الأيوبي على السلطنة بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي**

رغم قوة وصلابة الدولة الأيوبية بزعامة صلاح الدين الأيوبي، إلا أنها لم تستمر كما كانت، فبعد أن مرض السلطان صلاح الدين الأيوبي، ويُئِس من شفائه أُحضر الأمراء والأكابر وبويع لولده الأفضل[4]، الذي كان نائبًا عنه بدمشق، وما أن توفي السلطان حتى تقسمت الدولة الأيوبية من بعدة بين أبنائه، وأخيه الملك العادل[5]، حيث تولى ابنه الأفضل مُلك دمشق، والساحل، والبيت المقدس، وبعلبك، وصرخد، وبصرى[6]، وبانياس، وجميع الأعمال إلى الداروم[7]، وكان ولده الملك العزيز عثمان[8] بمصر، فاستولى عليها، وعلى جميع أعمالها[9].

---

(1) شيخ الشيوخ : هو صدر الدين عبد الرحيم بن شيخ الشيوخ إسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعيد أحمد ، كان قد سار في ديوان الخلافة رسولًا إلى صلاح الدين. الأصبهاني، البرق الشامي (53/5).

(2) بشير الخادم: هو شهاب الدين بشير الخادم أحد الرسل الذي كان يراسلهم الخليفة العباسي للصلح بين الأمراء. الأصبهاني. البرق الشامي (47/5).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (42/40)؛ القلقشندي، مآثر الأناقة (87/3).

(4) بصرى: هي من أعمال دمشق. الحموي، معجم البلدان (441/1).

(5) العادل: السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى. الذهبي، العبر في خبر من غبر(58/5).

(6) الأفضل: هو الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين. ابن خلكان، وفيات الأعيان (88/7).

(7) الداروم: قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر. الفيروز آبادي، القاموس المحيط (ص 1429).

(8) العزيز: الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف. ابن خلكان، وفيات الأعيان (251/3).

(9) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (224/10–225)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص136)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (2/13)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (384/5).

وتم تقسيم بقية الدولة على الأخوة، والأبناء، فقد ملك الملك الظاهر[1] إمارة حلب، والملك العادل: الكرك[2]، والشوبك[3]، وبلاد الجزيرة، والملك ناصر الدين محمد[4]: حماة، وسلمية[5]، والمعرة[6]، ومنبج[7]، وقلعة نجم [8]، والملك الأمجد بهرام شاه: بعلبك، والملك المجاهد شيركوه الثاني[9]: حمص، والرحبة، وتدمر[10]، والملك الظافر خضر[11]: بصرى، وكان بخدمة أخيه الملك الأفضل، وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد، وحصون، منهم عثمان بن الداية[12] بيده شيزر[13]، وبدر الدين دلدرم[14] بيده تل باشر[15]، وعز الدين أسامة[16] بيده

---

(1) الملك الظاهر: الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. الذهبي، تاريخ الإسلام (95/41)

(2) الكرك: اسم لقلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس. الحموي، معجم البلدان(453/4). وهو سرارة أرض فلسطين. ابن جبير، رحلة ابن جبير(ص201).

(3) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك. الحموي، معجم البلدان، (370/3).

(4) ناصر الدين: هو الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين محمود. الذهبي، العبر في خبر من غبر(45/5).

(5) سلمية: هي بلدية في ناحية البَرية من أعمال حماة. الحموي، معجم البلدان، (340/3).

(6) المعرة: المقصود بها معرة النعمان، وهي بليدة بين حلب وحماة، كثيرة التين والزيتون. القزويني، آثار البلاد (ص109).

(7) منبج: هي قلعة أثرية تقع في سوريا. الحموي، معجم البلدان (205/5).

(8) قلعة نجم: مدينة سوريا تقع بالقرب من منبج. الحموي، معجم البلدان (241/4).

(9) المجاهد شيركوه الثاني: الملك المجاهد أسد الدين أبو الحارث شيركوه ابن صاحب حمص ناصر الدين محمد ابن الملك أسد الدين شيركوه بن شاذي. الذهبي، سير أعلام النبلاء (39/23).

(10) تدمر: مدينة بأرض الشام قديمة. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص67).

(11) الظافر خضر: الملك الظافر مظفر الدّين خضر بن الناصر صلاح الدين. الذهبي، تاريخ الإسلام (354/41).

(12) عثمان بن الداية: سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر. ابن الأثير، الكامل في التاريخ (168/10).

(13) شيزر: كورة بالشام تحدها المعرة بالقرب من حماة. الحموي، معجم البلدان (383/3).

(14) بدر الدين : هوبدر الدين دلدرم بن ياروق. ابن العديم، زبدة الحلب(431/1).

(15) تل باشر : قلعة حصينة تقع شمال حلب . الحموي، معجم البلدان (40/2).

(16) عز الدين : الأمير عز الدين أسامة، كان أحد قادة صلاح الدين، ثم أصبح من أكابر الأمراء العادلية. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص76).

كوكب[1] وعجلون[2]، وعز الدين إبراهيم بن المقدم [3] بيده بعرين[4]، وكفر طاب وأفاميه[5]، وما أن تعدد هذه الإمارات بين أبناء عائلة صلاح الدين حتى زرعت بذور الانشقاق بينهم، والصراع على الحكم، والسيطرة على السلطنة، وكتب الملك الأفضل إلى الخليفة الناصر يطالعه بوفاة أبيه ،وتقسيم المملكه من بعده[6].

فكانت السلطنة على مصر من نصيب السلطان العزيز عثمان، فأصبحت له السلطة العليا على البيت الأيوبي، واتفق أمراء الشام بعدم الاعتراف بالملك الأفضل صاحب السلطة في الشام، وحرضوا العزيز على المسير إلى الشام، والسيطرة عليها، فخرج العزيز من مصر متجهًا نحو دمشق سنة "590هـ- 1194م"، فحاصرها[7]، فاستنجد الأفضل بعمه العادل ضد أخيه، وكون حلف من الملك الظاهر، والملك المنصور، والملك المجاهد، والملك الأمجد، وعسكر الموصل وغيرها، كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق، واتفقوا على حفظها، علمًا منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم[8].

وبذلك تبلور حلف أيوبي مناهض للسلطان العزيز، فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له عليهم، فاجتمع بعمه العادل الذي نصحه بالعودة إلى مصر قائلًا له:" لا تخرب البيت ،وتدخل عليه الآفة، والعدو وراءنا من كل جانب، وقد أخذوا، فارجع إلى مصر، واحفظ عهد أبيك"[9]، وترددت بعثات الرسل حتى تم الاتفاق على الآتي[10]:

- أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز.

---

(1) كوكب: اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن. الحموي، معجم البلدان (404/4).

(2) عجلون: وهي بين بلد السواد – من أعمال الأردن – وبين بلاد الشراة. مُحدثة صغيرة على جبل مطلّ على الغور، تُرى من القدس ومن جبال نابلس. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص76).

(3) عز الدين إبراهيم بن المقدم: صاحب منبج وقلعة نجم وأفاميه. ابن الوردي، تتمة المختصر(114/2).

(4) بعرين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب. الحموي، معجم البلدان (321/1).

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (369/1).

(6) المقريزي، السلوك (228/1).

(7) ابن واصل، مفرج الكروب (29/3).

(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (234/10).

(9) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (121/6).

(10) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (234/10)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (298/28).

- تبقى دمشق وطبرية والغور [1] للأفضل.
- يعطي الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية بالساحل الشامي.
- وأن يكون للعادل بمصر إقطاعه الأول[2].

وكان العادل يريد من وارء ذلك تحقيق المخطط الذي يسعى إلى تحقيقه، فقد كان يريد أن يعيد توحيد الدولة تحت سلطته، فلما عاد العزيز إلى مصر، ورجع كل واحد من الملوك إلى بلده، بدأت بذور الانشقاق داخل البيت الأيوبي، كل منهم يطمع في السيطرة على أملاك غيره، وأصبح الملك العادل له دور كبير في الأمور الداخلية للدولة الأيوبية، وأخذ يلعب دوره في الإيقاع بين العزيز، والأمراء بمكاتبتهم، وإعطائهم الوعود الكاذبة، وأخذ يحرضهم ضد العزيز.

وعندما عاد العزيز إلى مصر أخذ الأمراء يحرضونه بتوحيد الشام، ومصر تحت سلطته، وكان من بينهم الأمير عز الدين أسامة الذي سار الى مصر، وحرض العزيز بأخذ دمشق، وقال له : "إن الأفضل قد غلب على اختياره، وحكم عليه وزيره الضياء ابن الأثير الجزري، وقد أفسد أحوال دولته برأيه الفاسد ويحمل أخاك على مقاطعتك، ويحسن له نقض اليمين"[3].

اقتنع العزيز بقول الأمراء، وسار بالعساكر مرة أخرى سنة "591هـ/1194م" إلى دمشق يريد تملكها، فاستنجد الأفضل مرة أخرى بعمه، وسار إلى أخيه الظاهر، ووصل الملك العزيز قرب دمشق، فتصدى له العادل، والأفضل، فعاد العزيز منهزمًا إلى مصر، وركب وراءه العادل، والأفضل ليأخذا منه مصر، وقد اتفقا بأن يملك الأفضل مصر، والعادل دمشق، أن يكون ثلث مصر للعادل، وثلثاها للأفضل[4].

وهنا برز دور الملك العادل فقد أخذ يفرق بين الأخوين، وقام بمراسلة العزيز سرًا ليثبته على الملك، واتفق معه على أن يمنع الأفضل من السيطرة على مصر مقابل أن يساعده بأخذ دمشق من الأفضل، وأقاما على بلبيس[5] أيامًا حتى خرج إليهما القاضي الفاضل من جهة

---

(1) الغور: غور الأردن بالشام بين البيت المقدس، ودمشق وهو منخفض عن أرض دمشق، وأرض البيت المقدس. الحموي، معجم البلدان (217/4)

(2) ابن واصل، مفرج الكروب (46/3).

(3) المقريزي، السلوك (232/1).

(4) ابن كثير، البداية والنهاية (11/13).

(5) بلبيس: هي الحد الفاصل بين مصر والشام، وهى أول الشام، وآخر مصر. الحموي، معجم البلدان (479/1).

العزيز، فوقع الصلح على أن يرجع القدس، ومعاملتها للأفضل، ويستقر العادل مقيمًا بمصر على إقطاعه القديم، فأقام العادل بمصر طمعًا فيها، فلما استقر الأمر، وتعاهدوا، عاد الأفضل إلى دمشق، وبقي العادل بمصر[1]، وبذلك استقر الملك العادل بمصر، وأخذ يلعب دورًا كبيرًا، فقد شجع الصراعات بين الأخوين من أجل السيطرة على زمام الأمور، وإضعاف الطرفين، ليلعب دوره في السيطرة على ملك مصر، والشام.

وما أن تمكن العادل بمصر حتى أخذ يحرض العزيز على ملك دمشق، واتفق معه على المسير إلى دمشق وذلك سنة "592هـ / 1196م"، فسار العسكر المصر إليها وحاصروها حتى ملكوها، فدخلها الملك العادل، ومعه جماعة من أصحابه، فلم يشعر الأفضل إلا وعمه العادل بدمشق ، واتجه العزيز نحو دمشق لإفشال مخطط عمه العادل باستيلائه على دمشق، فلما علم العادل بذلك أرسل إليه "أنا أبني، وأنت تهدم"[2].

لم يشعر الملك الأفضل إلا وقد دخل الملك العزيز، وعمه العادل دمشق، وأرسلا إليه بمفارقة القلعة، وتسلم جميع أعمال دمشق، مقابل أن تعطى قلعة صرخد له، فخرج الأفضل من دمشق مستسلمًا لأمر أخيه، وعمه، واستلم منهم صرخد، وذلك سيطر العادل على دمشق، وأخذ يحكمها باسم الملك العزيز، وبقيت الخطبة له، والسكة باسمه[3] ومنها أتجه العزيز إلى قلعة ماردين فحاصرها، وقطع الميرة عنها، ثم رحل عنها، وكان ذلك سنة "594هـ/ 1198م"[4].

لم يرض الملك الأفضل بما حصل له على يد أخيه وعمه العادل بأن يتخلى عن دمشق، فأرسل للخليفة العباسي الناصر لدين الله يشكوهم بما فعل به عمه وأخوه العزيز، وقد جاء ذلك على شكل قصيدة جاء فيها:

مـــــــــولاي إن أبا بكر وصاحبــه ... عثمان قد غضبا بالسيف حقّ علي

فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي ... من الأواخر ما لاقــــــى من الأول

فأتاه الجواب من الإمام الناصر، وفي أول الكتاب :

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (239/10–240)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (62/3–67).

(2) ابن واصل، مفرج الكروب (67/3).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (243/10)؛ المقريزي، السلوك (247/1)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص136).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (254/10).

وافى كتـابك يا ابن يوسف معلنًا بالـــــــود يخبر أن أصلك طاهر

غضبـــــوا عليًا حقه إذ لم يكن بعد النبي لـــــــــه بيثرب ناصر

فأبشر فإن غـــدًا عليه حسابهم واصبر فناصرك الإمام الناصـر[1]

يتضح من ذلك بأن الخليفة العباسي لم يكن راضيًا على ما يحصل في بلاد الشام من نزاع بين أبناء البيت الأيوبي، لذلك استقبل الخليفة الناصر شكوى الملك الأفضل؛ ولكن لم يفعل شيئًا، بسبب ما كانت تعانيه الخلافة العباسية بعد تخلصها من الدولة السلجوقية، وصراعها من الدولة الخوارزمية.

- **صراع الأفضل وعمه العادل على ملك مصر**

بعد أن توفي الملك العزيز سنة "595هـ/ 1198م"، عقد الأمراء العهد لابنه ناصر الدين، ولقب بالملك المنصور، وأخذوا له الأيمان؛ ولكن الأمير فخر الدين جهاركس[2] رأى أنه لا بد من كبير من أهل البيت، يربيه، ويدير أمره[3]، فأرسل إلى العادل وهو يحاصر ماردين، يستدعيه لتدبير أمر البلاد، في المقابل قام بعض الأمراء بمراسلة الأفضل ليملك مصر، فسار من صرخد متنكرًا حتى دخل القاهرة، وسيطر على السلطة [4].

واتحد الملك الظاهر مع أخيه الأفضل، واتفقا على إخراج عمهما من دمشق، فأرسل الظاهر لأخيه "أخرج عمّنا من بيننا، فإنّه لا يجيء علينا منه خير، وأنا أعرف به منك، وأنا زوج ابنته"[5]، وأرسل إليه بأن يستغل فرصة إنشغال الملك العادل بحصار ماردين فما كان من الأفضل إلا أن استجاب لأخية، واتفق الأخوان للسيطرة على أملاك العادل في الشام[6].

---

(1) النويري، نهاية الأرب (87/29)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (124/45)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (ص2، ص109)؛ ابن حجة، طيب المذاق من ثمرات الأوراق (ص25).

(2) فخر الدين جهاركس: هو فخر الدين سركس، ويقال له جهاركس أحد أمراء الدولة الصلاحية. ابن كثير، البداية والنهاية (63/13).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (446/4).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (255/10).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (242/10)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (11/42).

(6) ابن واصل، مفرج الكروب (3/98-99).

اتحد معهم أسد الدين شيركوه الثاني، واتجهوا نحو دمشق، فلما علم العادل بذلك ترك ابنه الكامل[1] على ماردين، وسار مسرعًا إلى دمشق، وأخذ يحريض الظاهر ضد أخيه، فأرسل للظاهر غازي " أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان وتكون دمشق لك لا للأفضل"، فطمع الظاهر، وأرسل لأخيه على أن تبقى مصر تحت سلطة الأفضل، أما دمشق تكون من نصيب الظاهر، فبين له الأفضل بأن دمشق من نصيبه أيام أبيه، وأنها أخذت مني غصبًا[2]، وبذلك نجد أن الملك العادل قد نجح في زرع بذور الانشقاق بين الأخوين، وأخذ يفكر في السيطرة على مصر، فقام بمراسلة أتباعه في الشام يستدعيهم للذهاب إلى مصر[3].

وبعد أن فشل الأخوان الأفضل، والظاهر في تملك دمشق عاد كلٌ منهما إلى بلده، وما إن وصل الأفضل بلبيس وأقام بها، كان العادل قد قاد العسكر يريد مصر، ووصل عسكر العادل سنة "596هـ/1199م"، فسار عن بلبيس، والتقى بعسكر الأفضل، فانتصر العادل، ودخل القاهرة ليلًا، وأرسل إليه" أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة؛ لأنها أعظم معاقل الإسلام، ولا تحوجني إلى أخذها بالسيف، واذهب إلى صرخد، وأنت آمن على نفسك"[4] وكان الأمراء قد تخاذلوا في الوقوف مع الأفضل، فأرسل رسولًا إلى عمه يطالبه بالصلح، وتسليم البلاد إليه، وأخذ العوض عنها، وطلب دمشق، فلم يجبه العادل، فنزل عنها إلى حران، والرها فلم يجبه، فنزل إلى ميافارقين، فأجابه إلى ذلك، ودخل العادل القاهرة[5].

قام العادل بضبط أمور القاهرة حتى استقر أمره بها، فقام بقطع خطبة الملك المنصور بن الملك العزيز، وخطب لنفسه[6]، وسيطر على السلطة العليا للدولة الأيوبية في مصر، فكان في ذلك الوقت من يسيطر على مصر يعد سلطان الدولة الأيوبية، إلا أن الأمر في مصر قد صعب، فقد انتشرت المجاعات، وتزايدت الأسعار، وعظم الغلاء حتى أكل الناس الميتة، واستمر البلاء ثلاث سنين متوالية، حتى خلت القاهرة من سكانها، ولم يبق بمصر عامر إلا

---

(1) الكامل: الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل. ابن تغري، النجوم الزاهرة (299/6).

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (149/6).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (257/10-258).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (309/28).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (265/10-266)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (455/4)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (309/28-310)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (391/5).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (265/10-266).

شط النيل[1]، وفي عام "597هـ/1200م" وقعت زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة، وبلاد الروم، والعراق، وكانت الزلزلة شديدة على الناس، فمات أمم لا يحصون، ولا يعدون[2].

لم يدم استقرار العادل مصر، فقد خالفه بعض الأمراء، وطلبوا من الأفضل أن يقصد دمشق، كي يخرج الملك العادل من مصر، ويقوم الأمراء بتسليمها للأفضل[3]، لكن الملك العادل كشف خططهم، فأرسل لولده الكامل بدمشق يأمره بمحاصرة الأفضل بصرخد، لذلك اتحد الأفضل وأخيه والظاهر، وجمع العسكر فملك منبج، وقلعة نجم، ثم ساروا نحو حمص، ومنها اتجهوا إلى دمشق، واتفق الأخوان أنهم إذا ملكوا دمشق تكون بيد الأفضل، ويسيرون إلى مصر، فإذا ملكوها يتسلم الظاهر دمشق، فيبقى الشام جميعه له، وتبقى مصر للأفضل[4].

اتجه الملك العادل من مصر إلى الشام، وسير عسكرًا إلى دمشق ليحفظها من جيش الأفضل، وهاجم جيش الأفضل دمشق، واشتد القتال فيها، حتى كاد أن يملكها؛ ولكنه وقع الخلاف مرة أخرى بين الأخوين، وكان الظاهر قد طمع بدمشق، فاختلف الأخوان، وطلب الأفضل الصلح من عمه، فترددت الرسل بينهم، واستقر الصلح على أن يكون للظاهر منبج، وأفامية، وكفر طاب، وقرى معينة من المعرة، ويكون للأفضل سميساط[5]، وسروج، ورأس عين[6]، ورحلوا عن دمشق بداية سنة "598هـ/1202م"[7]، وبذلك استطاع الملك العادل أن يسيطر على مصر، ودمشق بحيلته ودهائه، ونجح في امتلاك أكبر قدر ممكن من الشام، حيث تخلص من الأفضل بإعطائه إقطاعًا ثانويًا، وكان موت العزيز سببًا آخرًا ساعده على الانفراد بالسلطنة[8].

---

(1) المقريزي، السلوك (269/1).

(2) ابن كثير، البداية والنهاية (28/13).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (269/10).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (269/10-270)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (391/5).

(5) سميساط: هي مدينة على الفرات من الجانب الشامي. الاصطخري. المسالك والممالك (ص25).

(6) رأس عين: وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر. الحموي، معجم البلدان (14/3).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (270/10-271)؛ المقريزي، السلوك (268/1).

(8) سمير فرج، الدولة الأيوبية (ص 168-169).

وعلى أثر الاختلاف بين الأخوين، طمع الملك الظاهر في ملك أخيه الأفضل، وطلب منه قلعة نجم، مقابل شفاعة العادل له، وإعادة ما أخذ منه، فرفض الأفضل، وطلب منه أن يعوضه قرى أو مالًا، فقام الظاهر بالسيطرة على قلعة نجم، وسروج، فلم يبق للأفضل سوى سمسياط، فاستنجد الأفضل بالسلطان ركن الدين سليمان[1] يبذل له الطاعة، وأن يكون في خدمته، ويخطب له، ويضرب السكة باسمه، مقابل الوقوف في وجه أخيه، وعمه، فأجابه ركن الدين، وأرسل له خلعة، فلبسها الأفضل، وخطب له بسميساط سنة "600هـ/ 1204م"[2].

وما أن انتهى الملك العادل من توحيد المملكة تحت سلطته بالسيطرة على الشام، ومصر، وبلاد الجزيرة سير للخليفة العباسي الناصر لدين الله وفدًا بقيادة أستاذ داره الأمير أيلذكر العادلي[3]، وقاضي العسكر نجم الدين خليل[4] من أجل اعتراف الخليفة به كسلطان على الشام، ومصر، والجزيرة، فلما وصلا بغداد أكرمهما الخليفة، وسير الشيخ شهاب الدين السهروردي[5] ومعه التشريف، والتقليد للعادل، وخلع على أبناء العادل: المعظم[6]، والأشرف[7]، والكامل، وخلع على الأمراء في الشام، ومنهم: الملك الظاهر[8].

دخل الشيخ السهروردي مدينة حلب فدفع إليه الملك الظاهر ثلاثة آلاف دينار، وبعث إليه الملك المنصور من حماة مبلغًا من المال، ودخل السهروردي دمشق، وقام بتقليد الملك العادل على ما بيده من البلاد، وخلع عليه عمامة سوداء بطراز ذهب، وطوق ذهب بجوهر ثقيل، وسيفًا محلى بالذهب، ونشر أعلام الخلافة مكتوب عليها ألقاب الخليفة، وخلع أيضًا رسل

---

(1) ركن الدين سليمان: هو السلطان ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان السلجوقي صاحب بلاد الروم توفي سنة(603هـ/1206م) . الذهبي، سير أعلام النبلاء(21 /428).

(2) ابن الاثير، الكامل في التاريخ (283/10)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (380/1).

(3) أيلذكر العادلي: هو الأمير شمس الدين إيلدكز العادلي. ابن تغري، النجوم الزاهرة (165/6).

(4) نجم الدين خليل: الشيخ نجم الدين خليل بن علي بن الحسين الحموي الحنفي الفقيه قاضي العسكر. ابن تغري، النجوم الزاهرة (348/6).

(5) السهروردي: أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكري الملقب شهاب الدين السهروردي. ابن خلكان، وفيات الأعيان (446/3).

(6) المعظم: الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل بن أيوب. ابن خلكان، وفيات الأعيان (18/2).

(7) الأشرف: الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل. الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس (440/1).

(8) الذهبي، تاريخ الإسلام (271/44)؛ المقريزي، السلوك (283/1).

الخلافة الخلع على الأشرف، والمعظم، أبناء الملك العادل[1]، ولقب الخليفة الملك العادل "بشاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين" ثم سار السهروردي إلى مصر، فخلع على الملك الكامل خلعة الخليفة، ثم عاد إلى بغداد[2].

يرى الباحث هنا بأن الخلافة العباسية كان لها دورٌ دبلوماسيٌ بارزٌ في حل النزاع بين أبناء البيت الأيوبي، وذلك من خلال تأيدها للملك العادل على خصومه من ابناء أخيه السلطان صلاح الدين فقد قامت الخلافة عدة مرات بإرسال للملك العادل الهديا والتحف ودعمه في توحيد البلاد وتنصيب نفسه سلطانا على مصر والشام يحكمها يأسم الخلافة العباسية، فبعد ان تمكن حصل النزاع بين الملك العادل، وأبناء أخيه السلطان صلاح الدين، فلم يكن للخليفة دور في الملك العادل من البلاد قام الخليفة العباسي الناصر لدين الله بإرسال إليه الوفود الدبلوماسية مرة تلو الأخرى لتهنئته بالسلطنة على مصر، والشام، وتقديم إليه الهدايا، والتحف، وتقليده على البلاد التي تحت حوزته[3].

- **نزاع أبناء الملك العادل على السلطنة**

كان العادل قد أصبح سلطانًا على الشام، ومصر، والعراق، وبعض المدن المجاورة بناءً على مرسوم الخليفة الذي ينص على جعله سلطانًا على البلاد، لذلك توسعت مملكته فقام بتقسيمها قبل وفاته بين أولاده، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية، أما الملك المعظم فقد كان من نصيبه بلاد الشام، وحكم الملك الأشرف بلاد الجزيرة، والملك الأوحد ميافارقين، والمنطقة المجاورة لها، وكان يتردد بينهم، وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى إلى أن توفي سنة "615هـ/ 1218م"[4]، وكان قد ثبت كلٌ منهم في المملكة التي سيطر عليها فتره حياة أبيه، واتفقوا على أن يبقى كلًا منهم على ما بيده من البلاد زمن أبيهم الملك العادل[5].

واتفق الأخوة على محاربة الصليبيين سنة "623هـ/ 1226م"، حيث كانت قد سارت الحملة الصليبية الخامسة على دمياط؛ ولكن بعد هزيمة الصليبيين، ومفارقتهم لمصر، عاد كل

---

(1) المقريزي، السلوك (283/1)؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة (165/6).

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (384/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (271/44)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (123/2)؛ القلقشندي، مآثر الأناقة (59/2)؛ المقريزي، السلوك (284/1).

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (384/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (271/44)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (123/2)؛ القلقشندي، مآثر الأناقة (59/2)؛ المقريزي، السلوك (284/1).

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان (75/5–78)؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة (162/6–165).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (394/10).

منهم إلى بلاده، إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم نتيجة زيارة الملك الأشرف إلى أخيه الكامل بمصر، دون علم أخيهم المعظم الذي غضب منهم، وقام بمحاصرة حماة التابعة للأشرف، فأرسل إليه الكامل من مصر أن يرحل عنها[1]، وبذلك بدأت بذور الشقاق، والنزاع بين الأخوة، وأخذ كلٌ منهم يسعى للمحافظة على ما بيده من البلاد، والسيطرة على البلاد التي تجاور مملكته، فاتحد الملك المعظم، والمظفر غازي[2]، واتفقا على قصد بلاد الملك الأشرف [3].

كذلك قام الملك المعظم بالاتفاق مع أكبر قوة خارجية ألا وهي الدولة الخَوَارزمية، حيث راسل خوارزم شاه جلال الدين منكبرتي[4]، واتحد معه ضد أخوته، لذلك قام الملك الأشرف بمراسلة دولة سلاجقة الرُّوم لتخوفة من الدولة الخوارزمية، فحالف سُلطانها كيقباذ، حتى أصبحت هناك قوتين كبيرتين: الأولى مع الملك المعظم، وأكبر قوة فيه الدولة الخوارزمية، ومعهم حاكم إربل، حاكم آمد، والمظفر غازي، وأما الحلف الثاني فهو الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف، وبدر الدين لؤلؤ[5] صاحب الموصل، وانضمَّ إليهم كيقُباد سلطان سلاجقة الروم[6]، بدأ التحرك لحلف المعظم بإعلان المظفر غازي العصيان على الملك الأشرف في خلاط، فسار الملك الأشرف وحاصره، وأنزله من قلعتها بالأمان، فاستردها منه، وأبقى عليه ميّافارقين فقط[7].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (468/10-469).

(2) الملك المظفر: الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل حاكم ميافارقين وخلاط. الذهبي، شذرات الذهب (233/5)

(3) ابن الأثير ،الكامل في التاريخ (441/10).

(4) جلال الدين منكبرتي: جلال الدنيا والدين أبو المظفر منكبرتي بن السلطان محمدابن تكش خوارزم شاه ناصر أمر المؤمنين. الحموي، التاريخ المنصوري (ص70)

(5) بدر الدين لؤلؤ: هو الملك الرحيم السلطان بدر الدين أبو الفضائل لؤلؤ الأرمني النوري الأتابكي مملوك نور الدين أرسلان شاه ابن السلطان عز الدين مسعود صاحب الموصل. الذهبي، سير أعلام النبلاء (356/23).

(6) كيقُباد: علاء الدين كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان بن طغرل السلجوقي. العصامي، سمط النجوم العوالي (70/4).

(7) ابن العديم، زبدة الحلب (ص468)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (82/29).

سارع الخليفة العباسي الظاهر بأرسال وفدًا دبلوماسيًا بقيادة محيي الدين بن الجوزي[1] لملوك بني أيوب سنة "623هـ/ 1226م"، وذلك لتفقد البلاد، وتقليد كل أمره على ما هو عليه، فخلع على الأشرف موسى، ثم خلع على العزيز ابن الظاهر عباءة سوداء، وعمامة سوداء مذهبة، وخلع على المعظم عيسى بدمشق، وسار إلى مصر، فقلد الملك الكامل عليها، ولبس خلعة الخليفة[2]، ولقب الملك الكامل في التقليد " بالملك الأجل، السيّد الكامل، المجاهد، المرابط، نصير الدّين، ركن الإسلام، أثير الإمام، جمال الأنام، سند الخلافة، تاج الملوك والسّلاطين، قامع الكفرة والمشركين"[3]، وهنا أكد الخليفة من خلال التشريفات، والخلع رضاه على سلطان مصر الملك الكامل، وعلى أمراء المدن في الشام والجزيرة.

أرسل الخليفة من خلال وفده الذي اتجه إلى الشام للإصلح بين أبناء الملك العادل، وأرسل الخليفة رسالة خاصة للملك المعظم عيسى يحثه على التراجع عن تحالفه مع خوارزم شاه منكبرتي، وأن يصطلح مع إخوته، فبين المعظم للرسول بأن أخوته اتفقوا ضده، وبين بأن اتحاده مع خوارزم شاه جلال الدين منكبرتي بسبب طمع أخوته به، وردهم عنه[4]، وكان الخليفة يريد من ذلك إضعاف جبهة الدولة الخوارزمية التي كانت تريد السيطرة على بلاد العراق، وجعل الخليفة العباسي تابعًا لها.

وبعد أن فشل رسل الخليفة من إيقاع الصلح بين أبناء الملك العادل، أخذ الملك الكامل يبحث عن قوة عسكرية جديدة لحماية سلطانه من أخيه المعظم عيسى، فقام بالاتحاد مع أعداء الإسلام الصليبيين، فقام بمراسلة الإمبراطور الالماني فردريك الثاني، ووعده أن يعطيه القدس، وذلك لصد أخيه المعظم، وكان الملك المعظم قد اتحد أيضا مع خوارزم شاه جلال الدين منكبرتي عدو الخلافة العباسية في تلك الفترة، واتفقا أن يخطب المعظم لخوارزم شاه في البلاد له، ويضرب السكة باسمه، فسير إليه جلال الدين خلعة لبسها، وشق بها دمشق وذلك

---

(1) محى الدين بن الجوزي: محي الدين بن الجوزي الصاحب العلامة سفير الخلافة أبو المحاسن يوسف بن الشيخ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد التيمي البكري البغدادي الحنبلي أستاذ دار المستعصم بالله. الذهبي، شذرات الذهب(286/5).

(2) المقريزي، السلوك (343/1).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (50/45).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (89/29).

"624هـ/1227م"[1]، ومن الواضح أن الأخوين قد بذلا كل الجهد من أجل السيطرة على الحكم، والبقاء في السلطنة، حتى ولو استعانوا بالأعداء ضد بعضهم البعض.

ويبدو أن مؤسسة الخلافة سلكت مسلكًا دبلوماسيًا لا يكلفها كثير من الجهد، فالتزمت الصمت، أمام هذا الصراع، وانتظرت خروج المنتصر لترسل إليه التشريفات، والخلع، ليعلن الولاء والطاعة للخلافة العباسية، ويأتمر بأمرها فيما بعد، ومن المرجح أن الخلافة اختارت هذه الطريقة في العمل في هذه المرحلة بالذات لكونها تعاني من ضعف شديد، وقلة الإمكانيات بسبب كثرة حروبها المتواصلة من الدولة الخوارزمية[2].

وعندما توفي الملك المعظم عيسى، وتم تولية ابنه الملك الناصر داود[3] من بعده[4]، قام الملك الكامل بقيادة عسكره، واتجه به يريد الشام؛ ليتخلص من خصومه، فاستنجد الناصر داود بعمه الأشرف الذي سار إليه، وانتزع دمشق لنفسه من الناصر، وأرسل للكامل" أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعة له، وموافقة لأغراضه"، وشفع للناصر، وطلب منه إبقاء دمشق له، حيث قال: "إنا كلنا في طاعتك ولم نخرج عن موافقتك"، فأكرم الملك الكامل الرسول، وقال له :"إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر، واحفظ أنت البلاد"، ونزل إلى تل العجول، فترددت الرسل، وسار الأشرف بنفسه إلى الكامل واتفقا على حماية الشام من الصليبيين، وذلك سنة "625هـ/ 1228م"[5].

وبناء على ما تم الاتفاق بين الأخوين الأشرف، والكامل، استلم الملك الناصر داود الكرك والغور، وبيسان[6]، ونابلس، وقلعة صرخد وأعمالها، وتسلم الملك الأشرف دمشق مقابل أن يسلم للكامل: حران، والرها، والرقة، وسروج، ورأس عين من الجزيرة، ودخل الأشرف دمشق سنة "626هـ/1229م" وأقام بها، وسار الكامل إلى بلاد الجزيرة، وعندما حاصر خوارزم شاه جلال الدين منكبرتي مدينة خلاط، استدعى الكامل أخاه الأشرف لمواجهة جلال الدين، وعاد إلى

---

(1) المقريزي، السلوك (345/1).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (444/10-445).

(3) الناصر داود: هو السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن السلطان الملك المعظم عيسى ابن العادل.ابن خلكان، وفيات الأعيان (141/7).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (474/10).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (479/10)؛ المقريزي، السلوك (349/1-351)؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة (272/6).

(6) بيسان: قرية من الأردن بغور الشام. الإصطخري، المسالك الممالك(ص24).

مصر[1]، وبذلك يتضح بأن السلطان الكامل لم يسلم دمشق لأخيه الأشرف إلا بعد أن استلم بلاد الجزيرة، وكان المراد من ذلك السيطرة الكاملة على مقاليد الحكم في مصر، والجزيرة، والسيطرة على الشام.

يمكن القول هنا بأن الملك الكامل حاول السيطرة الكاملة على البلاد التي كان تحت سلطة أبيه من قبل؛ لكنه لم يتمكن بسبب وقوف أخوه الأشرف، والملك المجاهد شيركوه الثاني مرة أخرى ضده، بسبب رفض الملك الكامل طلب أخيه بضم الرقة إلى أملاكه[2].

أخذت الخلافة العباسية كالمعدات تنتظر بروز الملك الأقوى على الساحة، وتقديم إليه الهدايا، والتحف فبعد أن استطاع الملك الكامل التخلص من خصومه، واستقرار البلاد التي تحت حكمه قام الخليفة العباسي المستظهر بالله تقديم إليه الخلع، والهدايا، وتقليده على البلاد التي تحت بحوزته على أن يحكمها باسم الخلافة العباسية، وكان الخليفة قد ميز الملك الكامل بزيادات كثيرة لم تفعل في حق غيره من الملوك، وكذلك قدم رسول الخليفة الخلع للملك الأشرف كبقية الأمراء، وكان ذلك سنة "628هـ/1231م" [3].

خرج الملك الكامل من القاهرة سنة "629هـ/1231م"، ليتفقد البلاد فسار إلى الشوبك، والكرك، ومنها إلى دمشق، ومعه الناصر داود بعساكره، وأقام بدمشق يسرح العساكر، وجعل في مقدمتها ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[4] ، فجاءه رسل الخليفة المستنصر، وألبسه الملك الكامل خلعة السلطنة، وكان عنده رسل عديدة من البلاد الأخرى، ومنهم رسل الدولة الخوارزمية، ورسول دولة الكرج، ورسل من حماة، وحمص، ورسل من بلاد الهند ورسل من قبل الصليبيين، ورسل قد أتوا من بلاد الأندلس حتى بين المقريزي بأنه "لم تجتمع هذه الرسل عند ملك في يوم واحد قط غيره"[5].

وفي عام "633هـ/ 1236م" اتجه الملك الكامل بعساكره من القاهرة يريد السيطرة على بلاد الجزيرة، فسيطر على الرها، وحران، ثم اتجه إلى دنيسر فملكها، فورد عليه الخبر بأن

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (482/10).

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام (11/46).

(3) المقريزي، السلوك (364/1).

(4) الملك الصالح أيوب: هو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل. الذهبي، العبر في خبر من غبر (193/5).

(5) المقريزي، السلوك (365/1).

المغول قد وصلوا إلى سنجار، فسيطر على بلاد الجزيرة، وسلمها لابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب الثاني، وعاد إلى دمشق[1].

كان الملك الكامل مطيعًا للخليفة العباسي، وما يدل على ذلك أنه عندما سار الناصر داود إلى الخليفة المستنصر بالله شاكيًا من الملك الكامل الذي أخذ الكرك منه، قام الخليفة بإكرامه، وخلع عليه الخلع، وقام بإرسال معه رسولًا من خواصه إلى الكامل يشفع فيه، فلما وصل الرسول إلى الكامل تلقاه، وقبل الشفاعة[2].

وعندما توفي الملك الأشرف موسى تولى الأمر من بعده أخوه الملك الصالح إسماعيل [3] على حكم دمشق، فأرسل ابنه المنصور إلى الجزيرة، للسيطرة على سنجار، ونصيبين والخابور، وتم تكوين حلفًا جديدًا مناهضًا، ومخالفًا، للملك الكامل، فقام الكامل على رأس عسكره، وسار بهم إلى الشام، ومعه الناصر داود سنة "635هـ/ 1238م"، للتخلص من خصمه وكان يريد دمشق، فنزل إليها، وحاصرها[4].

نجد هنا بأن الخليفة العباسي لم يكن راضيًا على الخلاف الذي حصل بين أبناء الملك العادل على السلطنة، فبرز دوره الدبلوماسي في حل النزاع بينهم بأن أرسل مبعوثه الشيخ محيي الدين بن الجوزي؛ وذلك لإصلاح الأمر بينهم، وبالفعل وقع الاتفاق، والصلح على يديه على أن الملك الكامل أقر ما بيد أخيه الملك الصالح إسماعيل بُصرى، والسواد، وأعطاه بعلبك وأعمالها، وتسلم الملك الكامل دمشق[5]، وما أن دخل دمشق حتى أصيب بمرض، وتوفي على أثره [6].

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية (144/13).

(2) المقريزي، السلوك (373/1).

(3) الصالح إسماعيل: الملك الصالح عماد الدين إسماعيل المعروف بأبي الخيش ابن الملك العادل ابن أيوب. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (125/10).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (420/1).

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (147/29)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (420/1).

(6) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (421/1)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (149/13).

- **نزاع السلطان الصالح نجم الدين أيوب على السلطنة مع أخيه العادل**

نشأ الملك الصالح أيوب في القاهرة، وقد ولاه أبوه مصر سنة "625هـ/1228م"، حينما كان متجهًا على رأس جيش إلى بلاد الشام، وأركبه بشعار السلطنة[(1)]؛ ولكن سرعان ما دبرت زوجة السلطان الكامل مكيدة من أجل التخلص من الصالح، وجعل ابنها العادل سلطانًا على مصر، حيث أرسلت للكامل في الشام، وأبلغته بأن ابنه يريد السيطرة على مصر، والخروج عن طاعته، فعاد إلى مصر، وعزل الصالح نجم الدين أيوب عن ولاية العهد[(2)]، ومال إلى ولده العادل[(3)]، في حين عين ابنه الملك الصالح أيوب على بلاد سنجار، وأمد، وحصن كيفا، وذلك عام "630هـ/1232م"[(4)]، ثم جعله نائبًا عنه في بلاد الجزيرة كلها عام "633هـ/1235م"[(5)].

وعند وفاة الكامل سنة "635هـ/1238م" كان ابنه الصالح أيوب في الرحبة، فلما انتشر خبر وفاته، طمع فيه الخوارزمية، وخرجوا عن طاعته، فقصد سنجار، وامتنع بها مدة، وترك خزائنه وأثقاله، فنهبها الخوارزمية، وتحكموا في بلاد الجزيرة [(6)]، وكان الملك الكامل قد ترك ابنه العادل بالديار المصرية، ودمشق، وللصالح أيوب بلاد الجزيرة، واتفق الأمراء على تولية السلطنة في مصر والشام للملك العادل، وحكم الملك الجواد[(7)] دمشق باسم العادل، وحكم الملك الصالح بلاد الجزيرة، وديار بكر باسم أخيه العادل[(8)].

واستقر الأمر للسلطان الملك العادل الثاني بسلطنة مصر، ودمشق، وخطب له بالقاهرة، ومصر، وضربت السكة باسمه، ونقش الدينار، والدرهم باسمه، وهنا أرسل الخليفة رسوله الشيخ

---

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (96/29)؛ المقريزي، السلوك (349/1). ابن تعزى بردي، النجوم الزاهرة (319/6).

(2) المقريزي، السلوك (360/1)؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين (ص26).

(3) المقريزي، السلوك (365/1)؛ ابن العميد، أخبار الأيوبيين (ص26).

(4) العصامي، سمط النجوم العوالي (16/4)؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر(193/5)؛ ابن تعزى بردى، النجوم الزاهرة (303/6).

(5) ابن العميد، أخبار الأيوبيين (ص27).

(6) المقريزي، السلوك (384/1).

(7) الملك الجواد: الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل. ابن خلكان، وفيات الأعيان (83/5).

(8) العصامي، سمط النجوم العوالي (16/4)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (149/29)؛ ابن تعزى بردي، النجوم الزاهرة (303/6).

محيي الدين بن الجوزي، برسالة الخليفة بالتعزية للملك العادل بأبيه، والتهنئة له بالملك، واستحلفه للخليفة(1).

وفي عام "636هـ/1239م" جهز الملك العادل جماعة من الأمراء، والعسكر المصري ليأخذ دمشق، وقدم الملك العادل إلى الملك الجواد نائبه على دمشق رسولًا بكتاب يعطيه قلعة الشوبك، وبلادها، وثغر الإسكندرية، وأعمال البحيرة وقليوب، وعشر قرى من بلاد الجيزة بديار مصر، لينزل عن نيابة السلطة بدمشق، ويحضر إلى قلعة الجبل، فتخوف الملك الجواد من القبض عليه بمصر، فامتنع من تسليم دمشق، وأرسل الملك الصالح أيوب يطلب منه أن يتسلم دمشق، ويعوضه عنها بسنجار، والرقة، وعانة، فأجاب إليه(2)، وحلف له على الوفاء، وعين الملك الصالح ابنه على بلاد الجزيرة، وألزمه بحصن كيفا، وأقام نوابًا بآمد، وديار بكر، وسلم حران، والرها، وجميع البلاد للخوارزمية، وطلب نجدة من الأمير بدر الدين لؤلؤ، وسار إلى دمشق، وكان الملك الجواد قد خطب له، وضربت السكة باسمه، ودخل الصالح إلى دمشق ومعه الجواد، وكان دخوله يومًا مشهودًا، فاستقر في قلعة دمشق(3).

وقد حقق الملك الصالح أيوب الحلم الذي كان يسعى من أجله، وهو الوصول إلى الحكم، وتعد هذه الخطوة؛ هي الخطوة الأولى التي ساعدته في الوصول إلى الحكم، وبذلك أصبح الملك العادل قلقًا من ناحية أخيه لأنه كان أكبر سناً وأحسن سيرة، وأعظم هيبة، وأجدر بالقيام بأعباء الدولة(4).

فلما استقر الملك الصالح أيوب بدمشق كاتبه الأمراء المصريون يستدعونه إلى تملك مصر، فخرج من أمراء مصر سبعة عشر أميرًا في عدة كبيرة من أتباعهم، وأجنادهم، وساروا يريدون الملك الصالح بدمشق، واضطربت مصر اضطرابًا زائدًا، وسار الناصر داود إلى الملك العادل بالقاهرة، ليعينه على محاربة أخيه الملك الصالح، وفي تلك الفترة قدم من بغداد وفدًا على رأسه محي الدين بن الجوزي حاملًا رسالة من الخليفة إلى الملك الصالح أيوب، للتصالح مع

---

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (153/29).
(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (422/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (339/47).
(3) المقريزي، السلوك (390/1-391).
(4) ابن واصل، مفرج الكروب (207/5).

أخيه الملك العادل الثاني[1]، على أساس أن تكون دمشق وبلادها للصالح نجم الدين، ويرد إلى الناصر ما أخذ منه، وتكون الديار المصرية للملك العادل، ويتفق الجميع على ذلك[2].

وفي الوقت نفسه كانت الأمراء في مصر تحرض الملك الصالح أيوب بالسيطرة على مصر، وأنهم متفقون على طاعته[3]؛ لكنه كان طامعًا باستعانة عمه الصالح إسماعيل ضد أخيه، إلا أن الصالح إسماعيل غدر به، وامتلك دمشق لنفسه بمساعدة شيركوه الثاني سنة "537هـ/1239م"، ولما استقر بقلعتها أقام الخطبة للعادل، ثم لنفسه[4]، لذلك ضعف شأن الصالح أيوب، وتركه أمراؤه، فرجع خائبًا إلى نابلس، واعتقل بها على يد الناصر داود، ونقله إلى الكرك[5]، فلما علم العادل أرسل للناصر، وطالب بتسليمه له مقابل إعطائه مبلغًا من المال، فرفض الناصر طلبه رغم تهديد العادل له سيقصد بلاده[6].

وقد وصل رسول الخليفة محيي الدين بن الجوزي في العام نفسه، ومعه الخلع من قبل الخليفة إلى السلطان الملك العادل، ولولده، ووصلت الخلع أيضًا للأمراء، وكانت جملة الخلع ثماني عشرة خلعة، وسير للسلطان مع خلعته فرس له سرجٌ مشغول بالذهب، وعلمان، وسيفان، تقلد بهما عن اليمين والشمال، فلبس السلطان الخلعة بظاهر القاهرة [7].

وأصبح أبناء الملك الكامل يحلمون في السيطرة على الدولة الأيوبية، ويخطب لهم على منابرها في البلدان الإسلامية، وانقسم الأمراء بين العادل، والصالح، وكل ذلك من أجل السيطرة، وفرضت الضغوط على الأمراء المحليين، وإقامة الخطبة باسم السلطان الذي يسيطر على الحكم في مصر.

وما أن علم الخليفة بالخلاف الذي حصل بين العادل، والناصر داود حتى أرسل مبعوثة محيي الدين بن الجوزي للإصلاح بينهم؛ لكن محاولته باءت بالفشل بسبب تصميم الناصر داود

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (423/1).

(2) ابن واصل، مفرج الكروب (218/5) ؛ المقريزي، السلوك (395/1).

(3) المقريزي، السلوك (391/1-392).

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام (46/32-36).

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (171/29-172)؛ ابن تعزى بردي، النجوم الزاهرة (308/6).

(6) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، (423/1)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (154/13)؛ المقريزي، السلوك (398/1).

(7) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (166/29-167).

على استرداد أملاك أبيه، فقام بفك قيد الصالح، وأطمعه في ملك مصر، واتفق معه على أن تصبح نصف خزائن الديار المصرية، والشام، والجزيرة للناصر[1]، حيث ذكر الذهبي انه جاء على لسان الصالح أيوب أنه قال: " حلفني الناصر على أشياء، ما يقدر عليها ملوك الأرض، وهو أن آخذ له دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، والجزيرة، والموصل، وديار بكر، وغيرها، وأن يكون له نصف الديار المصرية، ونصف ما في الخزائن من الأموال، والجواهر، والخيول، والثياب، وغيرها، فحلفت من تحت القهر، والسيف" [2].

ثم أفرج عن الصالح أيوب، واتفق مع الناصر داود على القيام بحملة عسكرية على مصر، والاستيلاء عليها، وقد كانت الظروف مهيأة تمامًا لنجاح حملة الصالح أيوب؛ فكبار أمراء العادل مستاءون منه لاحتجابه عنهم، وانشغاله باللهو، واللعب، فقبضوا على سلطانهم، واستدعوا أخاه الصالح لتولي مقاليد البلاد سنة "637هـ/ 1238م"، وجلس على عرشها[3]، وبدخوله القاهرة زينت مصر، وفرح الناس به لشهامته، وشجاعته، ونزل الناصر داود بدار الوزراة[4].

فما أن استلم الصالح أيوب مقاليد الحكم في مصر، حتى أراد أن يحصل على تقليد شرعي من قبل الخليفة، فأرسل إليه رسولًا يطلب منه تقليدًا بمصر، والشام، والجزيرة، فلبى الخليفة طلبه، وأرسل إليه التشريف، والخلع، وهي: طوق مذهب، فلبس السلطان التشريف، والعمامة، فكان يوما مشهودًا[5]، وبذلك دانت مصر للصالح بعد صراع طويل، واستطاع أن يأخذ تقليدًا من الخليفة بحكم مصر، والشام، والجزيرة.

وقد اتفق الناصر داود معه أن يعطيه بعض البلاد؛ لكن الصالح أيوب رفض ذلك، فسرعان ما اتحد الناصر داود مع عمه الصالح إسماعيل، ومعهم شيركوه، كل هذه الأمور من النزاعات أدت إلى تولد شرارة الحرب بينهم، وكان الصالح إسماعيل قد كاتب الصليبين، واتفق

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب (259/5).

(2) تاريخ الإسلام (34/46).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان (54/1-55)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (153/13-154).

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام (302/47)؛ المقريزي، السلوك (403/1).

(5) ابن تعزى بردي، النجوم الزاهرة (325/6).

معهم ضد الصالح أيوب، فأعطاهم قلعة صفد[1] والشقيف، وصيدا، وطبرية وأعمالها، وجبل عاملة، وسائر بلاد الساحل[2].

وعزم الصالح إسماعيل على قصد مصر، فجهز عسكره، واستنجد بالمنصور حاكم حمص، وحاكم حلب، والصليبيين يطلب منهم النجدات، وسار بالعساكر من دمشق حتى نزل بنهر العوجاء، واستطاع هزيمة الناصر داود في البلقاء، فقوي أمره، واشتدت شوكته، وطالب النجدة من الصليبيين، ونزل إلى تل العجول بغزة[3]، فلما علم الصالح أيوب بحركة عسكر الشام، ومعه الصليبين إلى مصر جرد العساكر إلى لقائه، فاتحد عسكر الشام مع عسكر مصر، وقاتلوا الصليبيين، فهزموهم وأسروا منهم خلقًا لا يحصون، وذلك سنة "639هـ/1241م"، وكانت الخلع قد وصلت إلى الصالح بمصر، فخلع ابن الجوزي رسول الخليفة الخلع على الملك الصالح، فلبسهما، وقلده على البلاد[4].

وفي عام "640هـ/1242م" توفي الخليفة العباسي المستنصر بالله، ابن الخليفة الظاهر بأمر الله، وتولى الخلافة المستعصم بالله ببغداد، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه، وبايعه أولًا بنو عمه، وأهله من بني العباس، ثم أعيان الدولة من الأمراء، والوزراء، والقضاة، والعلماء، والفقهاء، ومن بعدهم أولو الحل، والعقد، والعامة، وغيرهم، وجاءت البيعة من سائر الجهات، والأقطار، والبلدان، والأمصار، وخطب له في سائر البلدان[5].

وكان قد يأس كلٌ من الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل من كثرة الحروب، وترددت بينهم الرسل حتى تم الاتفاق فيما بينهم سنة "641هـ/1243" على الآتي[6]:

- أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل.
- تكون مصر للصالح أيوب.
- يبقى كل من ملك حمص، وحماة، وحلب على ما هو عليه.

---

(1) صفد: قرية بالقرب من طبرية. الحموي، معجم البلدان (412/3).

(2) ابن كثير، البداية والنهاية (155/13)؛ المقريزي، السلوك(407/1).

(3) غزة : مدينة طيبة بين الشام ومصر على طرف رمال مصر. القزويني، آثار البلاد (ص90).

(4) المقريزي، السلوك (403/1-408).

(5) ابن كثير، البداية والنهاية (159/13-161).

(6) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ص 428)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (ص169)؛ المقريزي، السلوك، (ص417).

- تكون الخطبة، والسكة في جميع هذه البلاد للملك الصالح أيوب.
- وأن يطلق الصالح إسماعيل سراح الملك المغيث بن الملك الصالح أيوب من الاعتقال.
- يفرج عن الأمير حسام الدين لؤلؤ[1] من مصر.
- ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الملك الناصر داود[2].

ويعد هذا الاتفاق الذي حصل بين الملك الصالح أيوب، وعمه الصالح إسماعيل خطوة عظيمة في توحيد الكيانات الأيوبية، واعتراف الأمراء الشاميين بسلطنة الصالح أيوب على الديار المصرية[3]، فخطب للسلطان الملك الصالح أيوب بجامع دمشق، وبحمص، وأفرج عن المغيث بن الملك الصالح أيوب، وأركب ثم أعيد إلى القلعة بمشورة من وزير الصالح إسماعيل، حتى يتم بينهما الحلف، وأفرج عن الأمير حسام الدين، واستقر الأمر، وسيطر الصالح على الأمور الداخلية للدولة؛ ولكن الأمر لم يدم طويلًا، فقد وقعت الفتنة بينهم، فاتفق الناصر داود مع الصالح إسماعيل على محاربة الملك الصالح أيوب، واتفقوا مع الصليبيين ضد الصالح أيوب مقابل تسليم القدس لهم، فاستلم الصليبيون القدس، وجلسوا فوق الصخرة بالقدس بالخمر، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى[4]، وحاول الخليفة العباسي المستعصم بالله أن يصلح بينهم، أرسل سفاره سنة "641هـ/1244م" للصلح بين الصالح نجم الدين أيوب، والصالح إسماعيل؛ لكن المحاولة لم تتمكن من تحقيق غايتهما في الصلح[5].

فبرز الصالح أيوب من القاهرة، وكتب إلى الخوارزمية يستدعيهم إلى ديار مصر لمحاربة أهل الشام، فخرجوا من بلاد الجزيرة[6]، سنة "642هـ/1244م"، ووصلوا إلى غزة، وكان مسيرهم على حارم، والسروج إلى أطراف بلاد دمشق، حتى وصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية

---

(1) حسام الدين لؤلؤ: قائد الأسطول المصري، وكان شهمًا، شجاعًا، مقدامًا ميمون النقيبة، خبيرًا بقتال البحر. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (282/28).

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ص 428)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (ص169)؛ المقريزي، السلوك (ص417).

(3) صيدم، جهاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب وجهوده في توحيد مصر والشام(ص43).

(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ص 428)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (169/2)؛ المقريزي، السلوك (417/1).

(5) ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر (352/7).

(6) المقريزي، السلوك (417/1).

مع ركن الدين بيبرس، وأرسل الملك الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم ابن شيركوه، والتقى الفريقان بظاهر غزة، في معركة هربيا (حطين الثانية)، فولى عسكر دمشق والصليبيين منهزمين، وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية، فقتلوا منهم خلقًا عظيمًا، واستولى الملك الصالح أيوب على غزة، والسواحل، والقدس، ووصلت الأسرى، والرؤوس إلى مصر، ثم أرسل الملك الصالح باقي عسكر مصر للشام، فاجتمع العسكر المصري مع الخوارزمية، وساروا إلى دمشق، وحاصروها[1].

واستمر حصار دمشق فتره طويلة، وأثناء الحصار بعث الخليفة بمحيي الدين بن الجوزي إلى الملك الصالح نجم الدين ومعه خلعة، وهي: عمامة سوداء، وفرجية مذهبة، وثوبان ذهب، وسيف مذهب، وطوق ذهب، وعلمان حرير، وحصان، وترس ذهب، فلبس الملك الصالح نجم الدين الخلعة على العادة[2]. وتسلم عسكر الصالح أيوب دمشق من الصالح إسماعيل سنة "643هـ/ 1245م"، مقابل أن تبقى بيده بعلبك، وبصرى، والسواد، وتستقر بيد شيركوه حمص، فأجابهما ابن الشيخ، ووصل إلى دمشق الأمير حسام الدين الذي أصبح نائبًا عليها للسلطان الصالح أيوب[3]، وعاد السلطان إلى مصر، فأرسل الخليفة مع سفيره جمال الدين عبد الرحمن ابن الجوزي خلعة السلطنة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهي: "عمامة سوداء، وفرجية مذهبة، وثوبان ذهب، وسيفان بحلية ذهب، وعلمان، وطوق ذهب، وحصان بعدة فاخرة، وترس ذهب، فلبس السلطان الخلعة بمصر"[4].

وكان الخوارزمية يطمعون أن يحصل لهم بفتح دمشق إقطاعات تكفيهم، فلم يحصل لهم ذلك صاروا مع الصالح إسماعيل، وانضم إليهم الناصر داود، وساروا، وحاصروا دمشق، فقاسى أهلها من الغلاء، وحفظها حسام الدين أتم حفظ[5]، وقام الملك الصالح إسماعيل بمراسلة

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ص 428)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (169/2)؛ المقريزي، السلوك (419/1-421).

(2) المقريزي، السلوك (421/1).

(3) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ص 429)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (170/2)؛ المقريزي، السلوك (423/1-424).

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام (21/47)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (204/29).

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ص429)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (170/2)؛ المقريزي، السلوك (423/1-424).

الخليفة، ليشفع له في الصلح بينه وبين ابن أخيه، فأبى الخليفة ذلك[1]، وبعد رحيل الخوارزمية عن دمشق، أرسل الصالح أيوب من مصر جيشا لقتالهم، فتحالف الخوارزمية، والصالح إسماعيل، وشيركوه، وبيبرس ضد الصالح أيوب، فكانت بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزمية هزيمة شديدة، تبدد فيها شملهم[2]، وحاصر عسكر السلطان الصالح أيوب مدينة حلب، وأثناء الحصار قدم من بغداد الشيخ نجم الدين البادرائي رسولًا من الخليفة المستعصم بالله بالصلح بين الحلبيين، وبين السلطان، فتقرر الصلح على أن تستقر حمص للحلبيين، فأجاب الصالح رأي رسول الخليفة، ورحل العساكر عن حمص بعدما أشرف على أخذها[3].

وقد وصف القاضي الفاضل الخلاف داخل البيت الأيوبي :" أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما في الحيلة تشريقه، وإذا بدأ خريق ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على قدر طريقه، وقد قدر طروقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه"[4].

ويرى الباحث هنا بأن الخليفة المستعصم كان له دورٌ دبلوماسيٌ بارزٌ، حيث نجده قد همش طلب الملك الصالح إسماعيل حين طلب منه أن يشفع له عند ابن أخيه الصالح أيوب، في حين نجد الخليفة لعب دورًا في تخليص حلب من قبضة السلطان الصالح أيوب بأن أرسل إليه وفدًا لحل النزاع بين السلطان، وأهل حلب، فوافق السلطان على طلب الخليفة، وأن موافقة السلطان لطلب الخليفة يعبر عن قوة، ومكانة الدبلوماسية العباسية في حل النزاع الذي حصل في بلاد الشام[5].

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ص429)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (170/2).

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (ص430)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (172/2)؛ المقريزي، السلوك (427/1).

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (211/1)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، (174/2).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (434/4)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (420/3)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (12/42).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (211/1)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، (174/2).

الفصل الثاني
دور الدبلوماسية العباسية في توحيد الجبهة الإسلامية تحت سلطة الخليفة

2.1 المبحث الأول: جهود الدبلوماسية العباسية في التخلص من قيود الدولة السلجوقية والخوارزمية على الخلافة العباسية

2.1.1أولًا: علاقة الخلافة العباسية بالسلاجقة في خراسان وجهودها في التخلص من سيطرة السلاجقة على العراق

لقد لعبت بلاد خراسان دورًا هامًا في تاريخ الخلافة العباسية، فبعد وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه تنافس أبناؤه على السلطنة؛ ولكن في نهاية الأمر وقع الصلح بينهم، وحكم ابنه سنجر بلاد خراسان، وأقام بها مملكة عظيمة يحكمها باسم سلطان العراق السلطان بركيارق ابن ملكشاه، ومن ثم باسم أخيه السلطان محمد بن ملكشاه، وبعد وفاة السلطان محمد سنة "511هـ/ 1116م"، تولى سلطنة العراق من بعده ابنه محمود؛ لكن السلطان سنجر رفض أن ينصاع لحكم ابن أخيه، ورأى أنه أحق بالسلطنة منه، وجلس على كرسي السلطنة في مرو[1]، وأعلن نفسه سلطانًا عليهم[2]، ولقب نفسه بمعز الدنيا والدين، وأراد أن يسير إلى العراق للسيطرة عليها ضد ابن أخيه، وقد أدرك السلطان سنجر أن الوضع قد سمح له للمسير إلى العراق نتيجة الفوضى التي عمت، بها على أثر النزاع على السلطة بين الأخوة محمود، ومسعود، وطغرل[3].

وحاول الأمراء الإصلاح بين السلطان سنجر، وابن أخيه محمود على ألا يسير إلى العراق، وأرسلوا إليه الهدايا، والتحف على أن يدفع محمود له الجزية إلا إن السلطان سنجر رفض ذلك، وقال لهم :"إن ولد أخي صبي وقد تحكم وزيره والحاجب علي"[4]، وكان السلطان سنجر مدركًا بأن الخليفة له دور في تلك الأحداث، فأرسل إليه الهدايا، والأموال، وطلب من الخليفة أن يقره على سلطنة السلاجقة، فما كان من الخليفة المستظهر أن أرسل إليه الخلع[5]، وبذلك تشجع سنجر، وتحرك من خراسان إلى بلاد الري، فالتقى بعسكر ابن أخيه محمود بالقرب من ساوه[6] سنة "513هـ/ 1118م"، واستطاع هزيمته[7]، فأرسل السلطان سنجر دبيس ابن

---

(1) مرو: من أشهر مدن خراسان وأقدمها وأكثرها خيرًا. اليعقوبي، البلدان (21/1)

(2) إقبال، تاريخ إيران (ص275).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (175/9-182).

(4)ابن الأثير، المرجع السابق(183/9).

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان (72/8).

(6) ساوه: مدينة حسنة بين الري، وهمذان في وسط بينها. الحموي، معجم البلدان (179/3).

(7) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (306/1).

صدقة للخليفة العباسي المسترشد للخطبة له ببغداد، فقطعت خطبة السلطان محمود، وخطب باسم السلطان سنجر في العراق(1).

وبعد هزيمة السلطان محمود من عمه عاد إليه طالبًا منه السماح، فعفا عنه عمه، وقبل شفاعته، وتم الصلح بين الطرفين على أن يخطب للسلطان سنجر، ومن ثم للسلطان محمود، وسار السلطان محمود إلى عمه سنجر، وقبل الأرض بين يديه، فخلع عليه عمه، وأكرمه، وأقطعه من حد خراسان إلى الداروم بأقصى الشام(2).

وبذلك أصبح سلطان العراق السلطان محمود تابعًا لعمه السلطان سنجر سلطان خراسان، وأصبحت السلطنة في العراق تابعة لسلاجقة خراسان – لسنجر شاه – ومن ثم يخطب من بعده لسلطان العراق السلطان محمود، وقام السلطان سنجر بوضع أعيان له على المدن التي اقتطعها لابن أخيه حتى تبقي تحت سيطرته المباشرة، حتى كان السلطان محمود لا يفعل شيئًا إلا باستشارة من السلطان سنجر (3).

وبقي السلطان محمود تابعًا لعمه حتى قام الخليفة المسترشد بتحريضه ضد عمه ليستقل بحكم العراق، ولما علم عمه بخطط الخليفة للتخلص منه، وأرسل لابن أخيه أنه " أنت يميني – أي ولي عهدي– والخليفة قد عزم على أن يمكر بي وبك، فإذا اتفقتما علي فرغ مني، وعاد إليك، فلا تلتفت ... ويجب بعد هذا أن تمضي إلى بغداد، ومعك العساكر، وتقول– للخليفة– : أنا سيفك، وخادمك، وأنت تعود إلى دارك على ما جرت به عادة آبائك، ... فإن فعل وإلاّ أخذته بالشدة، وإلاّ لم يبق لك ولا لي معه حكم"(4).

فما كان من السلطان محمود إلا أن سمع قول عمه، واتجه إلى بغداد، وهذا يدل على مدى تبعية سلاجقة العراق للسلطان سنجر في خراسان، وما يؤكد تبعية السلطان محمود لعمه سنجر أن أرسل إليه بهمذان يستدعيه ليتعرف على أحوال العراق، فما كان من محمود إلا أن

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (184/9)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (56/5).
(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأرب (8/27).
(3) محيسن، دولة الأتراك السلاجقة عصر السلطان سنجر (ص67).
(4) ابن الجوزي، المنتظم (231/17)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (308/35).

لبَّى استدعاء عمه، وسار إليه ليثبت لعمه أنه لا زال على العهد[1]، وظل السلطان محمود على الطاعة، والولاء لعمه سنجر حتى وفاته سنة "525هـ 1130م"[2].

وبعد وفاة السلطان محمود تنازع ابنه داود مع عمه مسعود على السلطة، فشب القتال بينهما في تبريز سنة "526هـ/ 1131م"؛ ولكن سرعان ما اصطلحا، وأرسل كلٌ منهم إلى الخليفة المسترشد يطلب الخطبة له في العراق، فأرسل إليهم "إن الحكم في الخطبة للسلطان سنجر، فمن أراد خطب له"[3].

وهذا يؤكد مدى تسلط السلطان سنجر على الحكم في العراق، وانفراد سنجر وحده في السلطنة السلجوقية، وإقرار الخليفة العباسي له بذلك[4]، وبينما كان النزاع قائمًا بين السلطان مسعود وابن أخيه داود، حتى صعد الملك سلجوق شاه بن محمد مطالبًا بالسلطنة، وسار من فارس إلى بغداد، فاستقبله الخليفة استقبال الملوك[5]، لذلك عزم السلطان سنجر على غزو العراق، فما كان من الخليفة المسترشد إلا أن قبل أن تكون الخطبة للسلطان مسعود، وأن يكون سلجوق شاه ولي عهده، وتبقى العراق للخليفة المسترشد، وتحالفوا على ذلك[6].

وكان سبب اتفاقهما أن يتصدوا للسلطان سنجر الذي أراد أن يسير إلى العراق، فاتفقا على المسير لرده، إلا أن الخليفة رفض السير معهم، فأجبره السلطان مسعود المسير معهم، وقال له: "إن الذي تخافه من سنجر آجلًا أنا أفعله عاجلاً"[7]؛ لكن تأخر عنهم الخليفة خوفًا من مسير عماد الدين زنكي إلى بغداد[8]، وفي هذه الفترة قطعت خطبة السلطان سنجر من العراق بأكمله[9].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (247/9).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (247/9).

(3) النويري، نهارية الأرب في فنون الأدب(22/27)؛ اقبال، تاريخ إيران (ص296).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (262/9)؛ محيسن، دولة الأتراك السلاجقة عصر السلطان سنجر (ص91).

(5) عباس، تاريخ إيران (ص296).

(6) ابن واصل، مفرج الكروب (49/1)؛ اقبال، تاريخ ايران (ص296).

(7) النويري، نهارية الأرب في فنون الأدب (23/27).

(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (264/9)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (49/1).

(9) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (264/9).

وقعت الحرب بين السلطان مسعود، وأخيه سلجوق شاه من جهة، وعمهما السلطان سنجر ومعه ابن أخيه الملك طغرل من جهة أخرى، فانهزم عسكر سلاجقة العراق، وانتصر السلطان سنجر، وعلى أثر انتصاره أصدر أوامره بجلوس طغرل ابن أخيه على عرش السلطنة، وأمر بالخطبة له في جميع البلاد، ثم عفا عن ابن أخيه الملك مسعود وذلك سنة 526هـ/1132م[1].

وبذلك نجد أن السلطان سنجر هو من حسم المعركة، وعيَّن طغرل بن محمد على سلاجقة العراق، فقام الملك داود بالعصيان، وطالب بالسلطنة[2]، فتحداه طغرل، واستطاع هزيمته فسار داود إلى بغداد حتى استقبله الخليفة، وأكرمه فلما علم مسعود بهزيمة داود، وسيره إلى بغداد اتجه نحو بغداد، ونزل دار السلطنة، وخطب له على منابر بغداد ولداود بعده[3]؛ وبقي الملك طغرل يطالب بالسلطنة في العراق حتى توفي سنة "529هـ /1234م"، وبذلك استقر الأمر للسلطان مسعود، وجلس على عرش همذان، وبقيت الخطبة له دون منازع[4].

ولكن سرعان ما وقع النزاع بين السلطان مسعود، والخليفة العباسي المسترشد، حيث قام الخليفة بحذف اسم السلطان من الخطبة في بغداد[5]، وكان نتيجة الوحشة بين الطرفين أن قامت الحرب سنة "529هـ/ 1134م"[6]، وكانت نتيجتها هزيمة عسكر الخليفة، وأسره، وقتل على يد الباطنية [7].

ويتضح من ذلك بأن ما حدث بالعراق كان السلطان سنجر يعلم به، وأنه ما يقوم به السلطان مسعود كان يقوم بأمر من سنجر صاحب البيت السلجوقي، وما يؤكد ذلك أن السلطان مسعود أرسل لعمه بأن من يلي الخلافة بعد المسترشد، فأرسل إليه " لا تولِّ إلا من يضمنه

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب (50/1)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (626/3)؛ إقبال، تاريخ إيران (ص297).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (264/9-265).

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (627/3).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (274/9-278).

(5)ابن الأثير، المرجع السابق(9/ 281-282).

(6) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية (ص110).

(7) الكتبي، فوات الوفيات (210/2).

الوزير، وصاحب المخزن، وابن الأنباري[1]"[2]، وهذا ما يؤكد مدى قوة السلطان سنجر، وتأثيره على الأحداث في العراق[3].

وكان السلطان سنجر متسلطًا على البيت السلجوقي في العراق، وخراسان، حتى أمر السلطان مسعود بإصلاح أحوال العراق، وهدد بإزالته عن السلطنة، وسار سنجر إلى الري[4] سنة "543هـ/1149م"، كي يصلح أمور الحكم فيها، فجدد السلطان مسعود العهد لعمه سنجر إلى أن توفي سنة "547هـ/1153"[5]؛ ولكن السلطان سنجر لم يستمر في الحكم، فقد وقع في الأسر نتيجة حروبه مع الغز سنة "548هـ/ 1154م"[6]، وبعد أن وقع السلطان في الأسر ضاعت البلاد ونهبت، واستطاع الغز دخول مرو عاصمة الحكم السلجوقي في خراسان، وكذلك دخلوا نيسابور[7].

وقد استطاع السلطان سنجر الهروب من الأسر سنة "551هـ/ 1156م"؛ لكن بعد فوات الأوان، فقد تدمرت مملكته، وتفرق أمراؤه [8]، وبعد هروبه من الأسر اتجه نحو مرو، وحاول أن يجمع شمله؛ ولكن فات الأوان، فقد نهبت خزينة دولته، والبلاد دمرت من بعده، فأصيب بمرض، وعلى أثره توفي سنة "552هـ/1157م"[9]، وما أن توفي حتى تشتت البيت السلجوقي

---

(1) ابن الأنباري: هو الكاتب محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم بن رفاعة سديد الدولة الشيباني المعروف بابن الأنباري كاتب الإنشاء بالديوان العزيز، أقام بديوان الإنشاء خمسين سنة، وناب في الوزارة في عهد المسترشد. الذهبي، سير أعلام النبلاء (350/20).

(2) ابن واصل، مفرج الكروب (61/1)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء (402/20)؛ محيسن، دولة الأتراك السلاجقة عصر السلطان سنجر (ص97-98).

(3) ابن واصل، مفرج الكروب (61/1)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء (402/20)؛ محيسن، دولة الأتراك السلاجقة عصر السلطان سنجر (ص97-98).

(4) الري: مدينة تقع في الطرف الشمالي الشرقي من إقليم خراسان. الحموي، معجم البلدان (116/3).

(5) اقبال، تاريخ إيران (ص299).

(6) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص193)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (81/5-82)؛ إقبال، تاريخ إيران (ص288).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (385/9-387).

(8)ابن الأثير، المرجع السابق(409/9).

(9) الذهبي، سير أعلام النبلاء (365/20).

وقوي أمر الخليفة العباسي المقتفي، وقد استطاع أن يقطع خطبة سنجر في بلاد الجزيرة والشام، ولم يقم له بيت عزاء في بغداد[1].

أما بالنسبة لسلاجقة الروم فقد كانوا مشغولين في محاربة الصليبيين، ولم يكن لهم أي دور في تاريخ سلاجقة العراق، وخراسان مع الخلافة العباسية، فقد بقيت مهمة ملك سلاجقة الروم ركن الدين مسعود محاربة الصليبيين[2]، وكانت العلاقة في بداية الأمر بين سلاجقة الروم وسلاجقة العراق سيئة للغاية، حتى أنه في عام "500هـ/1107م" أسقط سلطان الروم قلج أرسلان الخطبة للسلطان محمد، وخطب لنفسه بعد الخليفة[3].

أما علاقة سلاجقة الروم بالخلافة العباسية فقد كانت علاقة حسنة ودية، حيث عمد الخليفة إلى تقوية علاقته بسلاجقة الروم عن طريق الزواج السياسي، حيث عقد الخليفة العباسي الناصر على خاتون بنت قَلِج أرسلان بن مسعود بوكالةٍ من أخيها كيخسْرُو، وذلك لتقوية العلاقة بينهم، وكان ذلك سنة 582هـ/ 1187م، ولم يكن هناك أي علاقة تذكر بين سلاجقة الروم مع سلاجقة خراسان والعراق، وبقيت سلاجقة الروم تخطب باسم الخليفة العباسي، ومشغولة في محاربة الصليبيين[4].

- **دور الخلافة العباسية في التخلص من السلاجقة**

لقد تتابعت السيطرة الأجنبية غير العربية على بغداد فترة ضعف الخلافة العباسية، وأخذت الخلافة تحاول التخلص من السيطرة الأجنبية من خلال الاستغاثة بالدول الأخرى، فبعد أن سيطر الترك على أمور الخلافة العباسية في بغداد استعانت الخلافة بالبويهيين على الترك، فسيطر البويهيون على أمر الخلافة مما دفع الخلافة إلى الاستعانة بالسلاجقة من أجل التخلص من البويهيين أصحاب المذهب الشيعي، وهنا استقر أمر السلاجقة في بغداد، وسيطروا على الأمور الداخلية للدولة، فقام الخلفاء العباسيون بمحاربة السلاطين السلاجقة للتخلص من حكمهم داخل بغداد، فأخذت تعمل على إضعافهم حتى حانت لهم الفرصة، فاستعانوا بالدولة الخوارزمية من أجل التخلص من حكم السلاجقة في بغداد.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (415/9)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (428/2)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (58/2)؛ ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (86/5).

(2) محيسن، دولة الأتراك السلاجقة عصر السلطان سنجر (ص152).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (105/9).

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام (13/41).

وجدير ذكره أن السلاجقة استطاعوا في عهد ملوكهم العظام تكوين الدولة السلجوقية واسعة الأطراف، فبعد أن سيطر السلطان السلجوقي طغرل بك على بغداد، استطاع أن يمد نفوذه إلى بلاد الجزيرة وأرمينية، وبعد أن خلفه على عرش السلطنة ألب أرسلان توسعت مملكته حتى وصلت داخل أملاك الإمبراطورية البيزنطية بعد هزيمة الإمبراطور البيزنطي أرمانوس في معركة ملاذكر سنة "465هـ/ 1071م"، وعقب وفاته سيطر على عرش السلطنة السلجوقية ملكشاه الذي استطاع أن يمد نفوذه من حدود الصين شرقًا إلى القسطنطينية غربًا[1]، وفي عهد ابنه السلطان سنجر خطب له على منابر بلاد الهند، وأفغانستان[2].

لكن بعد وفاة ملكشاه انقسمت المملكة السلجوقية إلى عدة دويلات متنازعة فيما بينهم على سلطنة بغداد، ولم يكن للخليفة العباسي دورٌ في إعادة السيطرة على أمور الخلافة بسبب الضعف الذي منيت به؛ نتيجة تسلط السلاطين السلاجقة على بغداد.

وقد كان نزاع السلاطين السلاجقة على عرش السلطنة السلجوقية في بغداد، سببًا في حدوث المعارك الطاحنة بينهم من أجل الوصول إلى الحكم، الأمر الذي أدى إلى ضعف السلاجقة، في المقابل كانت الخلافة العباسية تسعى للتخلص من شرهم، ويعتبر الخليفة العباسي المسترشد أول الخلفاء الذين حاربوا السلاجقة، وكانت نتيجة حروبه ضدهم هزيمته من قبل السلطان مسعود سنة "529هـ/1135"، وفي النهاية مقتله على يد الباطنية أثناء عودته إلى بغداد[3].

وقد كان سلاطين السلاجقة يقومون بقتل، أو خلع أي خليفة عباسي يقوم بمقاومتهم، فعلى يدهم قتل المسترشد، وخلع ابنه الراشد، لذلك أصبح التخلص منهم هو من أولى أولويات الخلافة العباسية، وهذا ما حصل بالفعل حيث تم التخلص منهم نهائيًا على يد الخليفة العباسي الناصر لدين الله[4].

ومن الواضح أن النزاع الذي حصل على السلطنة بين سلاطين السلاجقة كان السبب الأول، والأخير في ضعفهم، وانهيارهم حتى أصبحوا لا يمثلون شيئًا في البلاد، ولم يكن لهم

---

(1) بارتولد، تاريخ الترك (ص130)؛ شنيتر، دولة السلاجقة وأثر سقوطها على بغداد (ص322).

(2) بارتولد، تاريخ الترك (ص130).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (305/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (319/1).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(27/41-42).

سلطنة، ولا مكانة في المجتمع، وأصبح الأتابكة يتحكمون بهم[1]، ولقد نجح الخلفاء العباسيون في استغلال تلك النزاعات في إضعاف السلاجقة، والتخلص منهم، فكثيرًا ما كانوا يحرضون سلطانًا على الآخر من أجل إضعاف الجميع.

فعندما تولى عرش السلطنة السلجوقية السلطان طغرل بن أرسلان، وكان عمره آنذاك سبع سنوات، وكان أتابكه بهلون المسيطر على الأمر حتى وفاته سنة "582هـ /1186م"[2]، وكان بيده بلد الجبل، والري، وأصفهان، وأذربيجان، وغيرها من البلاد، وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان، إلا أن السلطان طغرل لم يوافق على قزل، وتحكمه به، ففارق همذان[3]. وتمكن بعد أن فارق همذان السيطرة على أذربيجان، وطالب الخليفة العباسي الناصر لدين الله بأن يعمر له دار السلطان، وأن يخطبوا له، ويرفع له الشأن؛ ولكن كان رد الخليفة قويًا في وجه السلطان، فقد أمر بهدم دار السلطنة، وأرجع رسول السلطان منها بلا جواب[4]، ومن ثم أمر الخليفة وزيره جلال الدين بن يونس أن يخرج بجيش إلى همذان للانضمام لجيش قزل أرسلان، ومحاربة السلطان، وبالفعل التقى الجيشان بالقرب من همذان، وانتصر السلطان طغرل، وأسر وزير الخليفة في تلك المعركة[5].

بقي الخليفة على إصراره في التخلص من السلطان، فاستغل الصراع الذي حصل بين قزل أرسلان، وطغرل على السلطنة، واستنجد قزل بالخليفة، فأمده بجيش من بغداد، وقد استطاع قزل أرسلان من خلال حروبه مع طغرل أن يأسره[6]، وبعد التخلص من طغرل دانت له البلاد وخطب لنفسه بالسلطنة[7]، وانفرد بها؛ لكنه مال إلى اللهو، مما جعل بعض الأمراء يطمعون بالسلطنة، حيث تمكنوا من قتله سنة "587هـ/ 1190م"، وانتقلت السلطنة من بعده إلى ابنه قتلغ أينانج، وكان السلطان طغرل قد هرب من السجن، وسيطر على البلاد، واستطاع هزيمة

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (351/1)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (86/2).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (140/10)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر(94/2)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (99/5).

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (99/5).

(4) الذهبي، العبر في خبر من غبر (248/4)؛ اليافعي، مرآة الجنان (426/3)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص202).

(5) الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص204).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (212/10).

(7) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (654/3).

قتلغ ابن قزل أرسلان سنة "588هـ/1192م"، وعاد إلى السلطنة[1]، فهرب قتلغ إلى الري، وتحصن بها، ومن ثم استنجد بالخوارزميين، فأمده خوارزم شاه علاء الدين تكش بجيش تمكن من خلاله الاستيلاء على بعض أملاك السلاجقة، فخاف قتلغ على نفسه، وهرب من أيدي الخوارزميين الذين سيطروا على معظم بلاد الدولة السلجوقية[2].

لقد كان لهروب السلطان طغرل من سجنه أثر على الخلافة العباسية، فقد خشيت الخلافة من قدرته على إعادة نفسه سلطانًا على سلاجقة العراق، فما كان من الخليفة إلا أن استنجد بالدولة الخوارزمية للتخلص من السلطان طغرل، الذي قام بجمع قواته للتخلص من الخوارزميين في مدينة الري، وتوجه بجيش كبير سنة "589هـ/ 1192م"، واستطاع أن ينتصر عليهم، وغدر بهم بعد أن أمنهم على أرواحهم، واستولى على أموالهم، وعاد إلى عاصمته همذان منتصرًا[3].

حاول السلطان طغرل أن يجمع جيشه في همذان، فاستنجد الخليفة العباسي بخورازم شاه علاء الدين تكش للتخلص من طغرل، حيث وصل رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من تسلط طغرل، ويطالبه بالتخلص منه، ومعه منشور بإقطاعه البلاد، وكذلك استنجد قتلغ مرة أخرى به ضد طغرل، وأراد خوارزمشاه استغلال تلك الفرصة للتوسع على حساب أملاك السلاجقة، فتوجه بجيش كبير إلى الري، ودارت معركة عنيفة بين الجيشين سنة "590هـ/ 1193م"، استطاع خوارزم الانتصار، وقُتل السلطان طغرل، وقُطع رأسه، وأُرسل إلى بغداد، وعُلّق على أبواب بغداد، تعبيرًا عن نهاية الدولة السلجوقية في بغداد[4].

يبدو واضحًا هنا قدرة مؤسسة الخلافة استغلال مكانتها الدينية في العالم الإسلامي بين الشعوب، في التخلص من التدخل الأجنبي، فالمتأمل يلاحظ أن الخلافة العباسية عوضت ضعفها، وقلة إمكانياتها بقوتها الدبلوماسية، وقدرتها على استغلال المكانة الدينية لها في العالم الإسلامي، فكل سلطان يصل إلى سدة الحكم كان حريصًا على الشرعية، والتي مصدرها مؤسسة الخلافة العباسية، فهي التي تمنح هذا الحق، فاستغلت هذه الورقة جيدًا في تنظيف

---

(1) الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص218).

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (41/27).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (89/41)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (101/5).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ص10، 232)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (41/27)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص 228)؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول (ص30).

الساحة من الهيمنة الأجنبية، وكثيرًا ما اتبعت أسلوب ضرب الخصوم بعضهم ببعض، والخروج بحليف جديد يسمع، ويطيع، ويكون يد ضاربة للخلافة تؤدب بها الخارجين عليها(1).

فبعد أن تخلص خوارزم شاه من طغرل أرسل إليه الخليفة الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب، فنزل الوزير بالقرب من همذان، وأرسل إلى خوارزم شاه "ينبغي أن تحضر أنت، وتلبس الخلعة من خيمتي"، وترددت الرسل بينهم في ذلك؛ لكن خوارزم شاه تخوف من وزيره من أن يقبض عليه(2)، فرفض الذهاب إليه، وأخذ يسيطر على البلاد التي كانت بحوزة السلاجقة حتى انقرضت الدولة السلجوقية من العراق، والجبال، وخراسان، ولم يبق من البيت السلجوقي إلا من هو في بلاد الروم(3)، ويصف ابن طباطبا انتهاء الدولة السلجوقية بأنها "مازالت أمورها تضعف حتى انقرضت بالكلية في أيام الناصر"(4)، ومن الواضح أن تخلص الخلافة من السلاجقة كان يعد بمثابة تخلصها من الحكم الأجنبي الذي استمر لفترة طويلة من سيطرة الترك عليها حتى انتهاء السيطرة السلجوقية.

وبعد انتصار الدولة الخوارزمية على السلاجقة، وتخلصها من سلطانهم طغرل قام الخوارزميون بالسيطرة على المدن التابعة للسلاجقة، فقد استطاع علاء الدين تكش أن يحتل همذان عاصمة الدولة السلجوقية سنة "590هـ/ 1193م"، كما سيطر بعد ذلك على أصفهان والري من أيدي السلاجقة، إلا أن الخلافة العباسية نافست الدولة الخوارزمية في أملاك الدولة السلجوقية(5).

2.1.2ثانيًا: موقف الخلافة العباسية من الدولة الخوارزمية وجهودها في التصدي للزحف الخوارزمي على بغداد

بدأت العلاقة بين الخلافة العباسية، والدولة الخوارزمية تأخذ طابع التعاون بين الطرفين من أجل التخلص من الخصم المشترك، وهي الدولة السلجوقية المتمثلة بالسلطان السلجوقي طغرل، وبالفعل استطاعت الخلافة التخلص من السلطان طغرل كما أوضحنا، وأصبح خوارزم

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ص10، 232)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (41/27)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص 228)؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول (ص30).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (232/10).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (42/27).

(4) الفخري في الآداب السلطانية (ص107).

(5) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول (ص30-32).

شاه علاء الدين تكش يحكم البلاد باسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله، حتى أصبحت البلاد التي سيطر عليها خوارزم شاه تحت سلطته حسب اتفاقه مع الخليفة بإقطاعة البلاد التي يسيطر عليها[1].

وزاد الاحتكاك بين الخلافة، والدولة الخوارزمية بعد أن سيطر خوارزم شاه على معظم البلاد التي كانت تابعة للدولة السلجوقية، في المقابل كانت جيوش الخلافة تسيطر على بعض الأملاك السلجوقية، وما لبث حتى أصبح هناك نزاع بين الطرفين للسيطرة على أكبر منطقة ممكنة، لذلك بعد أن تخلص الخليفة الناصر من سيطرة السلاجقة على بلاد العراق بتخلصه من السلطان طغرل، أراد أن يعيد نفوذه في بلاد خراسان وهمذان، فسيطر جيش الخلافة على خورستان، وسير الخليفة سنة "591هـ/1196م"، جيش آخر بقيادة وزيره مؤيد الدين بن القصاب إلى همذان فملكها، ومن ثم أخذ جيش الخلافة يسيطر على سائر البلاد المحيطة بهمذان [2].

وكان صدر الدين الخحندي حاكم أصفهان قد أرسل للخلافة بأن ترسل عسكرًا لتسليم البلد إليه، فجهّز الخليفة جيشًا بقيادة سيف الدين طغرل، وسيّره إلى أصفهان، وكان بأصفهان عسكر تابع لخوارزم شاه، فسارت عساكر الخلافة حتى وصلت أصفهان، فكان العسكر الخوارزمي قد فارقها إلى خراسان، واستلم عسكر الخليفة أصفهان بأمان دون قتال[3].

كان الأمير كوكجة البهلواني قد سيطر على بعض الري، وأراد قصد أصفهان، فلما علم بسيطرة عسكر الخلافة عليها، أرسل إلى مملوك الخليفة طغرل يعرض نفسه على خدمة الخليفة، وأظهر الطاعة للخلافة، وأرسل إلى بغداد يسأل أن تكون له الريّ، وجواره، وساوة، وقم، وقاجان، وما ينضم إليها، وتكون أصفهان، وهمذان، وزنجان، وقزوين، تابعة للخليفة نفسه، فأجيب إلى ذلك، وكتب منشوره بما طلب، وأُرسلت إليه الخلع، فعظم شأنه وقوِي أمره، وكثُرت عساكره [4].

---

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (100/5).

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(371/1)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء (216/22).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (184/23−185)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص233).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (184/23−185)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (112/5)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص233−234).

وقد شكلت سيطرة الخلافة على أملاك الدولة السلجوقة خطرًا على خوارزم شاه الذي سيطر عليها من قبل الخلافة، فأرسل إلى ابن القصاب يطلب منه إعادة البلاد التي سيطر عليها من الخوارزميين، فرفض ابن القصاب طلبه، ولم يجبه، مما جعل خوارزم شاه يسير بنفسه إلى همذان، واستطاع هزيمة جيوش الخليفة سنة "592هـ /1195م"، وملك همذان، ومن ثم عاد إلى خراسان(1).

إلا أن الخليفة لم يعبأ للهزيمة التي مُنِيَ بها عسكره على يد الخوارزميين، وكاتب الأمير أبو الهيجاء السمين يأمره بالمسير إلى همذان، ويطالبه باستعادتها من الخوارزميين، وبالفعل استطاع الأمير أن يسير بعساكر الخلافة، وأن ينتصر على الملك أوزبك بن البهلوان، وطرد الخوارزميين منها، وأعاد تبعيتها للخلافة العباسية(2).

وهنا نجد بأن الخلافة استطاعت بقوتها أن تسترد أملاكها من أيدي الخوارزميين التابعين لها بالحكم، ورغم أن خوارزم شاه حكم باسم الخلافه العباسية، إلا أنه استاء من استرداد الخلافة أملاكها، وطرد الخوارزميين من أرض همذان، وغيرها من البلدان؛ لذلك قرر في هذه المرة أن يسير بنفسة إلى محاربة الخليفة في عقر داره، وبالفعل سيطر في مسيره إلى بغداد، على الري، وهمذان، وأصفهان، وأرسل إلى الخليفة يطلب الخطبة له، وإعادة دار السّلطنة ببغداد على ما كانت عليه أيام السلاجقة، وأن يجيء إلى بغداد "وأن يكون الخليفة من تحت يده كما كانت الملوك السَّلجوقية"(3)، فغضب الخليفة الناصر لدين الله من طلب خوارزم شاه، ورفضه، بالإضافة إلى أنه أمر بهدم دار السلطنة، ورد رسول خوارزم شاه بلا جواب(4).

وهنا أراد الخليفة العباسي الناصر لدين الله أن يمزق جبهة الدولة الخوارزمية من خلال اتحاده مع أعداء الدولة الخوارزمية، فأرسل إلى غياث الدين الغوري(5) يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليعود عن قصد العراق، فأرسل غياث الدين لخوارزم شاه يقبح له فعله، ويتهدده بقصد بلاده؛ ولكن خوارزم شاه استنجد بقبائل الخطا الذين لبوا نداءه، وقامت معركة بينهم وبين

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (236/10)؛ إقبال، تاريخ إيران (ص327).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (245/10)؛ محي الدين، عودة الروح للخلافة العباسية (ص112).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (12/42)؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص454–455).

(4) السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص455).

(5) غياث الدين ملك الغور: غياث الدين الغوري سلطان غزنة أبو الفتح محمد بن سام بن حسين، تفرد بالممالك بعده أخوه السلطان شهاب الدين. ابن العماد، شذرات الذهب (242/4).

الغوريين انهزمت فيها قبائل الخطا، فانكسرت جبهة خوارزم شاه؛ بل وحمل ملك الخطأ هزيمة جيشة على خوارزم، وهدده إن لم يعوضه خسارته، فما كان من خوارزم أن أصلح أمره مع غياث الدين الغوري، والخلافة العباسية لحماية نفسه من قبائل الخطا، فأرسل الخليفة إليه الخلع، ووقع الصلح بينهما[1].

لم يطل المقام لخوارزم شاه علاء الدين تكش، فقد توفي سنة "596هـ/1200م"، وتولى الملك من بعده ابنه قطب الدين، ولقب بلقب أبيه علاء الدين محمد[2]، استطاع في فترة حكمه التخلص من قبائل الغوريين، والخطا، فعظم شأنه على الدول الأخرى، وأصبح عدد جيشة أكثر من أربعمائة ألف فارس، وبذلك أصبح يريد أن يحقق حلم أبيه في السيطرة على بغداد، فطالب الخلافة أن يخطب باسمه في بغداد، وأرسل مبعوثه القاضي فخر الدين عمر بن سعد الخاورزمي إلى بغداد سنة "614هـ/1217م يطلب ما كان لبني سلجوق من الحكم والملك، وترددت الرسل في ذلك مرارًا، فلم يجبه الخليفة إلى مراده[3].

وأرسل إليه الخليفة شهاب الدين السهردوري؛ لينظر في أمره، ويعظه، وينهاه عن مخالفة الخليفة، ويبين له فضل بني العباس، إلا أن خوارزم شاه علاء الدين محمد لم يلتفت له، ولم يرد عليه بجواب[4]، ويذكر ابن تغري بردي أن خوارزم شاه علاء الدين محمد "أهانه واستدعاه وأوقفه إلى جانب تخته ولم يأذن له بالقعود"، وكان خوارزم شاه علاء الدين محمد أعظم ملوك الدنيا، واتسعت ممالكه شرقًا، وغربًا، وهابته الملوك حتى لم يبق أحد إلا دخل تحت طاعته[5].

وكان رد خوارزم شاه لرسول الخليفة بأن الخليفة لم يملك صفات الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر الخلافة، وأنه قادم لبغداد حتى يقيم خليفة تتوفر فيه تلك الشروط[6]، وقام خوارزم

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (252/10-263)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص245-251).

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام (ص42، 243)؛ الصفدي، الشعور بالعور (ص138).

(3) النويري، نهاية الأرب (ص27، 159)؛ النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (ص49).

(4) الذهبي، العبر في خبر من غبر (48/5).

(5) النجوم الزاهرة (219/6-225).

(6) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (161/27)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (16/44).

شاه بحذف اسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله من الخطبة، ونصب أحد الشيعة، وادعى أنه من سلالة علي بن أبي طالب خليفة؛ بل ذهب لأبعد من ذلك، فتحول للمذهب الشيعي[1].

وعاد الرسول شهاب الدين السهردوري إلى بغداد دون الوصول إلى اتفاق، وبقيت العلاقة سيئه للغاية بين الطرفين، وبذلك فقد الخليفة كل طرق السلام مع خوارزم شاه[2]، ولم يجد سوى التحالف مع جلال الدين حسن زعيم الإسماعيلية، وحرضه على قتل أغلمش نائب خوارزم شاه في العراق، فقتلوه، وانقطعت حينئذ خطبة السلطان خوارزم شاه بالعراق[3].

وما أن عاد رسول الخليفة إلى بغداد حتى عزم خوارزم شاه المسير إليها، وأخذ يتخلص من أتباع الخليفة في العراق العجمي، واستطاع أسر الأتابك سعد بن زنكي الذي كان يحكم الري باسم الخليفة، فلما علم أوزبك بأسره اعتذر لخوارزم شاه، فأجاب اعتذاره، فحكم أوزبك باسم السلطان، واستطاع كذلك خوارزم شاه أن يتفق مع سعد بأن يفك أسره مقابل أن يعطيه قلعة اصطخر[4]، ويحمل إليه ثلث الخراج، وبذلك دخل أوزبك، وسعد في طاعة خوارزم شاه[5].

وأكمل خوارزم شاه طريقه بالسيطرة على أملاك الخليفة، حيث سيطر على بلاد الجبل، وضم إلى حوزته الري، وهمذان، وأصفهان، وساوة، وقزوين، وزنجان، وأبهر، وقم، وقاشان، وبذلك تم إخضاع أملاك الخلافة له[6]، ولم يبق أمامه إلا المسير إلى بغداد والتخلص من الخليفة الناصر لدين الله، وقام بارسال جيش مكون من خمسة عشر ألف جندي يتولى قيادتها أحد أمرائه حاكم حلوان، وأتبعه بجيش آخر، ومن ثم لحق بهم نحو بغداد[7]، وما أن علم الخليفة الناصر بمسير الجيوش إلى بغداد، قام بالنفير العام، وفرق الأموال بين الناس، ووزع السلاح على العامة، واستعد للتصدي لجيوش خوارزم شاه[8].

---

(1) حسن، تاريخ الإسلام (ص99).

(2) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (ص52).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (161/27).

(4) اصطخر: إحدى المناطق التي يتألف منها إقليم فارس، وتقع في القسم الشمالي من الإقليم، وتعد من أقدم مدن فارس.الاصطخري، المسالك والممالك (ص45).

(5) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(127/5-128).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (371/10-372)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(390/1)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص356).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (372/10)؛ النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي(ص64).

(8) الذهبي، تاريخ الإسلام (15/44)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (219/6-225).

لكن جاءت مشيئة الله تعالى بأن تعرضت جيوش خوارزم شاه عند وصولها عند عقبة أسد آباد، فنزلت عليه ثلوج غطت عسكره، بحيث لم يسمع بمثله، وبقي ثلاثة أيام، فهلك الجيش، ومات الكثير منهم؛ وما أن حلت تلك المصيبة على الجيش الخوارزمي حتى عاد خوارزم شاه إلى خراسان، وأثناء الانسحاب قامت قبائل بنو ترجم الأتراك، وبنو هكار الأكراد بمهاجمتهم، فلم يرجع مع خوارزم شاه إلا اليسير[1]، وقام خوارزم بقطع الخطبة للخليفة الناصر لدين الله في نيسابور، ومرو، وبلخ[2]، وبخارى[3]، وسرخس، وادعى وفاته؛ لكنها بقيت قائمة للخليفة الناصر في إقليم خوارزم[4]، وسمرقند، وهراة[5].

ويذكر ابن الأثير أن سبب الكارثة التي حلت بخوارزم شاه هو غضب الله الذي صب عليه، وبين ذلك بقوله:" هذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحد بأذى إلا لقيه فعله، وخبث نيته لا جرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله في الدنيا قديما ولا حديثا"[6].

ويرجع السبب في طلب خوارزم شاه السلطنة والسير إلى بغداد في الآتي:

- أراد خوارزم شاه أن يجعل الخليفة العباسي تحت سلطتة كما كانت من قبل تحت سلطة البويهيين، والسلاجقة، حيث كتب مع رسوله إلى بغداد " كن معي كما كانت الخلفاء قبلك مع سلاطين السلجوقية كألب أرسلان، وملكشاه، وأقربهم بنا عهدًا السلطان سنجر، فيكون أمر بغداد، والعراق لي، ولا يكون لك إلا الخطبة" [7].

- قد رأى خوارزم شاه رفضه عن موقف الخليفة بإسقاط خطبة ابنه الظاهر سنة "601هـ/1205م" بحجة عجزه عن القيام بولاية العهد، فلما أسقطت خطبة في سائر

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (372/10)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (165/27)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (17/44)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(128/5).

(2) بلخ: وهي من مدن خراسان العظمى وأكثرها خيرًا. الحموي، معجم البلدان (479/1).

(3) بخارى: أعظم مدن ما وراء النهر، وأجلها يعبر إليها من آمل الشط. الحموي، معجم البلدان (353/1).

(4) خوارزم: مدينة من مدن وراء النهر. الاصطخري، المسالك والممالك (ص117).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (372/10)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص357).

(6)ابن الأثير، الكامل في التاريخ (372/10).

(7) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (329/1).

الأقطار رفض خوارزم إسقاط الخطبة، وقال:" قد صح عندي توليته ولم يثبت عندي موجب عزله"، وجعل ذلك حجة لطرق العراق بالعساكر ليرد خطبته(1).

- تحريض الخليفة الناصر للملوك الغوريين ضد الدولة الخوارزمية، فقد كشف ذلك خوارزم شاه عند سيطرته على غزنة حاضرة الغوريين سنة "612هـ/1216م"، حيث كشف عن الكتب، والرسائل التي أرسلها الناصر للدولة الغورية بما فيها رسائل التحريض(2).

- تحريض الخليفة الناصر الأتراك الخطا ضد توسع الدولة الخوارزمية، حيث أرسل لهم الهدايا، والخلع دعمًا لهم(3).

- تحريض الخليفة الممالك المجاورة ضد الخوارزميين، وتدبير المكائد، والدسائس لهم، كما أثار عليه أتابكة فارس، وأذربيجان، وزين لهم الاستيلاء على العراق العجمي، وانتزاعها من الخوارزميين(4).

- تحالف الخليفة مع صاحب الإسماعيلية جلال الدين الحسن ضد الخوارزميين، حيث أمر بتقديم علم الإسماعيلية عن علم الخوارزميه في الحج، وهذا كان سببًا رئيسًا لخوارزم شاه بإعداده حملة يسير بها إلى بغداد(5).

استمر العداء مع الخلافة العباسية زمن خوارزم شاه غياث الدين بن علاء الدين محمد، وما أن تولى الأمر حتى استولى على الري، وهمذان، وأصفهان، وكرمان، وقد كانت تابعة لبلدان الخلافة الشرقية، ومن ثم أخضع معظم بلاد فارس تحت سيطرته، بعد أن كانت خاضعة للخليفة(6)، وما أن تمكن خوارزم شاه غياث الدين من البلاد حتى قام بالزحف إلى مدينة أمهر

---

(1) الصفدي، نكث الهميان في نكث العميان (ص79).

(2) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول (ص35-36)؛ محيي الدين، عودة الروح للخلافة العباسية (ص126.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (ص45، 8)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (6/260-261)؛ إقبال، تاريخ إيران (ص331).

(4) الصياد، المغول في التاريخ (ص70).

(5) إقبال، تاريخ إيران (ص332).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/440).

القريبة من بغداد؛ وذلك تمهيدًا للسيطرة عليها، فقلق الخليفة من أمر غياث الدين، وقام بالاستعداد لمواجهته، وأعد العدة، وجمع الجيش من سائر البلاد، ومن ثم أخذ يراسل غياث الدين حتى يعود، ويتراجع عن الزحف إلى بغداد، فوافق خوارزم شاه، وتراجع عن بغداد، ويذكر النسوي بأنه "أذعن بالطاعة وعاد إلى العراق"[1]، وهذه الروايه تؤكد القوة الدبلوماسية العالية التي تتمتع بها الخلافة العباسية، فقد أذعن خوارزم شاه بالطاعة نتيجة ضغوط ظاهرة وخفيه.

وما أن تخلص الخليفة من حملة غياث الدين على بغداد حتى قام بتحريض خاله الأمير إيغان طائسي ضده، وهو من كبار أمراء خوارزم غياث الدين، بانتزاع الزعامة من غياث الدين، وقام الخليفة بالاتفاق معه سرًا، وأقطعة البلاد، فقام إيغان طائسي بجمع الأمراء، والجنود، وسار الأمير إيغان للقاء ابن اخته، فدارت بينهم معركة انتهت بهزيمة إيغان طائسي حليف الخليفة[2]، وهنا يسجل للخلافة إخفاق سياسي، صحيح أنها حاولت ضرب الخصم بخصم من الجنس والعرق نفسه، إلا أنها لم تقدر قوة الخصم جيدًا.

ومما سبق من أحداث متلاحقة بين الخلافة، والخوارزميين يظهر لنا مكر، ودهاء مؤسسة الخلافة العباسية في التعاطي مع الأحداث، فلقد استعاضت الخلافة بالكر، والدهاء الدبلوماسي عن العمل العسكري، واستخدمت الرسل، وأعلنت سياسية الترغيب، والترهيب في آن واحد ثم انتقلت إلى التقرب لأحد أعدائها من أجل ضرب خصم آخر، حيث تقربت من فرقة الإسماعيلية الحشاشين، واستخدمتهم في التخلص من أقوى رجال الحكم عند الخوارزميين، وكأنها تكسر أطراف الدولة الخوارزمية، وعندما زحفت جيوش الخوارزميين من وسط أسيا لبغداد بهدف تفويض الخلافة العباسية، وتنصيب خليفة شيعي يدين بالولاء للخوارزميين، وتعرض الجيش الخوارزمي للعاصفة الثلجية في منطقة أسد آباد، وقتل عدد كبير من أفراد الجيش الخوارزمي، استغلت الخلافة هذا الحدث بطريقة ذكية، ونشرت دعاية قوية بأن ما حدث بجيش الخوارزميين هو انتقام إلهي؛ لأن الخلافة العباسية هي محمية من الله تعالى، فالعباسيون هم أهل النبي صلى الله عليه وسلم، وكل من يحاول الاقتراب من الخلافة ينتقم منه الله، وبالفعل استطاعت الخلافة أن تحول هذه الدعاية إلى معتقدات عند الشعوب الإسلامية، وضعت لنفسها هالة

---

(1) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي(ص148–152).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/436–437).

مقدسة عند الشعوب، فكانت كلمات الخليفة تؤثر على الشعوب التي تحت الحكم الخوارزمي؛ بل وتوجه سلوكهم أحيانًا[1].

وبذلك بقيت العلاقة بين الخلافة، وخوارزم شاه غياث الدين علاقة عداء، حتى سيطر جلال الدين منكبرتي على سدة الحكم بدلًا من أخيه غياث الدين، واستقر أمره، فطلب من الخليفة الناصر أن يخطب له في بغداد، وعزم على قصدها، فسار إلى خوزستان سنة "622هـ/1225م"، وحاصر مدينة تستر[2]؛ ولكن أميرها مملوك الخليفة تصدى له، فتركه بعض جنده، وأخذوا ينهبون البلاد حتى تفرقوا[3]، فحاول خوارزم شاه جلال الدين الاتحاد مع المعظم عيسى الأيوبي ضد الخليفة، فأرسل إليه" تحضر أنت ومن عاهدني واتّفق معي حتّى نقصد الخليفة، فإنّه كان السّبب في هلاك أبي، وفي مجيء الكفّار إلى البلاد، وجدنا كتبه إلى الخطا، وتواقيعه لهم بالبلاد، والخلع، والخيل"؛ ولكن كان رد المعظم رفض موقفه، وقال له :" أنا معك على كل أحد إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين"[4].

ولعل هذه الرواية توضح حجم النجاح الدبلوماسي العباسي، بفعل الدعاية العباسية بين الشعوب الإسلامية حتى تسربت هذه الدعاية إلى كبار القادة بحجم المعظم عيسى الأيوبي، فهو يستطيع التحالف مع جلال الدين الخوارزمي ضد أيَّ أمير إلا الخليفة، فهو إمام المسلمين، ومن المرجح أن المعظم عيسى يخشى أمرين، الأول: هو الخوف من العقاب الإلهي، فيحدث له ما حدث لمن سبقه من البويهيين، والسلاجقة، والخوارزميين عندما حاولوا النيل من الخلافة العباسية المحمية من السماء.

الثاني: خشيته من التمرد الشعبي ضده، فقد وصلت قناعة الشعوب أن من يقترب من الخلافة العباسية هو من يقترب من الخطوط الحمراء؛ بل يلمس العقيدة الإسلامية، لذلك يتوجب على الشعوب إعلان التمرد ضده.

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (372/10).

(2) تستر: تسمى حاليا (ششتر) وهي من مدن الأهواز وأعظم مدينة بخوزستان. الحموي، معجم البلدان(29/2).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (443/10)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (155/5)؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول (ص205).

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام (ص45، 8)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (260/6-261).

اتجه خوارزم شاه جلال الدين إلى بغداد للسيطرة عليها، فلم تستطع عساكر الخليفة بقيادة جمال الدين قشتمر صده، فوصل إلى بعقوبا القريبة من بغداد، وحينها قام الخليفة بتجيهز عساكره، ونصب المجانيق على الأسوار، ووزع السلاح على العامة، وأنفق عليهم الأموال، وكان جلال الدين قد ملك دقوقا، وهاجمت قواته مدينة تكريت، فهزمت على أبوابها، لذلك فشل في السيطرة على بغداد، فعاد إلى أذربيجان(1).

وفي النهاية استطاعت مؤسسة الخلافة ترويض الدولة الخوارزمية، وإجبارها على الدخول في الطاعة للخلافة العباسية، فعندما تولى الخليفة العباسي الظاهر الحكم سنة "622هـ/ 1225م"، مال إلى مصالحة السلطان، فأرسل مبعوثيه، وهم: نجم الدين الرازي، وركن الدين ابن عطاف، ومكثا عند السلطان جلال الدين بأمر من الخليفة، فقبل السلطان رسل الخليفة، ووافق على شروط الخليفة، وأرسل إليه القاضي مجير الدين، ومعه الخلع، والهدايا، فاستقبل الخليفة الرسول، وأرسل إليه الكثير من الخلع للسلطان، وبذلك تحسنت العلاقة بين الخلافة، والدولة الخوارزمية؛ ولكن وفاة الخليفة الظاهر في العام نفسه أدت إلى نهاية العلاقة الودية بين الخلافة، والسلطان جلال الدين(2).

حاولت الدولة الخوارزمية التمرد على الخلافة العباسية، فعادت علاقة العداء خصوصًا بعد محاولة جلال الدين منكبرتي السيطرة على مدينة خلاط سنة"626هـ/1229م" ، على الرغم من ذلك عادت مؤسسة الخلافة للآلة الدبلوماسية لعلها تعيد الخوارزميين إلى الطاعة، وبالفعل بعد إرسال الخليفة سفراء للخوارزميين أثناء حصار مدينة خلاط وقع الصلح بين الخلافة والخوارزميين، حيث سير الخليفة رسوله سعد الدين الحاجب لعقد معاهدة الصلح مع السلطان الخوارزمي، فتردد الرسل، واستقبل الخليفة المستنصر بالله رُسل السلطان بالخلع والهدايا، ووقع الصلح بينهم، وكانت بنود الاتفاقية كالآتي:

- عدم الاعتداء على أمراء الخليفة، والمقربين إليه، وهم: بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل، ومظفر الدين كوكبري من قبل السلطان الخوارزمي.
- إقامة الخطبة للخليفة العباسي في سائر منابر الدولة الخوارزمية(3).

---

(1)ابن الأثير، الكامل في التاريخ (444/10-445).

(2) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (ص280)؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول (ص215).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (193/29).

وبالفعل قبل السلطان مطلب الخليفة، وأرسل من عنده سفيرًا للخليفة، وهو النسوي صاحب كتاب السلطان جلال الدين يبلغ الخلافة موافقة الدولة الخوارزمية على طلب الخليفة، وأمر بإقامة الخطبة للخليفة على المنابر الخوارزمية، وفي المقابل أرسل الخليفة للسلطان أثناء محاصرته مدينة خلاط الخلع، والهدايا، وهي عبارة عن ملابس حريرية محلاة بالجواهر، وسيوف محلا بالذهب بالإضافة إلى بعض الخيول العربية، وبذلك عم الأمان، وعادت العلاقة بين الطرفين علاقة سلام، وودية[1].

وما يؤكد ما ذهب إليه الباحث من قدرة الخلافة على خلق هالة مقدسة لها هي رواية ابن خلدون حيث أورد أن خوارزم شاه كان دائما يخاطب الخليفة بكل تأدب حتى وقت الخلافات الحادة، فكان يبدأ حديثة مع الخليفة :" سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، وخليفة رب العالمين، قدوة المشارق والمغارب "[2].

---

(1) النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي (300-310)؛ حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول (ص215).

(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(166/5).

2.2 المبحث الثاني: دور الدبلوماسية العباسية في إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، وتوحيدها مع بلاد الشام

سنتحدث في هذا المبحث عن دور الدبلوماسية العباسية في توحيد المشرق الإسلامي تحت سلطة الخلافة، من خلال بعض القوى المحلية في البلاد، ودعمها سياسيًا، وعسكريًا، سنتطرق في البداية إلى دور الدبلوماسية العباسية في دعم الدولة الزنكية لتوحيد الجبهة الإسلامية تحت سلطة الخلافة العباسية.

في بداية الأمر يمكن القول بأن الخلافة العباسية في تلك الفترة كان يسيطر عليها السلاجقة، ولم يكن للخليفة سوى الاعتراف به اسميًا فقط، حيث كانت علاقة الخليفة العباسي المسترشد بالأتابك عماد الدين سيئة، وخاصة عندما توجه السلطان محمود بن محمد على بغداد سنة "519هـ /1125م"، وأراد أن يفرض سيطرته المباشرة على العراق[1].

فعندما وصل السلطان محمود بغداد تصدى له الخليفة، فاستنجد السلطان بعماد الدين زنكي الذي لبى النداء، وجمع العسكر، والزوارق الحربية، واتحد مع السلطان، وما أن بُلِّغَ الخليفة بتقدم زنكي بقواته الحاشدة حتى أدرك أنه ليس بمقدوره الصمود أمام السلطان، وأن بغداد مقبلة على حصار شديد، فأرسل إليه يعلن موافقته على الصلح، ومن ثم دخل السلطان بغداد، وتمت المصالحة[2]، وهنا نجد بأن العلاقة ما بين الخليفة، والأمير عماد الدين كانت عدائية، حيث قام عماد الدين بالوقوف بجانب السلطان السلجوقي ضد الخليفة العباسي[3].

2.2.1 أولًا: توحيد البلدان الإسلامية قبل سقوط الخلافة الفاطمية على يد عماد الدين وأبنه نور الدين زنكي

لقد لعب عماد الدين زنكي دورًا مهمًا لصالح السلطان محمود الذي عينه شحنة بغداد سنة "521هـ/1227م"، وأضاف إليه واسط، والمناطق المجاورة له[4]، فاستقل زنكي ببغداد، ومنها اتجه إلى الموصل، وذلك بتفويض من السلطان السلجوقي محمود الذي عينة واليًا على

---

(1) ابن الأثير، الباهر (ص28–29).

(2) المرجع السابق(ص29–31).

(3) المرجع السابق (ص29–31).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (241/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (311/1)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (32/2).

الموصل بعد وفاة صاحبها البرسقي[1]، ومن هنا نجد أن الأمير عماد الدين أخذ يلعب دورًا دبلوماسيًا مهمًا في تاريخ المشرق الإسلامي، واستغل زنكي سيطرته على الموصل من أجل توحيد العالم الإسلامي، وأخذ يفكر في السيطرة على المدن المجاورة لإقطاعه.

فكانت البوازيخ[2] أول البلاد التي سيطر عليها عماد الدين زنكي، ومن ثم توجه إلى جزيرة ابن عمر[3]، وضرب عليها الحصار، وأخذ يرسل لهم الوعود لتسليم المدينة له؛ لكنهم رفضوا، فقرر عماد الدين زنكي فتحها عنوة، وكان المسيطر على المدينة جماعة البرسقي، فجرت بينهم وبين جيش عماد الدين زنكي مناوشات انهزم فيها جماعة البرسقي؛ لذلك فشلوا في حماية المدينة، وطلبوا الأمان من زنكي، فاستجاب لهم وتسلم المدينة سنة "521هـ/1227م"[4].

وبعد أن سيطر عماد الدين زنكي على جزيرة ابن عمر توجه نحو حلب؛ لأهميتها العسكرية في مواجهة الصليبيين، لوقوعها بين إمارتين صليبيتين: الرها، وأنطاكية، وقد ساعدت الظروف السياسية التي كانت تمر بها حلب عقب وفاة أميرها البرسقي من حالة الفوضى، والنزاع على السلطنة بين كبار رجال الدولة، ولقد طمع الصليبيون في السيطرة عليها بشن هجمات عسكرية قوية عليها، لذلك أراد عماد الدين زنكي تملكها بصفته يملك منشور من السلطان السلجوقي بحكم الموصل، والجزيرة، وبلاد الشام، وسار إليها حتى وصلها سنة "522هـ/1228م"، وخرج السكان لاستقباله أملًا في نشر الأمان، والاستقرار، ودخل القلعة وأخذ ينظمها، وينشر الأمن فيها[5].

ويرى الباحث هنا بأن تملك عماد الدين زنكي مرسومًا من قبل السلطان المفوض من قبل الخليفة العباسي ساعده في أخذ الصفة الشرعية من الخليفة، والسلطان لتوحيد المشرق الإسلامي تحت سلطة الخلافة العباسية، وبعد أن سيطر زنكي على حلب استطاع أن يحقق الوحدة بين الموصل، وحلب، وتهيأت له الظروف بالتدخل في الشئون الداخلية، والأوضاع السياسية لبلاد

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (311/1)؛ ابن خلدونن تاريخ ابن خلدون (263/5).

(2) البوازيخ: ويقال لها بوازيج، وهي مدينة بين تكريت وإرْبل. العسقلاني، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه (ص1، 175).

(3) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق واسع الخيرات، وأول عمرّها لحسن ابن عمر التغلبي . الحموي، معجم البلدان (138/2).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (243/9)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص149)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (85/27-86)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر(33/2).

(5) ابن العديم، زبدة الحلب(302/1-303) ؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (87/27).

الشام لتوحيدها في وجه الاحتلال الصليبي، وبهذه الوحدة استطاع فصل إمارة الرها عن باقي الإمارات الصليبية الأخرى.

وبعد أن سيطر زنكي على إمارة حلب، أراد أن يوسع إمارته نحو ديار بكر، وكانت نصيبين أول الإمارات التي ملكها بعد حصارها، ولقد كشفت خطط صاحبها في الاستنجاد بحاكم حصن كيفا، حتى سلم أصحاب نصيبين البلد إلى عماد الدين زنكي، وبسيطرته على نصيبين فتحت له الطريق للسيطرة على المواقع المجاورة لها[1]، وتوجه زنكي نحو سنجار، وفرض عليها الحصار حتى اضطر أهل المدينة إلى مصالحته، وتسليم المدينة له، ومن ثم قام بإرسال جنوده إلى الخابور، وتمكنوا من السيطرة عليها[2]، وحينها كانت مدينة حران قد سادتها الفوضى بعد وفاة مسعود البرسقي، وتعرضت بعد وفاته لتهديدات الصليبيين مما دفع أصحابها لتسليمها إلى عماد الدين زنكي سنة "523هـ/1129م"[3].

وقد أدرك عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع مواجهة الصليبيين إلا بتوحيد دمشق، والمدن المحيطة بين الموصل، وحلب، وكان عليه السيطرة على حماة، وحمص لفتح الطريق للسيطرة على دمشق، لذلك أرسل زنكي لبوري بن طغتكين[4] يطلب منه المساعدة ضد الصليبيين، فكتب بوري إلى ابنه سونج بحماة يأمره بنجدة زنكي، وأرسل قوة عسكرية كذلك من دمشق لنجدة زنكي؛ ولكن زنكي غدر به، وقبض على سونج، وأرسله إلى حلب، ومن ثم سار إلى حماة، وسيطر عليها سنة "524هـ/1130م"[5].

وسار عماد الدين زنكي إلى حارم، فحاصرها حتى صالح أهلها على أن يدفعوا له نصف دخلها[6]، واستولى في طريقة على جميع قلاع الأكراد الحميدية، منها: قلعة العقير، وقلعة شوش، وغيرهما، ثم استولى على قلاع الهكارية، وكواشي[7].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (244/9).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (244/9)؛ ابن الأثير، الباهر (ص37).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (244/9)؛ ابن الأثير، الباهر (ص37)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (87/27).

(4) بوري بن أتابك طغتكين حاكم مدينة دمشق. ابن خلكان، وفيات الأعيان (156/1).

(5) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (312/1)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (15/36).

(6) الذهبي، تاريخ الإسلام (23/36).

(7) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (316/1)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (38/2).

أدرك عماد الدين زنكي أهمية إربل العسكرية بالنسبة للموصل، وحانت له الفرصة للتوجه إليها سنة "526هـ/1132م"، وشدد عليها الحصار؛ لكن استطاعت حاميتها الدفاع عنها حتى تقدم السلطان مسعود لنجدتها لذلك انسحب زنكي؛ لكن السلطان مسعود أراد أن يتحد مع زنكي من أجل السيطرة على عرش سلاجقة العراق، فاتفق معه على مساندته مقابل ضم إربل له، وتم الاتفاق على ذلك، وتسلم زنكي إربل، ثم توجه إلى دمشق سنة "529هـ/1135م"؛ فسيطر في طريقة على مدينة الرقة(1)، ودقوقا(2)، وشهرزور(3).

وفرض عماد الدين زنكي حصارًا على دمشق بعد أن دب بها الخلاف بعد وفاة بوري، وحاول اقتحامها عدة مرات؛ لكن حاميتها استطاعت الدفاع عنها، ثم استنجد أهلها بالخليفة العباسي المسترشد بالله، حيث أرسلوا له خمسين ألف دينار على أن يدفع الخليفة عنهم زنكي، وأن ترسل دمشق للخليفة قدره كل سنة، فقبل الخليفة طلبهم، وجاء رسول الخليفة إلى زنكي، وهو يحاصر دمشق بالخلع، وأمره بفك الحصار عن دمشق، والتوجه على رأس قواته إلى بغداد لمعونته ضد السلطان مسعود، فقال له :" السمع والطاعة"(4).

ومن خلال مسيرة عماد الدين زنكي في توحيد البلاد الإسلامية تحت راية واحدة يتضح دور الخلافة العباسية في استخدام زنكي كقوة ضاربة، وأداة قوية لضرب الخصوم، وتأديب المتمردين على سلطة الخلافة، كما يتضح مدى رضى الخلافة عن الدور الذي قام به زنكي في توحيد البلاد، ومن المرجح أن قنوات التنسيق كانت مفتوحه بين الخلافة، وزنكي فعندما تعارضت خطوات زنكي مع مصالح الخلافة وحصاره لدمشق، فتدخلت مؤسسة الخلافة سريعًا، وأوقفت العمليات العسكرية الزنكية بخطاب قصير، كان رد عماد الدين زنكي سريعًا وواضحًا " السمع والطاعة"(5)، وهذا يدل على حنكة، ودهاء مؤسسة الخلافة، ودورها الدبلوماسي البارع في تيسير الأمور، واستغلال القوى الوليدة، وصهرها ضمن طموحات، وإستراتيجيات الخلافة، نعم لقد استطاعت الخلافة إحراز تقدمًا ملحوظًا تجاه توحيد الإمارات الإسلامية من أجل صناعة جبهة مقاومة إسلامية قوية ضد المحتل الصليبي.

---

(1) ابن العميد، زبدة الحلب (311/1).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (300/9).

(3) ابن الأثير، الباهر (ص57-58).

(4) ابن الجوزي، المنتظم (293/17)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (91/27).

(5) ابن الجوزي، المنتظم (293/17)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (91/27).

وفي فترة الخليفة المقتفي بأمر الله توجه عماد الدين زنكي إلى بعلبك، وفرض عليها الحصار، وتسلمها من أهلها بالأمان[1]، ثم اتجه نحو الجنوب لتوسيع إمارته، فسيطر على عانة "538هـ/1144م"[2]، وفي عام "541هـ/1147م" اتجه إلى قلعة جعبر للسيطرة عليها؛ ولكنه قُتل أثناء حصاره لها، فساد الاضطراب بين صفوف جيشه، وفك الحصار عن القلعة[3].

وما أن توفي عماد الدين زنكي حتى انقسمت مملكته إلى قسمين: القسم الشرقي تحت سلطة ابنه الأكبر سيف الدين غازي، ومقره بالموصل، والقسم الغربي تحت سيطرة نور الدين محمود، ومقر حكمه حلب، وكان نهر الخابور حد فاصل بينهم، ويبدو أن تقسيم المملكة الزنكية بين الأخوين جعل السلطان نور الدين محمود يحمل عبء توحيد الشام، ومحاربة الصليبيين[4].

- **موقف الدبلوماسية العباسية في دعم نور الدين محمود لتوحيد القوى الإسلامية**

شهد المشرق الإسلامي الكثير من الصراعات الداخلية بين الإمارت الصغيرة إبان الحكم الزنكي في بلاد الشام، وكان لا بد من وجود وحدة إسلامية لمواجهة الخطر الخارجي الصليبي، وقد استطاع السلطان نور الدين محمود أن يمثل دور الشخص الذي يبذل كل الجهد من أجل إقامة تلك الوحدة تحت سلطة الخلافة العباسية، حتى استطاع إسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، وإقامة الدعوة للخليفة العباسي.

بعد أن تولى نور الدين محمود إمارة حلب، أخذ يفكر في تكوين الوحدة الإسلامية التي كان يسعى إليها والده من أجل مقاومة الصليبيين، وأراد أن يضم مدينة دمشق لولايته، فأخذ يتقرب من حكامها ويُحَسّن العلاقة معهم، حتى ترددت الرسل، والمراسلات بين الأميرين نور الدين محمود، ومعين الدين أنر إلى أن استقر الحال بينهما، وتزوج نور الدين من ابنة معين الدين سنة "541هـ/1147م"[5]، وكان نور الدين يسعى من وراء اتفاقه مع أنر إضعاف الاتفاق الذي حصل بين أنر، وبين مملكة بيت المقدس الصليبية؛ ولكن عندما نقض الصليبيين العهد مع دمشق[6]، حينها حاول سعد الدولة التونتاش إقامة ولاية له بصرخد، وبصرى، والانفصال

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (319/1).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (330/9).

(3)ابن الأثير، المرجع السابق(339/9).

(4) طقوش، تاريخ سلاجقة الروم (ص149).

(5) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص175).

(6) باركر، الحروب الصليبية (ص51).

عن دمشق، وطلب المساعدة من الصليبيين، فاستنجد أنر بنور الدين الذي لبى نداءه، وزحف بجيوشه إلى بصرى، فملكها، وسلمها لأنر، وأنجده من المخطط بين التونتاش، والصليبيين[1].

وبقيت العلاقة حسنة بين نور الدين وحكام دمشق حتى عام "545هـ/1151"، حيث فرض نور الدين الحصار على دمشق، فراسله صاحبها مجير الدين أبق[2]، وخرج إليه هو والرئيس ابن الصوفي وبذلا له الطاعة، وأن يخطب له مجير الدين بعد الخليفة والسلطان وأن ينقش اسمه على الدينار والدرهم، فوافق نور الدين، وخلع عليه، ورحل الى حلب[3].

وحين كان نور الدين يحارب الصليبيين بالقرب من دمشق سنة "546هـ/1152م" أرسل إلى أمراء دمشق "أنا ما أوثر إلا صلاح المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسرى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق، وتعاضدنا على الجهاد"[4]؛ فرفض مجير الدين الاتفاق مع نور الدين، وطلب النجدة من الصليبيين، واتحدوا في محاربة نور الدين، وقصدوا بصرى؛ لكن نور الدين رفض قتال أهل دمشق، ووقع الصلح بينهم[5]، وكان نور الدين يقول "لأنه لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضًا، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين"[6].

لكن في النهاية أدرك نور الدين محمود أنه لا مجال لفتح دمشق إلا من خلال الحيلة، والاتفاق مع الأمراء فيها للتحريض ضد مجير الدين أبق، وبالفعل كان من أمراء دمشق نجم الدين أيوب أخو أسد الدين شيركوه قائد الجيش النوري، حيث اتصل شيركوه بنجم الدين لتحريض الناس ضد أبق، وفي الوقت نفسه أرسل نور الدين إلى أبق يحذره من أمرائه حتى

---

(1) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص176)؛ الحويري، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين (ص99).

(2) مجير الدين: هو مجير الدني أبق بن محمد بن بوري بن أتابك طغتكين. الذهبي، سير أعلام النبلاء(483/20).

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (298/5).

(4) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص188)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (264/1)؛ الذهبي، تاريخ الاسلام (30/37).

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (301/5).

(6) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص188– 190)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (264/1–267).

تخلص أبق في النهاية من أمرائه الواحد تلو الآخر، وكان آخرهم عطاء بن حافظ، وهو أكثر الأمراء شهامة عند أبق(1).

وقد استنجد أبق بالصليبيين، وبذل لهم الأموال للتخلص من حصار نور الدين لدمشق، ولكن كان نور الدين لهم بالمرصاد، فقد استطاع أن يدخل دمشق قبل وصول الصليبيين، وأرسل أعوانه إلى دمشق كي يستميلوا أهلها إلى نور الدين، وكان أهل دمشق يبغضوا حكامها، فمالوا لعسكر السلطان نور الدين محمود، وكاتبوه حتى يسلموا البلد إليه من الباب الشرقي للمدينة، وبمساعدة أهل دمشق لنور الدين استطاع دخولها بالأمان، وحاصر أبق في القلعة، وراسله، وبذل له الإقطاع الكثير، من جملته مدينة حمص؛ فأجاب إلى تسليم القلعة، وسار إلى حمص(2)، حيث كان ملك نور الدين لدمشق سنة "549هـ/1154م"(3).

وما أن استلم نور الدين دمشق محققًا الوحدة الإسلامية تحت سلطة الخليفة حتى أرسل الخليفة المقتفي بأمر الله للسلطان نور الدين عهدًا يبارك خطواته، ويمنحه الشرعية، ويحثه على السير إلى مصر، لانتزاعها من الفاطميين(4).

وبعد أن ملك نور الدين دمشق سار إلى بعلبك سنة "552هـ/1157م"، فحاصرها حتى ملكها من صاحبها الضحاك البقاعي الذي كان يحكمها باسم أبق(5)، وبذلك لم يبق في بلاد الشام سوي مدينة شيزر خارجة عن حكم نور الدين الذي كان صاحبها ناصر الدين محمد(6) متحدًا مع الصليبيين، وقد حانت الفرصة لنور الدين للسيطرة على شيزر، بعد أن أصابها الزلازل سنة "552هـ/1157م" فسار إليها، وملكها(7)، وبملكه شيزر سارت بلاد الشام بأكملها

---

(1) ابن الأثير، الباهر (ص107)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (126/1-127)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (185/5).

(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (304/1).

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (69/1)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (232/12)؛ باركر، الحروب الصليبية (ص51).

(4) السيوطي، حسن المحاضرة (206/1)؛ عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية، (ص63-64) عاشور، ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية (ص469).

(5) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (286/5).

(6) ناصر الدين محمد بن شيركوه : صاحب حمص والرحبة، وهو ابن عم صلاح الدين. ابن كثير، البداية والنهاية (317/12).

(7) ابن الأثير، الباهر (ص110-112).

تحت سلطة دولة يحكمها باسم الخلافة العباسية، وبذلك استطاع نور الدين زنكي أن يملك الشام، وأن يحقق التوازن الاستراتيجي بينه وبين الصليبيين، وقد كان نور الدين زنكي يراسل الخليفة العباسي بين الحين والآخر، حيث كان يشاور، ويراسله بما يحدث في البلاد، ويعلمه بما لديه من حوادث سواء أكان على الصعيد السياسي أم المالى أم العسكري[(1)].

- **الأوضاع الداخلية في مصر قبل سقوط الخلافة الفاطمية**

لقد كان الوزير في الحكم داخل الدولة الإسلامية يلعب دورًا مهمًا في الشئون الداخلية للدولة، حتى أن الخليفة كان يفوضه في كل كبيرة وصغيرة، وبالأخص حين تكون شؤون الدولة منتهكة من قبل كبار الدولة، فقد لعب الوزير في الخلافة الفاطمية دورًا حاسمًا في اتخاذ القرارات الإدارية، والعسكرية، والسياسية دون الرجوع إلى الخليفة، خصوصًا في فتره ضعف الخلافة الفاطمية.

كان وزير الخليفة الفاطمي يُلقب بألقاب جليلة تقابل ألقاب الخليفة، "ولقب بالوزير الأجل المكين، سيد الوزراء، تاج الأصفياء، قاضي القضاة، وداعي الدعاة، علم المجد، خالصة أمير المؤمنين[(2)]" وفي أيام الوزير اليازوري كان يكتب اسمه على السكة مع الخليفة الفاطمي[(3)]، وبعد أن قتل اليازوري دخلت مصر في أزمة إدارية تولى خلالها تسعة عشر وزيرًا للوزارة، وتم تغيير الوزير أكثر من ثلاثين مرة حتى تم تعيين الوزير بدر الدين الجمالي سنة "466هـ/1074م"[(4)].

انتشرت الفتن في مصر بين كبار رجال الدولة؛ بسبب النزاع على السلطة، وعمَّ الفساد والفوضى حتى وقع الصراع بين العبيد، والأتراك سنة "454هـ/ 1062م"، ووقعت معركة شديدة بينهم استمرت ثلاثة أيام قُتل فيها الكثير من العبيد[(5)]، وعلى أثر انتشار الفتن تزعزعت العلاقات الخارجية للخلافة الفاطمية، وسقطت الكثير من المدن التي كانت تخطب باسم الخليفة الفاطمي، مثل: الحجاز التي خطب بها للخلافة العباسية[(6)]، وبعض مدن الشام، وبذلك وجد الخليفة

---

(1) حمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية (ص61).

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفا (212/2)، السيوطي، حسن المحاضرة (281/1).

(3) السيوطي، حسن المحاضرة (202/2).

(4) السيوطي، حسن المحاضرة (202/2-204)؛ ابن حجر العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر (ص135-136).

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (143/28-145)؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا (266/2).

(6) اليافعي، مرآة الزمان (85/3).

الفاطمي لا يملك شيئًا، فاستعان بأحد رجاله في بلاد الشام، وهو بدر الجمالي والي عكا[1]، الذي سار إلى مصر، وسيطر على أمور مصر، واسترد الأموال، والأمتعة للخليفة الفاطمي[2].

وما أن توفي الخليفة الفاطمي المستنصر سنة "487هـ/1094م"[3]، قام الأفضل بتعيين الابن الأصغر للمستنصر في القصر، ولقبه بالمستعلي بالله، وكانت البيعة لنزار في حياة أبيه، فلما مات المستنصر خلعه الأفضل، وبايع المستعلي بالله خوفا منه على نفسه[4]، وأما نزار فقد أنكر بيعة أخيه، ففر إلى الإسكندرية، وأخذ البيعة بها، ولقب المصطفى لدين الله، فسار الأفضل بالعساكر، وحاصر الإسكندرية، واستنزلهم أهلها على الأمان، ثم تخلص من نزار في القاهرة[5].

ومن ذلك نستنتج أن الخلافة الفاطمية مرت في مراحل الانهيار، والضعف، وتسلط الوزراء على الحكم، حتى في شئون إدارة الدولة، وتولية الخلافة، وهذا ما فعله الأفضل من خلع نزار، وتولية أخيه المستعلي؛ وذلك يتضمن بقاءه في منصب الوزارة، وسيطرته على شئون الدولة[6].

- **العلاقات الزنكية الفاطمية قبل إسقاط الخلافة**

مثلت العلاقات الزنكية الفاطمية جانبًا مهمًا في الأمور السياسية الخارجية، والاتصالات الدبلوماسية، من أجل التنسيق العسكري ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام، وأخذ الوزراء يستفردون في الحكم داخل الخلافة الفاطمية دون تدخل الخليفة في الشئون الداخلية، ففي عام "544هـ/1150م" تولى الخليفة الفاطمي الظافر الخلافة بعد وفاة أبيه، فاستبد الوزير بن السلار بالحكم، واستقر بحكم مصر، ولم يكن للخليفة معه حكم[7]، وبعد أن قتل الظافر سنة "549هـ/1155م" تولى من بعده الفائز الذي سيطر على دولته الوزير الصالح بن رزيك[8].

---

(1) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص55).
(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(82/4).
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (497/8).
(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا (11/3-12)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (142/5).
(5) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (85/4)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (143/5-144).
(6) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (85/4)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (143/5-144).
(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (61/9)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر(48/2).
(8) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (396/9).

واستمرت سيطرة الوزير ابن رزيك إلى عهد الخليفة العاضد، حتى مات، فتولى الأمر من بعده ولده العادل، حتى نافسه شاور في الحكم، واستطاع أن يقتله، وأصبح شاور وزيرًا للعاضد، وتلقب بأمير الجيوش، وأخذ الأموال، وتحكم في البلاد[1]، ومن الملاحظ أن العلاقات السياسية الخارجية الزنكية تجاه الخلافة الفاطمية مرت بعدة مراحل كانت تعيش خلالها الخلافة الفاطمية حالة من الضعف، واتحد ابن السلار أثناء الوزارة في مصر، مع نور الدين محمود لمحاربة الصليبيين، فاتفق العسكريون بأن قام عسكر نور الدين بمهاجمة الصليبيين في الشمال، بينما قام العسكر المصري بمهاجمة المدن الساحلية، وقام ابن السلار بإرسال الهدايا، والأموال لنور الدين عن طريق أسامة بن منقذ، وأوضح نور الدين لابن منقذ انشغاله بأمر دمشق[2].

ويلاحظ من انتصار العمليات العسكرية لنور الدين محمود الشام، وعدم رغبته في توسيع رقعة الصراع ليصل إلى غزة، وسواحل الشام مدى اهتمامه في أمر توحيد العالم الإسلامي تحت راية الإسلام، فقد كانت السيطرة على دمشق، وإدخالها في مشروع الوحدة، قد أخذ عنده أولوية في ذلك الوقت، وقد تعددت الاتصالات الدبلوماسية ما بين نور الدين محمود والخلافة الفاطمية لتوطيد العلاقات السياسية بينهم، فقد أرسل نور الدين سفارة إلى القاهرة سنة "552هـ/1157م"، وأعيدت هذه السفارة مرة أخرى في العام التالي[3]،

وفي عام "554هـ / 1159م"، أرسلت سفارة من نور الدين محمود بقيادة الحاجب محمود المسترشدي إلى مصر[4]، ومن المرجح أن الخلافة الفاطمية حافظت على علاقتها مع السلطان نور الدين للاستفاده من قوته العسكرية في أيِّ صراع داخلي وللاستفاده، من نفوذه السياسي عند الخلافة العباسية في بغداد، وبذلك يكون السلطان محمود قد كسب ود الخلافة في صد العدوان الصليبي على البلاد، وكان الخليفة الفاطمي قد أرسل الدعم المالي، والهدايا لنور الدين سنة "558هـ/ 1163"[5]، وفي عام "562هـ/1167م" أرسل الوفود إلى السلطان نور الدين، وهي محمله بالهدايا، والدعم المالي؛ للوقوف في وجه الصليبيين[6].

---

(1)ابن الأثير، المرجع السابق(460/9).

(2) ابن منقذ، الاعتبار (ص10-14)؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا (202/3).

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا (330/3-233).

(4) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص214).

(5) المقريزي، اتعاظ الحنفا (260/3).

(6)المقريزي، المرجع السابق (287/3).

2.2.2 ثانيًا: الحملات النورية على مصر

بعد أن توفى الخليفة الفاطمي الفائز سنة "555هـ/1160م"، كان الوزير الصالح بن رزيك هو المسيطر على أمور الدولة، وأخذ يفرض أمره على كبار رجال الدولة، واستبد بالأمر، وهو من أحضر العاضد لدين الله، وعينه خليفة على الفاطميين، وبويع له بالخلافة، وزوج الصالح ابنته للخليفة، وذلك ليفرض سيطرته الكاملة على الخلافة[1]، وبعد وفاة الصالح بن رزيك تولى على الوزارة ابنه العادل؛ ولكنه لم يستمر في الحكم، فقد استطاع شاور أن يتخلص منه، ويقتله، وأصبح شاور وزيرًا للخليفة الفاطمي العاضد سنة "558هـ/1162م"، وتلقب بأمير الجيوش[2].

من الواضح أن الانقسام الداخلي، والصراع الوزاري على السلطة في مصر، أدى إلى وقوع الكثير من الفتن فيها، حيث استغلت الخلافة العباسية في بغداد هذه الظروف بطريقة جيدة، حيث وجهت أحد رجالها الأقوياء ـ نور الدين زنكي ـ للتدخل في مصر، والعمل بكل قوة للسيطرة عليها لاعادتها تحت رعاية الخلافة السنية في بغداد، ولقد ساعد السلطان نور الدين محمود في السعي إلى السيطرة عليها، والتدخل في الشئون العسكرية؛ هو سوء الأوضاع في مصر في ظل وزارة الأمير شاور، حيث خرج عليه الأمير ضرغام وسيطر على السلطة، ولقب بالمنصور، واستطاع إخراج شاور من القاهرة، وقتل ابنه[3].

وسيطر ضرغام على مقاليد الحكم في مصر، لكن شاور لم يرضى لما حصل له فاتجه إلى الشام قاصد خدمة السلطان نور الدين، ومستنجدًا به ضد الأمير ضرغام، فأحسن نور الدين محمود لقاءه[4]؛ ووافق على دعمه مقابل أن يحكم مصر باسم السلطان نور الدين زنكي، وأن يتكفل بتكاليف الحملة، وأن يكون ثلث خراج مصر لنور الدين، ويكون شيركوه مقيمًا بعساكره في مصر، ويتصرف بأمر نور الدين، فوافق شاور على كل الشروط[5]، ورغم تخوف نور الدين على عسكره من الصليبيين في مصر[6]، وتخوفه من غدر بوعده؛ إلا أنه قوي عزمه على إرسال العساكر[7]، وأخذ باستدعاء شيركوه من حلب، للسير على رأس الحملة إلى مصر،

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (438/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (334/1).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (460/9)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (4/99-100).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (406/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (317/5).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (407/1)؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا(3/261-262).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (465/9)؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا (264/3).

(6) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (407/1).

(7) المقريزي، اتعاظ الحنفا (265/3).

وكان يهدف نور الدين من ذلك إرجاع شاور إلى منصب الوزارة، والانتقام ممن ينازعه فيها، حتى تكمن له السيطرة على مصر، وضمها لجبهة الوحدة الإسلامية بقيادة الخلافة العباسية[1].

لقد كان نور الدين يخشى استيلاء الصليبيين عليها في ظل سوء أوضاعها الداخلية، فقام بتسيَّر الجيش بقيادة أسد الدين شيركوه إلى مصر، وقام هو بمحاربة الصليبيين في الشام، ليمنعهم من اعتراض عسكر شيركوه الذي اصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي[2]، وسار شيركوه من الشام متجهًا نحو الديار المصرية، ووصل إلى السويس، دون علم ضرغام[3]، واستطاع شيركوه هزيمة العسكر التابع لضرغام في بلبيس، ومنها سار نحو القاهرة، واستطاع التخلص من ضرغام، ودخولها[4].

وبدخول شاور القاهرة تم تعيينه للمرة الثانية وزيرًا في مصر سنة "559هـ/1164م" [5]، وما أن سيطر شاور على مقاليد الحكم في الخلافة الفاطمية، حتى غدر بعسكر الشام، ونكث العهد الذي بينه، وبين نور الدين[6]، فأرسل لشيركوه يأمره بالعودة إلى الشام؛ لكن شيركوه رفض ذلك، وطالب بما تم الاتفاق عليه؛ لكن شاور رفض طلبه، فقام شيركوه بتحصين نفسه بمدينة بلبيس[7]، وأخذ يجمع العسكر، والمؤونة، والذخيرة، ويعد نفسه لمواجهة شاور بالقاهرة [8]، فاستنجد شاور بالصليبيين ضد عسكر نور الدين، فلما بلغ نور الدين ذلك، قام بمحاربة الصليبيين لمنعهم من السير إلى مصر؛ ولكن الصليبيين ساروا لمصر لمنع سيطرة عسكر الشام عليها، وما أن وصل الصليبيون مصر، فارقها أسد الدين، وقصد مدينة بلبيس فاتخذها له

---

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (403/1).

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص36).

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفا(266/3).

(4) ابن واصل، مفرج الكروب (139/1)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (347/5).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (466/9)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (139/1).

(6) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (100/4).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (466/9)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (139/1).

(8) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (90/2)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (466/9).

ولعسكره، وقام بتحصينها لحمايتها من الصليبيين [1]، فقام شاور والملك بقيادة العسكرين المصري والصليبي، وفرضوا الحصار على مدينة بلبيس[2].

لم يستطع الملك عموري السيطرة على مصر فطلب الصلح على أن يسلم شيركوه ما بيده إلى الفاطميين ويعود شيركوه إلى الشام، فاستجاب شيركوه لطلبه، بسبب ما كان يعانيه معسكرة من قلة المونه، وعدم مجيء نجدة من أميره نور الدين الذي كان مشغولا في محاربة الصليبيين في الشام، وكان قد اشترط شيركوه تعويضة بثلاثين ألف دينار من قبل شاور وبذلك رحل شيركوه إلى الشام[3]، أما الصليبيون فقد عادوا إلى الشام خائبين منهزميين لم ينالوا شيئًا من مصر؛ ولكنهم حصلوا على الأموال من شاور من أجل تغطية نفقات الحملة، فقد كان يعطيهم عن كل يوم ألف دينار[4].

لم تتوقف الأمور عند هذا الحد، خصوصًا أن القيادة السنية في بغداد تطمع بقوة للسيطرة على مصر، خصوصًا أنها تعيش أقسى درجات الضعف، وهي بذلك باتت معرضة للسيطرة الصليبية، لذلك عملت الآلة الدبلوماسية العباسية بجد لحث رجالها في الشام لتوجيه نشاطهم نحو مصر، من أجل ضمها للجبهة السنية في بغداد، والتي تمثل النقيض التام للوجود الصليبي في المنطقة؛ لذلك توجهت حملة عسكرية ثانية من الشام لمصر عام "562هـ/ 1167م" يقودها أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي[5].

ثم توجهت حملة عسكرية ثالثة لمصر للهدف نفسه عام "564هـ/ 1168م" يقودها أفضل القادة العسكريين في الشام، أسد الدين شيركوه، وصلاح الدين الأيوبي، فانتهت هذه الحملة بالسيطرة على مصر، ووصول أسد الدين شيركوه أحد رجالات الخلافة العباسية وزيرًا لمصر [6]، ولم يستمر شيركوه في الوزارة طويلًا، فقد توفي بعد شهرين من توليه الوزراة، فاجتمعت كلمة العسكر الشامي على تولي صلاح الدين الأيوبي الوزراة، وبعث العاضد للأمراء على من

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (466/9).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (466/9)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (91/2)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، (ص127)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (40/38).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (466/9-467)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين(92/2).

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفا (278/3).

(5) ابن كثير، البداية والنهاية (252/12).

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (353/5).

يصلح للوزارة، فتم تقديم صلاح الدين لها، فوافق الخليفة على تعيينه ظانًا بذلك ضعف صلاح الدين في أمر الدولة[1]، إلا أن صلاح الدين كان على دارية كافية بأمور الدولة[2].

تولى صلاح الدين الوزارة بمصر بعد وفاة شيركوه، وقرأ تقليد صلاح الدين أمر الوزارة بين أرباب الدولتين المصرية، والشامية[3]، ولقبه الخليفة العاضد بالملك الناصر[4]، وبذلك ثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه، وأخذ يقيم الخطبة لنور الدين في البلاد بعد العاضد، وكان صلاح الدين لا يتصرف بشي إلا بأمر من نور الدين[5]، وبذلك أجمع العسكر الشامي على السلطان صلاح الدين بتولي شئون الوزراة، وأنه هو الشخصية الوحيدة التي تستطيع أن تسد مكان عمه بالاتفاق مع نور الدين[6].

يتضح من ذلك أن تولى شيركوه الوزارة، ومن بعده توليها لصلاح الدين الأيوبي أضعف الأمر لدى الخلافة الفاطمية، وكانت بداية لسقوط الخلافة في مصر، وإعلان الخطبة للخليفة العباسي، وبذلك تكون قد تحققت الوحدة بين مصر، والشام، والعراق في الناحية الدينية، والسياسية.

2.2.3 ثالثًا: سقوط الخلافة والأزمات الداخلية في مصر

بعد أن تحصن صلاح الدين الأيوبي في مصر أخذ بإجراء الإصلاحات الإدارية داخل الدولة، واستمال قلوب الناس، وبذل الأموال لهم، وذلك لتثبيت نفسه، أما العاضد فقد ضعف أمره، ولم يكن قادرًا على الوقوف في وجه إصلاحات صلاح الدين[7].

ومن ثم قام صلاح الدين بإصلاح الشريعة، وتنظيم، وتدبير الدولة، وأمر بتغير المنهج المتبع على نهج الطائفة الإسماعيلية؛ وتقرب من عامة الناس، والعلماء[8]، حتى تمكن من البلاد وأصبحت تحت يده، حيث تخلص من كبار رجال الدولة الفاطمية، وتولية الأمراء

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (17/10)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (238/28).
(2) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص40)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (64/2).
(3) ابن كثير، البداية والنهاية (257/12).
(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (71/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى (92/10).
(5) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (71/2)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (155/7).
(6) فرج، الدولة الأيوبية (ص 54).
(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (18/10)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (117/2).
(8) أبو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين (116/2).

الشاميين في شئون الدولة؛ فما كان من الفاطميين بقيادة مؤتمن الخلافة بتدبير انقلاب على صلاح الدين ، حيث قام بمكاتبة الصليبيين لصد صلاح الدين، وبذلك اجتمعت قوى الفاطميين والصليبيين في محاربة صلاح الدين، والقضاء عليه(1)، إلا أن صلاح الدين قد كشف مخططهم فكمن له، واستغل خروجة من القصر؛ فأرسل إليه من قتله سنة "564هـ/1169م(2)"، وقام بملاحقة من عاونه، وأمر بتغير الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة، واستبدلهم بجند تابعين له، وجعل عليهم الأمير بهاء الدين قراقوش(3)، وأصبح "لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بأمره"(4).

ولما علم جند السودان بقتل مؤتمن الخلافة، وعزل خدم القصر ثاروا على صلاح الدين، وانضم إليهم من عزل من الوزراة، حتى أصبح عددهم خمسين ألفًا، وساروا إلى قصر الوزراة ثائرين ، فتصدى لهم صلاح الدين، وألحق بهم الهزيمة حتى أنه قام بإحراق أي مكان يلجأ إليه جند السودان، وقام بإخراجهم من القاهرة(5).

وبسيطرة صلاح الدين على مصر، وحكمها باسم السلطان نور الدين محمود تكون قد اتحدت البلاد الإسلامية تحت راية الخلافة العباسية، لذلك أراد نور الدين إنهاء الخلافة الفاطمية، وضم مصر تحت راية الخلافة العباسية، فأرسل لصلاح الدين يأمره بإسقاط الخلافة الفاطمية، وإقامة الخطبة العباسية بدلًا منها بمصر(6)، كما أرسل الخليفة العباسي المستنجد كتابًا لنور الدين محمود يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة العباسية بمصر، لذلك أرسل نور الدين وفدًا وعلى رأسهم نجم الدين أيوب إلى مصر ليقوي بهم عزيمة صلاح الدين بإسقاط الخلافة الفاطمية، وإعلان الخطبة للخليفة العباسي(7).

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب (1/174-175)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلودن (5/332).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/18-19)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (1/176)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (39/20).

(3) بهاء الدين قراقوش: أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين كان خادم صلاح الدين وقيل خادم أسد الدين شيركوه، توفي سنة (597هـ/1200م). ابن خلكان، وفيات الأعيان(4/91-92).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/19)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (2/191-192).

(5) ابن واصل، مفرج الكروب (1/174-177).

(6) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (2/184).

(7)أبو شامة المرجع السابق (2/152).

وما أن استقر صلاح الدين قام بتمكين الأمراء الشاميين في مناصبهم، وحكم أبوه في أموال مصر، وخزائنها[1]، وقام بمصادرة إقطاعات من كان يخالفه من الفاطميين، ومنحها للأمراء الشاميين[2]، وبذلك أصبح صلاح الدين مهيئًا على إقامة الخطبة العباسية السنية؛ لكنه رأى أن الأمر صعب، فخشي أن تقوم فتنة من أهل مصر، وأعوانهم، فأخذ يتدرج في قطع الخطبة حتى لا تعم الفتنة في مصر[3]، فاتبع صلاح الدين خطوات مهمة في إسقاط الخلافة، وتوحيد مصر مع الشام، والعراق؛ فقام في بداية الأمر بتقليص المذهب الشيعي، وأقام بدلًا منه المذهب السني، ثم أمر بتحويل الأماكن العامة الى مدارس للشافعية، وقام ببناء مدرسة للمالكية[4]، وعزل قضاة مصر الشيعة وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بالقاهرة وأعمالها[5].

تخلص صلاح الدين من إقطاعات العاضد، واستولى على القصور، ثم أبطل من الأذان حي على خير العمل، وأنكر الانتساب إلى المذهب الفاطمي[6]، وقام بإلغاء مجلس الدعوة بالجامع الازهر، وقبض على أمراء الدولة الفاطمية، وصادر أملاكهم، ولما علم العاضد بذلك أرسل إلى صلاح الدين ليطلق سراح الأمراء الفاطميين، فرفض صلاح الدين أمره، وبين له بأنهم قد عصوه في شئون الدولة[7]، وبقى صلاح الدين يدير شئون الحكم بنفسه " وبقي العاضد معه صورة إلى أن خلعه"[8].

اختتم صلاح الدين مشروعه في القضاء على الخلافة الفاطمية بإبطال المكوس، والضرائب التي فرضتها الخلافة الفاطمية على الناس، وبذلك قد اختفى، وانتهى المذهب الإسماعيلي بالكامل[9]، ولما علم نور الدين بأن صلاح الدين قد قوي أمره على الخليفة

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص44)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (238/2).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (18/10).

(3) ابن واصل، مفرج الكروب (200/1).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (32/10)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (182/2)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (344/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (241/28)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (ص39، 31)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (77/2).

(5) ابن كثير، البداية والنهاية (263/12)؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا (319/3).

(6) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (198/2-199)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (263/12).

(7) المقريزي، اتعاظ الحنفا (320/3-321).

(8) الذهبي، تاريخ الإسلام (275/39)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (340/5).

(9) ابن واصل، مفرج الكروب(198/1).

العاضد، كتب إليه يأمره بقطع الخطبة الفاطمية، وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[1]، إلا أن صلاح الدين لم يستطع تلبية أمره متخوفًا من ثورة المصريين التابعين للدولة الفاطمية[2].

إلا أن نور الدين أدرك تأخر إسقاط الخلافة الفاطمية، وأخذ يستعجل في إسقاطها، وأمر صلاح الدين في نهاية الأمر "وألزمه إلزامًا لا فسحة له في مخالفته"[3]، فاستجاب صلاح الدين لأمر سيده نور الدين، فقام باستفتاء الفقهاء بإسقاطها، فأفتوا له بجواز إسقاطها لفساد عقيدة الإسماعيلية[4]، واستغل صلاح الدين مرض الخليفة العاضد، حيث أصبح لا يستطع القيام عن فراشه، فأمر بقطع الخطبة الفاطمية، وأقامها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وذلك يوم الجمعة الأول من محرم سنة "567هـ/1171م"، حيث صعد إلى المنبر الخطيب الأمير العالم ودعا للمستضيء، وفي الجمعة التالية أمر صلاح الدين الخطباء في مصر بقطع خطبة العاضد، والدعاء للمستضيء[5]، ومات الخليفة العاضد دون علمه بقطع الخطبة الفاطمية بمصر[6].

يتضح من ذلك أن صلاح الدين الأيوبي بذل كل الجهد من أجل التخلص من الخلافة الفاطمية، دون الوقوع في حروب، ومشاكل لم يكن على استعداد لأجلها، فقد استطاع القضاء على الخلافة بتفكير وذكاء، ومن الواضح أن ظلم، وتسلط الشيعة على الناس كان له أثر واضح في استقبال الناس خبر قطع الخطبة للفاطميين بشكل طبيعي[7].

---

(1) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص129)؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا(325/3).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (33/10)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (200/1)، المقريزي، اتعاظ الحنفا (325/3).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (33/10)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (200/1)؛ اليافعي، مرآة الجنان (445/3).

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء (212/15).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (33/10–34)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر(78/2).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (34/10)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (191/2)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (157/7)؛ اليافعي، مرآة الجنان (445/3).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (34/10)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (191/2)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (157/7)؛ اليافعي، مرآة الجنان (445/3).

ولما وصلت البشائر لبغداد بقطع خطبة العاضد، وإقامة الخطبة للخليفة المستضيء، أمر الخليفة بضرب البشائر، وزينت بغداد، وقام الخليفة بإرسال الخلع، والهدايا لنور الدين، وصلاح الدين، ولخطباء مصر، وأرسلت الأعلام السود شعار العباسيين إلى مصر[1]، ومن ثم نقش اسم الخليفة على العملة، ونقش على الوجه الآخر اسم السلطان نور الدين محمود[2]، وكان من ضمن ما جاء في رسالة نور الدين للخليفة العباسي المستضيئ "ولم يبق بتلك البلاد منبر إلا وقد أقيمت عليه الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وتمهدت جوامع الجمع، وتهدمت صوامع البدع"[3]. ومن ضمن ما أرسله السلطان نور الدين للخليفة العباسي قول العماد الأصفهاني[4]:

"قـد خطبنـا للمستضـيء بمصـر ... نائـب المصـطفى إمـام العصـر
وخـذلنا لنصـرة العضـد العاضـد ... والقاصـر الـذي بالقصـر
وأشـعنا بهـا شـعار بنـي العبـاس ... ماستشـرت وجـوه النصـر
ووضـعنا للمستضـيء بـأمر الله ... عـن أوليائـه كـل إصـر
وتركنـا الـدعي يـدعو ثبـورا ... وهـو بالـذل تحـت حجـر وحصـر
وتباهـت منـابر الـدين بالخطبـة ... للهاشـمي فـي أرض مصـر"

وبعد أن سيطر صلاح الدين على قصر الخلافة في مصر استولى على كنوزها، وخزائنها، حيث كانت من كثرتها لا يمكن أن تحصى[5]، وقام بتوزيعها على عسكره حتى" ولا يُبقي لنفسه شيئًا"[6]، وهكذا سقطت الخلافة الفاطمية، وحلت مكانها الخلافة العباسية رغم ما كانت تعانية من الضعف، والانحلال داخل الخلافة[7].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (35/10) ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر (345/1)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (78/2)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (266/12).

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك (151/1).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (36/39)؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء (ص446).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (206/2-207)؛ الأصفهاني، ديوان عماد الدين الأصفهاني (ص170).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (34/10).

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص45)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (224/2).

(7) فرج، الدولة الأيوبية (ص67-68).

بعد أن أقام السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للخليفة العباسي المستضيئ بالله كتب للخلافة العباسية " كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره، ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الأمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غربًا ويمنًا وشامًا، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حرمًا حرامًا وأضحى الدين واحدًا بعدما كان أديانًا ... وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالأمر قيام من بر، واستفتح بلباس السواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السواد الأعظم آملا أنه يعود إليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه"(1).

وهذا كتاب آخر إلى الخليفة العباسي من صلاح الدين يذكر فيه دوره في إعادة الخطبة بمصر للخلافة العباسية: "حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فقضى من الأمر ما قضى وأسخط من لله في سخطه رضا وجعل وجه لابسي السواد مبيضا، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم، ودوخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غره بالله الغرور، واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور"(2)، وقد سير السلطان نور الدين وفدًا دبلوماسيًا بقيادة شهاب الدين المطهر إلى بغداد يبشرهم بإقامة الخطبة للخلافة العباسية بمصر، وقد جاء فيه : "ولم يبق بتلك البلاد منبر إلا وقد أقيمت عليه الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وتمهدت جوامع الجمع، وتهدمت صوامع البدع"(3).

فأرسل الخليفة الخلع للسطان مع سفيره عماد الدين صندل الطواشي، حيث سار من بغداد إلى دمشق حاملًا التقليد، والتشريفات للسلطان نور الدين، والأمير صلاح الدين، ولبس نور الدين الخلع، وقلده الخليفة العباسي" السيفين إشارة إلى الجمع له بين مصر والشام، وخرج في دست السلطنة، واللواء منشور، والذهب منثور إلى ظاهر دمشق"(4)، وسير أيضًا إلى صلاح الدين تشريفًا تكريماً له بما قام به من إسقاط الخلافة الفاطمية بمصر "فكان أول، هبة عباسية دخلت الديار المصرية، وقضى أهلها منها العجب، وكان معها أعلام وبنود وأهب عباسية

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (2/195-197).

(2) المرجع السابق(ص366-367).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (36/39).

(4) الذهبي، المرجع السابق (38/39).

للخطباء بمصر"[1]، وفي كتاب آخر " قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الأعداء شفارها، وجمع عليها الدين وكان أديانا، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا"[2]، فأرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء هدايا سنية نفيسة، وكذلك أرسل إلى الملك نور الدين الأموال الكثيرة، كما أرسل إليه ستين ألف دينار، وعطر لم يسمع بمثله[3].

كان صلاح الدين يخبر الخليفة بكل شيء يحصل معه في مصر، من إخماد الثورات، وفتح البلاد، حتى أنه أرسل للخليفة في فتح بلاد النوبة[4] سنة "568هـ/1172م"، كما كتب القاضي الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الخليفة ببغداد في البشرى بفتح بلد من بلاد النوبة أيضًا وانهزام ملكها بعساكره[5]، وقد كان السلطان نور الدين محمود مطلعًا على الأحداث في مصر من قبل صلاح الدين، حيث أرسل صلاح الدين إليه حين أراد أن يغزو بلاد الكرك، والشوبك سنة "568هـ/1172م" وجاء في الكتاب " إلى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه، ومد أبدا إحسانه، ومكن بالنصر إمكانه، وشيد بالتأييد مكانه، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه ... وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان"[6].

وحين تخلص صلاح الدين من مؤامرة عمارة اليمني[7]، وأصحابه، وصلبهم سنة" 569هـ/1173م" أرسل إلى الخليفة بالمؤامرة، وتمكنه من القضاء عليه [8]؛ وبذلك فإن سقوط الخلافة الفاطمية كان قد أعقبتها ثورات كبيرة تزعمها كبار رجال الدولة المصرية العميقة، حيث

---

(1)الذهبي، المرجع السابق (38/39).

(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (367/2).

(3) ابن كثير، البداية والنهاية (266/12).

(4) بلاد النوبة: جزء من أرض السودان، تقع في الجزء الجنوبي من مصر تطل على نهر النيل، وعرض النيل في بلاد النوبة ميل واحد. الحموي، نزهة المشتاق (34/1).

(5) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (505/6-510).

(6) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (239/2-240).

(7) عمارة اليمني: أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن ريدان بن أحمد الحكمي اليمني، الملقب نجم الدين الشاعر المشهور. ابن خلكان، وفيات الأعيان (431/3).

(8) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (286/2-287)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (366/39-367).

تأثروا بسقوط دولتهم، ولقد بذل صلاح الدين جهدًا عظيمًا في صدهم حتى استطاع في النهاية إخماد ثوراتهم قبل أن تكبر، وتعم البلاد[(1)]، وحينها وصل للسلطان نور الدين منشورٌ من قبل الخليفة عن طريق سفارة دبلوماسية بقيادة السفير كمال الدين الشهرزوري[(2)] يحمل تقليدًا للسلطان نور الدين محمود على الموصل، والجزيرة، وإربل، وخلاط، والشام، وديار مصر[(3)]، ورد السلطان نور الدين السفير الشهرزوري بتحف، وهدايا قدمها للخليفة العباسي[(4)].

كما أرسل نور الدين إلى الخليفة مع السفير كمال الدين الشهرزوري كتابًا مضمونه أن كل ما يقوم به من نشاط سياسي، وعسكري، هو بأمر الخلافة العباسية، وتحت رايتها، وبتوجيه من الخلافة، لذلك فهو يريد مزيدًا من التأييد، والشرعية، ويطالب تقليدًا بما بيده من بلاد مصر، والشام، والجزيرة، والموصل، وكذلك البلاد التي تحت طاعته، فكان رد الخلافة العباسية سريعًا، حيث أعطته ما طلب، وأمدته بالأموال، والميزانيات لبناء المدارس الشافعيه التي تعمل ضمن رؤية الخلافة العباسية في بغداد[(5)].

ومن الواضح أن الخلافة العباسية في بغداد قد حققت نصرًا عظيمًا في هذه الجولة ، فقد استطاعت بحنكتها، وذكائها الدبلوماسي، ضم مصر للجبهة الإسلامية السنية، فالآلة الدبلوماسية العباسية نجحت في وضع حجر الأساس في بناء جبهة إسلامية تكون مصر أحد أهم أعمدتها، بما تمثله مصر من موارد بشرية، وعقول، وعلماء، وموارد طبيعية بحار، وأنهار، وموقع استراتيجي، فمن المرجح أن الخطوات التالية للعمل الدبلوماسي العباسي هو الاعتماد على مصر، والانطلاق منها لتوحيد الإمارات، والمقاطعات الأخرى.

ويتضح من ذلك بأن علاقة الخلافة العباسية كانت قوية فقد كانت لها اليد العليا في بلاد الشام، ومصر، بأن كانت على دراية كاملة بكافة الأحداث في البلاد، وكانت على تواصل مع الأميرين: صلاح الدين الأيوبي، ونور الدين زنكي، حيث كان الأمراء يرسلون للخلافة الوفود،

---

(1) فرج، الدولة الأيوبية (ص78–79).

(2) القاضي كمال الدين الشهرزوري محمد بن عبد الله بن القسم أبو الفضل الشهرزوري، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولا من أتابك زنكي ثم إنه وفد على نور الدين فبالغ في إكرامه وجهزه رسولا من حلب إلى الديوان العزيز، وتولى قضاء دمشق. الصفدي، الوافي بالوفيات (266/3).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (48/10)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (181/12).

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام (48/39).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (51/10).

والبعثات، ومن خلالها يخبرون الخليفة بالأحداث في مصر، والشام، في المقابل كان الخليفة يرسل إليهم الهدايا، والتحف، ويعطيهم التقاليد بحكم البلاد التي تحت سلطتهم، وهذا إن دل فقد يدل على قوة العلاقة الدبلوماسية بين الخلافة العباسية، وأتباعها في بلاد الشام ومصر.

2.3 المبحث الثالث: دور مؤسسة الخلافة العباسية في استغلال جهود الدولة الأيوبية لتوحيد القوى الإسلامية

2.3.1 أولًا: توحيد الكيانات الإسلامية زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي

على الرغم من فقدان الخلافة العباسية إلى القوة العسكرية لمحاربة الخطر الخارجي، والوقوف في وجه ما يعارض سياستها، إلا أنها كانت تتمتع بالسلطة الروحية الشرعية على البلاد التي تخطب باسم الاخلافة العباسية، وكان الخلفاء العباسيون يستغلون الصراع الداخلي بين الكيانات الإسلامية لصالحها، وذلك من خلال جهود السلاطين في إرسال الهدايا، والتحف للخلافة العباسية من أجل أن يرضى الخليفة عنه، ويرسل له الخلع، والتقليد على حكم البلاد التي تحت حوزته.

فعندما أصبح صلاح الدين المتحكم في شئون مصر، أخذ يسير بخطوات مدروسة، عبر خطة معدة بإحكام من قبل الخلافة العباسية فقد تم تكليف نور الدين محمود والي الشام بتنفيذها، فالهدف هو إعادة الوحدة للعالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية، لذلك عندما بدأ يوسع نفوذه في شمال افريقيا، واليمن، وطلب الإذن من نور الدين، لم يتوان نور الدين بإرسال الموافقة على هذه الخطوات، كما أرسلت الخلافة العباسية مباركتها لهذه الخطوات[1].

وعندما سيطر صلاح الدين على بلاد مصر، واليمن، والنوبة، توفي بعدها السلطان نور الدين، فتفكك ملكه، وتشتت المسلمون بعد أن استطاع نور الدين توحيدهم، ولم يكن بين رجال الدولة الزنكية رجال أقوياء يخلفون نور الدين في الحكم، لذلك انقسمت دولته إلى ثلاث دويلات تمركزت في المدن الرئيسة: الموصل، ودمشق، وحلب، وبقيت مصر معزولة عن بلاد الشام تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي الذي أخذ ساعيًا في إعادة توحيد المملكة تحت سلطته للوقوف في وجه الاحتلال الصليبي، وتحرير البلاد الإسلامية.

ولتحقيق هدفة قام بالتدخل في شئون بلاد الشام تحت حجة حماية الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان نور الدين محمود، فقام بمكاتبة الأمراء النوريين في دمشق، وحلب بأنه أحق

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب (237/1–243).

بالوصاية للملك الصالح إسماعيل؛ لكن الأمراء رفضوا طاعته على أن يكون الوصي على الملك الصالح إسماعيل(1).

- **سيطرة صلاح الدين على دمشق**

رفض أمراء الشام الوصاية لصلاح الدين على الصالح إسماعيل، فأخذ بتجهيز الجيش، وحانت له الفرصة بعد أن هاجم الصليبيون بانياس، مما جعل ابن المقدم لما رأى سوء الأوضاع في بلاد الشام، أن كاتب صلاح الدين يستدعيه لحكم البلاد(2)، فعهد صلاح الدين أمر مصر لأخيه الملك العادل(3)، فخرج متوجهًا إلى دمشق، فدخلها المدينة بسلام وذلك سنة "570هـ /1174م"، وتسلّم قلعتها(4).

وبدخول صلاح الدين دمشق اجتمع بالناس في دار أبيه وأنفق عليهم أموالًا، وأظهر الفرح، والسرور بالدمشقيّين، ومن ثم اتجه نحو حمص يريد ضمها للملكته لتساعده في السيطرة على حلب(5)، ثم اتجه نحو حماة، فملكها، ثم تواصل مع أخيه العادل في مصر، فكتب له يبشره بالانتصارات، ويرسل له خط سيره القادم، ثم ختم رسالته بهذه الكلمات " والله المعين على ما ننويه من الرشاد"(6)، وهذه الكلمات تدل، وتدعم ما ذهب إليه الباحث بأن صلاح الدين كان يسير حسب خطة معدة مسبقًا لتوحيد العالم الإسلامي كلف بها نور الدين محمود من قبل الخلافة العباسية، فأنجز منها جزءًا، ولأن ينتقل التكليف لصلاح الدين، وليس للزنكيين؛ لأن الخلافة العباسية بحنكتها الدبلوماسية على دراية بأن هذا المشروع لا يقوى عليه إلا حاكم قوي طموح يستند إلى بلد كبير، مثل: مصر، فهي لم تسند الأمر للزنكيين على الرغم بأحقيتهم في وراثة الدولة.

كان ابن الداية قد سيطر على حلب، وجعل نفسه الوصي على الصالح إسماعيل؛ لكنه لم يدم طويلًا، فقد انقلب عليه الأمير كمشتكين، وسيطر على حلب، وأخذ يدافع عنها، ويحاول

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (58/10).

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص50).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (117/10).

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص50).

(5) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص50)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (ص365).

(6) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (353/2).

إبعاد صلاح الدين عنها، وما إن علم صلاح الدين بذلك قام بإرسال عز الدين جورديك أمير حماة، رسولًا لكمشتكين لعقد الصلح بين الطرفين، فقام كمشتكين بأسره[1].

ومن الطبيعى أن يسير صلاح الدين إلى حلب؛ لإنقاذ رسوله، والملك الصالح إسماعيل من قبضة كمشتكين، فقام بمحاصرة المدينة سنة "570هـ /1174م"[2]، فاستنجد كمشتكين بالإسماعيلية، وبذل لهم أموالًا للتخلص من صلاح الدين، فوافق رئيس الإسماعيلية بشرط نشر المذهب الإسماعيلي في المدينة وتم الأتفاق بينهم للتخلص من صلاح الدين[3]، فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكر صلاح الدين؛ لكنهم فشلوا في الوصول إليه، وتم القبض عليهم[4].

واستمر كمشتكين للتخلص من جهود صلاح الدين في توحيد البلاد فاستنجد بقائد الصليبيين بريموند الثالث، وطلب منه العون للوقوف في وجه صلاح الدين من أجل إحباط الوحدة الإسلامية[5]، مما جعل صلاح الدين يرفع الحصار عن حلب حتى لا يفتح جبهة عند الصليبيين، وسار إلى حماة، وخلص حمص من الصليبيين، واتجه نحو بعلبك، فحاصرها، فطلب أهلها الأمان، فأمنهم، وتسلم القلعة، وبذلك أصبح صلاح الدين مسيطرًا على معظم بلاد الشام[6]، واستطاع صلاح الدين توحيد مصر، والشام، وفتح اليمن، والحجاز، وأرسل إلى الخليفة المستضيئ بأمر الله يبلغه بتوحيد الجبهة الإسلامية، وطلب منه تقليده على تلك البلاد، فأرسل إليه الخليفة يبارك خطواته، ويمنحه " تقليد جامع بمصر، واليمن، والمغرب، والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا"[7]، ومن الواضح أن

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (67/10)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (ص365).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (67/10).

(3) ابن كثير، البداية والنهاية (288/12-289)؛ زيان، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية (ص80).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (67/10.-68)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (24/2).

(5) ابن واصل، مفرج الكروب (24/2).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (68/10)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (ص367).

(7) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (365/2)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (67/39)؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبري (20/7)؛ القلقشندي، صبح الأعشى (95/13).

الخلافة تسارع بالدعم، وإضفاء الشرعية من حين لآخر، وتعطي الضوء الأخضر للزحف الأيوبي؛ لأنه يمثل سيف الخلافة العباسية[1].

وأما على جبهة الجزيرة فقد كان سيف الدين غازي مراقب توسعات صلاح الدين في بلاد الشام، وكان متخوفًا من سيطرة صلاح الدين على حلب؛ لأنه لو ملكها يصبح من السهل سيطرة صلاح الدين على الموصل[2]، لذلك استغل استنجاد الملك الصالح به، واقتنع بضرورة مساعدة ابن عمه، فأخذ يجمع الحشود، والعساكر من الموصل، والجزيرة، وأرسل الى أخيه عماد الدين الثاني، لمساعدته؛ لكن أخاه رفض مساعدته، لكونه متفقًا مع صلاح الدين لينزع الحكم من أخيه، فهو كبير البيت الزنكي، فلما رأى سيف الدين امتناعه، جهز أخاه عز الدين مسعود في جيش كثير، وسيره إلى الشام[3].

فالتقى الجيشان عند قرون حماة، وقامت بينهم معركة، وهي من أهم المعارك في رمضان، انهزم فيها جيش الموصل، وغنم صلاح الدين أموالهم، وأخذ يتبعهم حتى حاصرهم في حلب، فقطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح إسماعيل، وأزال اسمه عن السكة، فراسلوا صلاح الدين في الصلح، على أن يكون له ما بيده من الشام، وللملك الصالح ما بقي بيده منه، فصالحهم على ذلك، ورحل عن حلب [4].

كان صلاح الدين يُعلم الخليفة المستضيء بأمر الله بكل جديد من أجل ذلك سير إليه وفدًا يخبره بما حصل مع أهل بالشام من نزاع مع الزنكيين، وشرح له أهدافه من هذا الزحف، فالهدف هو توحيد الكيانات الإسلامية تحت سلطة الخلافة العباسية، فأرسل اليه الخليفة الرسل محملين بالهدايا، والتشريفات، والتهنئة بانتصاره، ولقبه بملك مصر والشام[5]، وأرسل إليه

---

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (365/2)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (67/39)؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبري (20/7)؛ القلقشندي، صبح الأعشى (95/13).

(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (381/2).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (69/10).

(4) ابو الفداء، المختصر في أخبار البشر (1، 349)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (83/2).

(5) الذهبي، تاريخ الاسلام (65/39)؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبري (363/7)؛ عاشور، ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية (ص474).

الأعلام السود، والتوقيع من الديوان بالسلطنة على بلاد مصر والشام، وأفيضت الخلع على أهله، وأقاربه، وأصحابه، وأعوانه[1].

ويتضح من تلك المعركة بأن مصير الموصل كان مرتبطًا ببلاد الشام، حيث لو اتحدت بلاد الشام بيد صلاح الدين، سوف تكون نهاية الدولة الزنكية على يده؛ لذلك أخذ سيف الدين غازي الثاني في الدفاع عن حلب من أجل بقائها تحت حكم آل زنكي، ومقاومة لخطة صلاح الدين، التي تسعى إلى توحيد الجبهة الإسلامية، أخذ سيف الدين غازي يعد العدة من أجل الانتقام، وقام بتحريض أمراء الشام ضد حكم صلاح الدين، في المقابل كان صلاح الدين يجهز نفسه للمعركة الفاصلة، وطلب المساعدة من أخيه بمصر، فسير له العساكر المصرية، واجتمعوا بالسلطان صلاح الدين[2]، وأثناء مسير عسكر الموصل إلى الشام التقى العسكر بصلاح الدين عند تل السلطان، وجرى بينهم قتال عظيم، انتصر فيه السلطان صلاح الدين، فعاد الأمير سيف الدين غازي الثاني منهزمًا إلى بلاده، خائبًا في التصدي لعسكر السلطان صلاح الدين في الشام[3].

والجدير ذكره أن صلاح الدين كان على اتصال مع الخلافة العباسية يخبره بما حدث من تطورات، حيث قام بمراسلة الخليفة، وبين له سبب مجريات الحرب مع الزنكيين :" أن الحلبيين والموصليين وضعوا السلاح، وخفضوا الجناح، واقتصر الأمر على مواجهة الكفار، وكتب بينهم العهد والإيمان، وحلف الجميع؛ ولكن اتفق الطرفان الموصليين، والحلبيين على حربنا، والتساعد على حزبنا، وعلمنا أن الناقد بصير، والمواقف الشريفة مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض العهد، وإما الفسحة لنا في حربه"[4]، ولعل هذا الكتاب يؤكد بشكل واضح إشراف الخلافة العباسية على الأحداث؛ بل توجيهها، فصلاح الدين يطلب من الخلافة الإذن في قتال باقي الزنكيين الذين نقضوا العهود، والمواثيق، وباتوا يشكلون عقبه أمام مشروع الوحدة الذي تنشده الخلافة، وينفذه صلاح الدين من خلال إرسال إليه بعض الوفود، والرسل، ومنحه تقليدًا بحكم البلاد التي تحت يده.

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية (291/2).

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص51).

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص51)؛ اليافعي، مرآة الجنان (407/3).

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام (9/40).

وبهذا الانتصار الحاسم الذي حققه صلاح لدين في معركة قرون حماة، وتل السلطان، تمهد له بأن يضم حلب، ونواحيها، وأخذ يشن بعض الغارات على أملاك خصومه في المنطقة، وفي النهاية رأى الطرفان بضرورة الدخول في مفاوضات من أجل السلام، ومواجهة الصليبيين، وتقررت القاعدة في الصلح للجميع؛ واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عونًا على الناكث الغادر [1].

وكانت وفاة سيف الدين غازي الثاني، وتولية أخيه عز الدين مسعود قد غيرت مجرى الأحداث في الموصل، فقد دخلت في صراعات على السلطة، وكان سيف الدين قد عهد الملك من بعده لابنه معز الدين سنجر؛ لكنه لم يستطع إدارة الدولة، في مواجهة صلاح الدين، لذلك تم تعيين عز الدين مسعود خلفًا له[2]، مما اتاح لصلاح الدين فرصة التدخل في الشئون الداخلية للموصل بسبب الخلافات حولهم، فقد أرسل عز الدين مسعود عهدًا مع صلاح الدين على أن تستمر العلاقات الجيدة بينهما، وبقاء سيادة الموصل، ومدن الجزيرة، وهي: الرها، والرقة، وحران، ونصيبين، والخابور في يده[3]، إلا أن السلطان صلاح الدين رفض ذلك العهد، وقام بمكاتبة الخليفة العباسي يعلمه بذلك، ويبين له بأن هذه البلاد ما زالت عبارة عن ثغور لبلاد الشام يجب تقويتها، وسأل الخليفة بأن يفوضه بها[4]، وقد جاء بالكتاب" قد علم الله سبحانه أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكنا قد بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولًا، وكالأنعام، أو أضل سبيلًا، إن بني معهم فعلى غير أساس، وإن عدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس"[5].

فأرسل الخليفة وفدًا دبلوماسيًا بقيادة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم، وبشير المستنجدي الخادم إلى السلطان صلاح الدين؛ لتفويضه، وتشريفه، وتقليده، على ما بيده من البلاد، وما جاء في التقليد" ما كان يملك الأجل السيد صلاح الدين، ناصر الإسلام، عماد الدولة، جمال الملة، فخر الملة، صفي الخلافة، تابع الملوك والسلاطين، قامع الكفرة

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (77/10).

(2)ابن الأثير، المرجع السابق(101/10).

(3) ابن واصل، مفرج الكروب (94/2).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (61/3)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (94/2-95).

(5) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (85/3).

والمتمردين، قاهر الخوارج، والمشركين، فخر المجاهدين، ألب غازي بك أبو يعقوب يوسف ابن أيوب، أدام الله علوه على هذه السجايا مقبلًا"[1].

وأثناء تقلب الأحداث في الموصل توفي الملك الصالح إسماعيل، وكان قد فوض الأمر من بعده لابن عمه عز الدين مسعود في حكم حلب سنة "577هـ/1181م"، وبذلك زاد الشقاق بينه، وبين صلاح الدين[2]، فقد استغل عز الدين الفرصة، وسار إلى حلب، وتسلم الحكم فيها، وأشار عليه أهل حلب بقصد دمشق، وأطمعوه فيها، وفي غيرها من بلاد الشام، وأعلموه محبة أهلها له، ولأهل بيته؛ لكنه رفض طلبهم، وقال لهم :"بيننا يمين فلا نغدر به"[3]. وقد طمع عماد الدين زنكي الثاني في حلب، فأرسل إلى أخيه عز الدين يطلب منه حلب مقابل أن يعطيه بدلًا منها سنجار؛ ولكن رفض أخوه الطلب، فثار عماد الدين، وهدده بتسليم سنجار إلى صلاح الدين، فأذعن عز الدين لطلب أخيه، وقام بتسليمه حلب، وأخذ سنجار عوضًا عنها، وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عماد الدين لحلب [4].

إن التطورات السياسية التي شهدتها بلاد الشام، وسيطرة عز الدين مسعود على حلب، قد دفعت صلاح الدين الأيوبي بالسيطرة على الشام بأكمله، وضم الموصل إلى مملكته؛ لأن الخليفة العباسي قد فوض صلاح الدين ببلاد الشام، وهذا ما شجع صلاح الدين إلى اتخاذ الإجراءات من أجل فك حلب عن الموصل؛ ليساعده ذلك في ضم حلب، وتوحيد بلاد الشام.

قام صلاح الدين بمراسلة الخليفة العباسي يعلمه بوفاة الملك الصالح إسماعيل " قد أحاط العلم بما طالع به أولًا عند وفاة ولد نور الدين رحمه الله أن التقليد الشريف المستضيء لما وصله بالبلاد وكان قد فتح أكثرها قلاعًا، وأمصارًا، وحصونًا، وديارًا، ولم يبق إلا قصبة حلب، وهو على أخذها عدل ولد نور الدين عن القتال إلى النوال، وعن النزال إلى الإستنزال ... فأقره على الولاية فرعًا لا أصلًا، ونائبًا لا مستقلًا، وسلم إليه البلاد ... إلى أن قضى نحبه، ولقي ربه، فبدا من المواصلة نقض الأيمان، والابتداء بالعدوان، والتعرض للبلاد، والتصرف فيها بغير

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام (40/41-42).

(2) الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق (ص60)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/106)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص184).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/107)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (ص382)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (ص3، 78).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/107-108).

حجة يكون عليها الاعتماد، فطالع الديوان بالقضية، واستشهد بدلالات قوانينه الجلية في هذا التقليد"[1].

وكان صلاح الدين يحارب الصليبيين في ثغور بلاد الشام بالقرب من طبرية، ومن ثم عاد إلى دمشق فكون عسكره واتجه به نحو بلاد الجزيرة وتظاهر بأنه يريد محاصرة حلب [2]، فأصدر كتابًا للأمراء يرغبهم بالدخول في طاعته، وأرسل إليهم أنه من جاء مستسلمًا سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان، وأتباعه في جهاد الكفار[3]، فأرسل عماد الدين الثاني إلى السلطان صلاح الدين بأن" امضِ إلى سنجار، وسلمها إلي وأنا أعطيك بدلًا منها حلب"، لذلك سار صلاح الدين إلى الجزيرة [4]، وعبر صلاح الدين الفرات، وسيطر على بلاد الجزيرة، ثم اتجه نحو الموصل، فحاصرها؛ لكنه لم يتمكن من تملكها فعاد إلى حلب، وحاصرها، وتسلمها من عماد الدين زنكي الثاني، وسبب ذلك أن عز الدين لما تسلم حلب لم يترك في خزائنها من السلاح، والأموال شيئًا إلا نقله إلى الموصل، وتسلمها عماد الدين، وهي فارغة، وكان من ضمن البنود التي تم الاتفاق عليها في المفاوضات التي جرت بين الطرفين ما يأتي :

- يتنازل عماد الدين زنكي الثاني عن حلب لصلاح الدين.
- يسلم صلاح الدين سنجار، والخابور، ونصيبين، وسروج، والرقة لعماد الدين عوضاً، عن حلب[5].
- يضع عماد الدين زنكي قواته العسكرية، تحت خدمة السلطان صلاح الدين متى طلب منه[6].

أن صلاح الدين كان حريصًا على وضع مؤسسة الخلافة بالتطورات أول بأول، فهو يعتبر نفسه يعمل تحت إمرتها، وينفذ مشروعاتها ، لذلك كان قد أرسل كتابًا إلى الخليفة العباسي يبين له ضم بلاد الجزيرة، وحصار الموصل، وما فعله المواصلة من الاستنجاد بالصليبيين ضده[7].

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (88/3).
(2) أبو شامة، المرجع السابق(79/3).
(3) الأصفهاني، البرق الشامي (26/5)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (122/3).
(4) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب (3859/8).
(5) ابو شامه، الروضتين في أخبار الدولتين (79/3).
(6) ابن واصل، مفرج الكروب (142/2).
(7) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (116/3−122).

ضم الموصل تحت سلطة السلطان صلاح الدين الأيوبي

بعد أن سيطر صلاح الدين الأيوبي على حلب، وقوي أمره في بلاد الجزيرة، لم يبق أمامه سوى الموصل ليكتمل بيده توحيد البلاد تحت يده، فقام بمراسلة الخليفة العباسي الناصر لدين الله يوضح له ما حصل من بلاء على بلاد الإسلام، ويبين مدى الخدع، والخيانة، التي يقوم بها الزنكيون من استنجاد بالطائفة الإسماعيلية، والصليبيين من أجل الوقوف في وجه الوحدة الإسلامية، وبعد أن حاصر صلاح الدين مدينة حلب ثلاثة أيام، رحل إلى الموصل لانتزاعها من الزنكيين، وسيطر على مدن الجزيرة، وقرب الأمراء إليه، ومنحهم مدن الجزيرة[1]، واستطاع أن يُكّون حلفًا مناهضًا لإمارة الموصل، ولم يكن له سوى القدوم نحوها، وتملكها، فسار إليها سنة "578هـ/ 1182م"، وضرب عليها الحصار، وشدده، ونصب المنجنيق عليها، واشتد القتال بين الفريقين؛ ولكنه لم ينل منها شيئًا، بسبب حصانتها[2].

كان عز الدين مسعود قد استنجد بالخليفة العباسي، وأرسل إليه القاضي بهاء الدين ابن شداد لرد صلاح الدين عن الموصل، فكتب الخليفة إلى شيخ الشيوخ، وكان بصحبة صلاح الدين يأمره بالتوسط في الصلح بين الطرفين، وعندما وصل الموصل أرسل إليه صلاح الدين "هذه أشهر شراف، وقد عزمنا على الرحيل، ونهب لوصولك الموصل"[3]، وكان عز الدين مسعود قد أرسل إلى أمراء أذربيجان، وخلاط، وهمذان الرسل، واستنجدهم لرد صلاح الدين، فاستجاب صلاح الدين لوساطة الرسل بشرط ألا يتدخل عز الدين بأمر حلب، ولا يقدم لهم أي مساعده [4]؛ وكانت حينها حلب بيد عماد الدين، وقد كان رحيل السلطان صلاح الدين عن الموصل "إظهارًا لقبول الشفاعة الإمامية الناصرة لدين الله"[5]، حيث كان الخليفة الناصر قد طلب من السلطان صلاح الدين بأن يشفع لصاحب الموصل، ومن ثم ضم صلاح الدين سنجار، وآمد، وعمل على مقايضة عماد الدين بأن سلم إليه سنجار مقابل تسليم حلب ، وبعد أن تسلم حلب، واستطاع توحيد بلاد الشام أخذ يعد العدة من أجل السيطرة على الموصل[6].

---

(1) الأصفهاني، البرق الشامي (27/5-31).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (114/10-115)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (120/2-121).

(3) الأصفهاني، البرق الشامي (40/5)؛ الأيوبي، مضمار الحقائق (ص110).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (115/10)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (121/2-123).

(5) الأيوبي، مضمار الحقائق (ص113).

(6) الأيوبي، مضمار الحقائق (ص113).

كان الأمير عز الدين مسعود قد قبض على نائبة قيماز، وسيطر على أملاكه فقد كان تحت حكمه حينئذ إربل، وجزيرة ابن عمر، وشهرزور، ودقوقًا، وقلعة عقر الحميدية، وبها نواب يحكمون باسمه وأموال سنة "579هـ/1148م" لكن رفض بعض الأمراء الانصياع تحت حكم عز الدين ومنهم زين الدين يوسف، ومعز الدين سنجر شاه، فأرسلاه برسالة ولاء إلى صلاح الدين، مما دفع عز الدين مسعود الميل إلى الدبلوماسية العباسية للصلح مع صلاح الدين، فأرسل القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الخليفة العباسي يطلب منه التوسط من جديد في الصلح بينه لذلك فستجاب الخليفة لطلبة، وأرسل سفارة بقيادة شيخ الشيوخ، وبشير الخادم إلى دمشق للصلح بين الطرفين وحل المشاكل القائمة بينه وبين والى الموصل، وانضم إليهما محي الدين الشهرزوري ممثلًا عن الموصل، ومعه القاضي ابن شداد[1].

لكن هذه المرة قد تعثَّرت المفاوضات، ثم توقفت، لأن صلاح الدين اشترط أن يكون لأميري إربل، وجزيرة ابن عمر، حرية الاختيار في الانضمام إليه، أو إلى حاكم الموصل، وهذا ما رفضه ممثل عز الدين مسعود الذي تمسك بتبعيتهما لصاحب الموصل[2].

وبعد أن خرج قيماز من السجن، وأراد أن يحرر أملاكه التي كان بيد صلاح الدين، فحاول السيطرة على إربل؛ لكنه فشل في تملكها، فما كان من صلاح الدين إلا أن يسير إليها، فحشد قواته، وخرج على رأسها إلى حّران سنة "581هـ/ 1185م" ونزل برأس العين، ثم سار إلى دنيسر، وانضم إليه عماد الدين بن قرا أرسلان، وأخوه نور الدين، وساروا جميعًا إلى نصيبين، واتحد معهم معز الدين سنجر شاه، وتابع صلاح الدين سيره نحو الموصل حتى نزل بموضع يعرف بالإسماعيليات قرب الموصل، بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة تحاصر الموصل، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين، فطلب من السلطان صلاح الدين دستورًا بملك أخيه، فمنحه السلطان ذلك[3].

وقام السلطان صلاح الدين بمراسلة الخليفة العباسي يخبره بعزمه على تصفية أموره في الموصل، وأشار إلى أن أهلها يخطبون باسم طغرل السلجوقي سلطان العجم، المعادي للخليفة، ويضربون السكة باسمه، كما أنهم يراسلون الصليبيين، ويحرضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين، وأنه لم يأت رغبة في توسيع ملكه، أو التخلص من البيت الزنكي؛ وإنما قصد أن

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص65).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/123-124)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (2/155-156).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (3/227)؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص140).

يردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام، ومنعهم من ارتكاب الظلم، وانتهاك الحرمات، وقطع صلتهم بسلاجقة العجم، وإلزامهم بحفظ حق العباسيين بالموصل[1].

المتأمل لكتاب صلاح الدين، يقرأ الكثير من بين السطور، كما يقرأ واقع الحال، وتعقيدات العلاقات السياسية في تلك الحقبة، فصلاح الدين وضع أسباب واضحة لعملياته ضد الموصل، وبناء على هذه المبررات طالب بالإذن، فالموصل تغرد خارج السرب، فقوة الموصل، ومواردها يجب أن تستغل في مشروعات الخلافة العباسية، وليس لخدمة العجم أو الصليبيين، فالدبلوماسية العباسية ستأذن لصلاح الدين بالتحرك والضغط على الموصل عندما ستلجأ الموصل للاحتماء بالخلافة العباسية، والتي بدورها ستوجهها لإبرام صفقة دبلوماسية.

فاستنجد عز الدين مسعود بالخليفة العباسي ضد صلاح لدين؛ لكن الخليفة لم ينجده هذه المرة، لذلك أيس عز الدين من تلك الضغوط[2]، فمال إلى المهادنة، وأرسل إلى صلاح وفدًا ضم دولته، وابنة عمه نور الدين محمود، وجماعة من أعيان الدولة لطلب الصلح، وفك الحصار عن الموصل، وكان رأي صلاح الدين قبول الصلح لولا اعتراض الفقيه عيسى الهكاري[3]، والأمير على بن أحمد المشطوب[4]، اللذين حذّراه من الإقدام على قبول الصلح، وقالا له: "مثل الموصل لا يترك لإمرأة"، فإن عز الدين مسعود ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد، فاقتنع برأيهما، واعتذر لوفد الموصل[5]؛ وتم الاتفاق على أن يستلم عز الدين مسعود شهرزور، وجميع ما وراء الزاب مقابل أن يخطب لصلاح الدين على منابر الموصل، ويضرب اسمه على السكة[6].

وسار إلى مدينة خلاط؛ لكنه لم يستطع أن يتملكها، فتوجه منها إلى ميافارقين التي كانت تحت حكم حسام الدين إلغازي، وقد رفض الانضواء تحت راية صلاح الدين، وأعلن عصيانه،

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب (166/2).

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص70).

(3) الهكاري: الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد يرجع نسله لعلي بن أبي طالب، ويقال له الهكاري الملقب ضياء الدين. ابن خلكان، وفيات الأعيان (497/3).

(4) المشطوب: الأمير مقدم الجيوش سيف الدين علي بن أحمد ابن صاحب قلاع الهكارية أبي الهيجاء الهكاري نائب عكا. الذهبي، العبر في خبر من غبر (267/4).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (131/10-132).

(6) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (357،1)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (355/5).

فاضطر صلاح الدين إلى حصار المدينة إلا أنه لم يتمكَّن من اقتحامها، فمال إلى استعمال أسلوب الدهاء السياسي، حيث أوقع بين أمرائها، وبهذا الأسلوب ضَّم البلد إلى أملاكه عام "581هـ/ 1186م"[1]، ووصل إلى صلاح الدين آنذاك كتاب من الخليفة العباسي بتقليده أمر ديار بكر، ومصالح أيتام ملوكها، فخطب له في الولايات الأرتقية، وضُربت النقود باسمه[2].

وكان الخليفة العباسي الناصر لدين الله قد فوض ولاية العهد إلى ولده عدة الدين أبى نصر محمد من بعده، وأرسل إلى صلاح الدين من أجل إقامة الخطبة له من بعده في مصر، والشام، وجميع بلاد الإسلام، فأكرم صلاح الدين رسول الخليفة، وعاد الرسول إلى بغداد، ومعه " الهدايا والتحف السنايا، وأسارى الفرنج الفوارس وعددها النفائس، وتاج ملكهم السليب، والملبوس، والطيب، والصليب"[3].

وبذلك نجح صلاح الدين الأيوبي في توحيد مصر والشام والجزيرة تحت سلطته باسم الخلافة العباسية، واستغرق ذلك معه اثنتي عشرة سنة حتى أصبح على استعداد تام لمواجهة الخطر الصليبي الذي يداهم البلدان الإسلامية[4].

2.3.2 ثانيًا: توحيد المملكة الأيوبية زمن السلطان العادل

بعد أن وحد السلطان صلاح الدين الأيوبي البلاد الإسلامية: مصر، والشام، والجزيرة، وخطب بها باسم الخليفة العباسي في بغداد، قام بتقسيم ملكه بين أبنائه، فأعطى ابنه الأفضل بلاد الشام، أما ابنه العزيز فقد ملكه الديار المصرية، وأعطى مدينة حلب لابنه الظاهر، وأما أخيه الملك العادل فقد مني بإقطاعات كثيرة بمصر، وأعطى لابن أخيه تقي الدين[5] حماة، والمعرة، ومنبج، وميافارقين[6]، وسيطر صلاح الدين على هذه البلاد بالإضافة إلى بعض المناطق الأخرى؛ ولكن بعد وفاته، نشأ بين أبناء العائلة الانشقاق، والاختلاف، وأخذ كلٌ منهم

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (134/10).

(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (231/3).

(3) أبو شامة، المرجع السابق (65/4).

(4) فرج، الدولة الأيوبية (ص133).

(5) الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين. ابن خلكان، وفيات الأعيان (456/3).

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (103/6).

يحاول الاستقلال بالمنطقة أو المدينة التي يحكمها، ولم يستطع أحد من أبناء صلاح الدين أن يملأ الفراغ الذي تركه.

أخذ الملك العادل بعد وفاة أخيه صلاح الدين الأيوبي يعد العدة من أجل إقامة الوحدة التي قامت تحت سلطة أخيه، حتى استطاع أن يوحد البيت الأيوبي تحت سلطته كما ذكرنا سابقًا، وأخذ الملك العادل يوحد المناطق التي لم تكن بالأصل تحت حكم البيت الأيوبي، وهي:

- بعلبك وأعمالها كانت تحت سيطرة الملك الأمجد مجد الدين بهرامشاه بن فرخشاه[1].
- حماة ، وسلمية، والمعرة، ومنبج، وقلعة نجم، تحت سيطرة الملك المنصور الأول محمد ابن تقي الدين عمر[2].
- الموصل كانت لعز الدين مسعود الزنكي[3].
- سنجار سيطر عليها عماد الدين زنكي الثاني[4].
- حصن كيفا، وآمد لقطب الدين سقمان الثاني الأرتقي[5].

وما أن تولى الملك الأفضل المملكة الأيوبية بعد وفاة أبيه السلطان صلاح الدين الأيوبي، رفض الملك العادل البيعة له، وكذلك فإن هناك بعض الأمراء امتنعوا عن البيعة، حيث قال أحدهم: " ليس لي خبزًا – أي إقطاعًا – فقل لي على أي شيء أحلف"[6]، وبذلك اختلف الأمراء بعد وفاة السلطان صلاح الدين، واشترط كل فيهم أن يكون له إقطاعًا، ومن هنا جاءت بذور الانشقاق داخل الدولة الأيوبية[7].

فاستغل حكام المناطق البعيدة عن الحكم الأيوبي، بعد وفاة السلطان صلاح الدين، فاستقلت عن البيت الأيوبي، وأخذت تتوسع لصالحها على حساب المناطق المجاورة لها، وكان

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب (4/ 284)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (453/2)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (369/1)؛ المقريزي، السلوك (359/1).

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (365/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (295/28).

(3) الأصفهاني، البرق (8/5)؛ الأيوبي، مضمار الحقائق(43/1).

(4) ابن واصل، مفرج (78/3)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (236/9).

(5) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة (ص194).

(6) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص245).

(7) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص245).

من ضمن هؤلاء الحكام الأمير عز الدين مسعود الذي أخذ يسيطر على المناطق المجاورة لبلاده؛ لكن الملك الكامل بن العادل استطاع التمكن من التصدي له، حتى استطاع أن يوقف زحفه، فاستقر حكم عز الدين بالموصل[1].

وكان الملك العادل قد استغل نزاع أبناء أخيه صلاح الدين سنة "590هـ/1194م"، فقام بتعزيز ذلك الخلاف بينهم من أجل تمكين نفسه لتوحيد البلاد التي كانت بيد أخيه السلطان صلاح الدين، فاتجه نحو الشام، واستطاع بدهائه أن يتملكها[2]، وأخذ يعد الخطة لتوحيد تلك الدولة تحت حكمه باسم الخلافة العباسية.

وبعد أن سيطر الملك العادل على مصر، وأصبح أتابكًا للمنصور بن الملك العزيز، الذي كان طفلًا صغير لم يستطع إدارة شئون الدولة، فاستغل الملك العادل صغر سنه، وقام بإحضار جماعة من الفقهاء، والقضاة، والكبراء، والولاة، وقال لهم :"هل تصح ولاية الصغير" فقالوا: "هذا مولى عليه فلا يلي" وفي نهاية الحديث بينوا له أن السلطنة هي خلافة الخليفة، وأنه هو أحق بها[3]، فقام بإحضار الأمراء، والتمس منهم السمع، والطاعة، وخاطبهم في اليمين، والميثاق، وألزمهم بالوفاء، وبين لهم أهمية حفظ البلاد من خطر الأعداء وأن هذا الأمر يحتاج للحنكة الدهاء، فوافق الأمراء على مبايعته لتولي شئون السلطنة، ووقع الاتفاق بينهم[4]، وبذلك استقر الملك العادل بمصر، وقام باستدعاء ابنه الملك الكامل، وجعله نائباً عنه بالديار المصرية[5].

أرسل الملك المنصور حاكم حماه لعمه الملك العادل للدخول في طاعته، وسلطته، فرحب به العادل، وأظهر الرضا عنه، وتزوج المنصور من ابنة العادل سنة "596هـ/1200م"، وفي العام نفسه أرسل الظاهر لعمه يطلب منه ما بيده من البلاد مقابل أن يقيم الخطبة لعمه في

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب (16/3).

(2) المرجع السابق (16/3).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (460/6)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (111/3)؛ المقريزي، السلوك (265/1).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (460/6).

(5) ابن واصل، مفرج الكروب (3 /113).

حلب، فوافق العادل مطلبه، وأقره على ما بيده، مقابل أن يكون خمسمائة فارس بخدمة الملك العادل، وبذلك أقيمت الخطبة، والسكة للعادل بحلب، وما يحيطها[1].

وبذلك سيطر الملك العادل على الشام، ومصر؛ لكنه واجه بعض الصعوبات في السيطرة على بلاد الجزيرة؛ لأن حكامها لم يكونوا في الأصل من البيت الأيوبي، فقد قاموا بالاستقلال عن الحكم الأيوبي، واتحدوا ضد الملك العادل، وانضم إلى ذلك الحلف الأمير بكتمر، وحكام ماردين، والموصل، وسنجار ضد الحكم الأيوبي، وقد طلبوا من العادل أن يخرج من بلادهم [2].

أصبحت بلاد الجزيرة تشكل خطرًا على الوحدة الأيوبية حيث فعمت الفوضى فيها؛ ولكن سرعان ما فشل مخطط الحلف المكون ضد الحكم الأيوبي بوفاة الأمير بكتمر سنة "589هـ/1193م" لذلك عمت الفوضي في مدينة خلاط أكثر من خمس سنوات، وفي النهاية عين عليها الأمير سيف الدين بلبان، فثار أهل المدينة عليه، وطلبوا النجدة من الملك الأوحد بن العادل الذي كان حاكمًا على مدينة ميافارقين، فطلب الأوحد المداد من أبيه، واستطاع تكوين جيشًا استطاع من خلاله هزيمة الأمير عز الدين بلبان[3].

فاعتصم الأمير بلبان في القلعة، واستنجد بالأمير طغرل شاه بن قلج أرسلان الذي حضر لتخليص بلبان من الملك الأوحد، فدارت بينهم معركة انتصر فيها الأمير طغرل على الملك الأوحد، وقام بغدر بلبان، وقتله طامعًا في بلاده؛ لكنه لم يستطع السيطرة على مدينة خلاط، وملاذكرد، فعاد إلى بلاده، وراسل أهل مدينة خلاط الأوحد حتى يدير شئون البلاد، فسار إليهم، وملك المدينة سنة "604هـ/ 1207م"[4].

وأما حكام المناطق المجاورة لمدينة خلاط، فقد تصدوا للمك الأوحد، ورفضوا حكمه لمدينة خلاط خوفًا من والده الملك العادل، فقاموا بمحاربته، وقتاله، واستطاعوا السيطرة على حصن "وان"، وهو أعظم، وأمنع الحصون لمدينة خلاط، فأرسل الملك الأوحد لأبيه يطلب منه النجدة، فسير الملك العادل عسكرًا بقياده ابنه الملك الأشرف موسى فاجتمع الأخوين أبناء العادل،

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب (3/114-115).

(2) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (4/412).

(3) ابن واصل، مفرج الكروب (3/175-176)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (5/395).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/340-341)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (5/395)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك(ص319).

وحاصروا القلعة حتى ملكوها، واستقر حكم الملك الأوحد بخلاط، وأعمالها، وعاد الملك الأشرف إلى بلاده: حران، والرها[1].

وكان الملك العادل قد سيطر على مدينة ماردين سنة "594هـ/ 1198م"[2]؛ لكنه تخلى عنها أثناء خلافه مع أبناء أخيه في حكم مصر، والشام، وبعد أن تمكن واستقر أمره في البلاد، سير جنده مع ابنه الأشرف موسى للهجوم على ماردين سنة "599هـ/1203م"، ومعه الملك الأفضل، وعسكر على الموصل، فاتجهوا إلى رأس عين الخابور، واستولوا عليها، ومن ثم وقع الصلح بين العادل، وأهل ماردين تدخل فيه الملك الظاهر بن صلاح الدين[3]، وتم الاتفاق على الآتي:

- يدفع والي ماردين مائة وخمسين ألف دينار إلى العادل.
- يتعهد بإرسال العساكر إلى العادل متى طلب منه ذلك.
- يضرب السكة باسم العادل، ويخطب له في بلاده[4].

وبعد أن سيطر العادل على خلاط، وماردين كان أمامه سنجار، فسار إليها سنة "604هـ/1207م"، وكان يحكمها قطب الدين مودود الثاني، ففرض عليها الحصار، فقام قطب الدين بإرسال نسائه، وخدمه يطلبوا من العادل الصفح لقطب الدين، وإبقاء المدينة له يحكمها باسم العادل، فرفض العادل طلبه، وأمر باعتقالهن، وأرسل إلى قطب الدين، يقول: "إنه لا يطلقهن إلا بعد تسليم البلد"، فاضطر قطب الدين إلى موافقته، وتقررت الحال بينهما: أن يعوض قطب الدين الرقة، وسروج، وضياع في بلاد حران، فأطلق العادل النسوة، وأرسل أعلامه إلى البلد؛ ولكن قطب الدين غدر بالعادل، وأمر بغلق الأبواب، وتكسير الأعلام، وأرسل إلى العادل، يقول: "غدرةٌ بغدرة، والبادي أظلم"[5].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (341/10)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (395/5).

(2) المقريزي، السلوك (254/1).

(3) ابن اصل، مفرج الكروب (139/3)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام(48/42)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص275).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ(281/10)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (48/42)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (392/5)؛ الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص275).

(5) النويري، نهاية الأرب (30/29-31).

شدد الملك العادل الحصار على سنجار، فما كان من قطب الدين إلا أن استنجد بحاكم الموصل، وكذلك استنجد بمظفر الدين، فتوسط مظفر الدين، وأرسل للعادل يشفع عنده لحاكم سنجار، فرفض العادل توسطه، فما كان من مظفر الدين أن سار للموصل، واتحد مع صاحبها، وأرسلا لصاحب الجزيرة[1]، وقام بمراسلة الخليفة العباسي حتى يتوسط في حل النزاع ويشفع له من العادل، ويفك الحصار عن سنجار، فأرسل الخليفة مبعوثيه هبة الله بن المبارك بن الضحاك أستاذ الدار، والأمير آق باش وهو من خواص مماليك الخليفة إلى العادل من أجل الصلح[2]، فطلبا من العادل أن يشفع عن قطب الدين، فلم يجبهم الملك العادل، فغضب رسول الخليفة، وعاد إلى الموصل، وقال لمن بها من الملوك : "قد أذن لكم أمير المؤمنين في قتال العادل"[3].

وهنا نجد بأن الخليفة كان له دور ملموس وواضح بأن أرد ان ينهي الصراع بين الملك العادل الذي يحكم البلاد باسم الخلافة العباسية، وبين الأمير قطب الدين حاكم مدينة سنجار، وبعد المباحثات بين الطرفين ورفض الملك العادل طلب الخليفة للصلح، قام مبعوثي الخليفة بأعلان القتال ضد الملك العادل لذلك أضطر الملك العادل الانصياع لأوامر الخليفة، وقبل طلب الخليفة إليه بترك سنجار، فتقرر الصلح أن يسلموا إلى العادل: نصيبين، والخابور، ويحملوا إليه مالًا، ففارق سنجار[4]، وكان سبب فشل العادل في تملك سنجار اتحاد الأمراء ضده، فسار العادل إلى حران[5].

وعندما سيطر العادل على مصر، والشام، وبلاد الجزيرة، أرسل الأمير ألدكز العادلي، والقاضي نجم الدين خليل الحنفي الحموي رسولين إلى بغداد، يطلبان التشريف، والتقليد للملك العادل على البلاد، فأُكرما من الخليفة وأُحسن إليهما، وأُجيبا إلى طلبهم، ولقب الملك العادل :"

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب (ص449).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (349/10).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (31/29).

(4) ابن العديم، زبدة الحلب (ص449).

(5) ابن واصل، مفرج الكروب (3/196-197)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (23/43)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (315/5).

بشاهانشاه، ملك الملوك خليل أمير المؤمنين"[1]، وأُرسل من الديوان إلى الملك العادل الشيخ الإمام قدوة العارفين الشيخ شهاب الدين السهروردي، ومعه التشريف الإمامي[2].

فمر السهروردي بحلب، واحترمه الظاهر، وسار إلى العادل، فألبس العادل الخلعة في القصر، وهي: "جبة سوداء بطراز ذهب، وعمامة سوداء بطراز ذهب، وطوقًا ذهبًا فيه جوهر، وقلّد بسيف محلى جميع قرابه بذهب، وحصان أشهب بمركب ذهب، وعلم أسود مكتوب فيه بالبياض ألقاب الناصر لدين الله"، ثم خلع على المعظم، والأشرف، لكل منهما عمامة سوداء، وثوب أسود واسع الكم[3].

ويتضح من ذلك بأن السلطة العليا في البلاد تخضع لحكم الخلافة العباسية، وذلك من خلال دعمها للملوك والأمراء، حيث كان الخليفة العباسي يقوم بأرسال الوفود الدبلوماسية محملة بالهدايا والتحف والخلع التي يقدوها الخليفة للحكام، وبعد ذلك يقدم الخليفة التقليد بالحكم للملوك على البلاد التي تحت حوزتهم بأن يحكموها باسم الخلافة العباسية في بغداد.

وبعد أن ضمن الملك العادل جميع البلاد تحت حكمه وسلطته، يحكمها بدعم ورضى من الخلافة العباسية عليه، قام بتوزيع البلاد لأبنائة يحكمونها باسمه وتكون السلطة العليا له من بعد الخليفة[4]، فأعطي حكم مصر لانبه الملك الكامل، وأعطي ابنه المعظم عيسى حكم من حمص حتى العريش بما فيها مدن الساحل، وبلاد الغور، وفلسطين، والكرك، والشوبك، وصرخد، أما بلاد الجزيرة فقد كانت من نصيب ابنه الملك الأشرف موسى وهي الرها وحران، وأعطى أبنه الأوحد مدينة خلاط وميافارقين[5]، وبقيت له الحرية في تصريف الأمور، حتى أخذ

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (384/1)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء (118/22)؛ القلقشندي، مآثر الأناقة (59/2).

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (384/1)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء (118/22)؛ القلقشندي، مآثر الأناقة (59/2).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (271/44).

(4) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة (163/6).

(5) المقريزي، السلوك (284/1).

يتربع ويتنقل بين الإمارات، يتفقد البلاد يصيف بدمشق ويشتي بمصر، ويشرف على باقي بلاد التي تخضع بعد الأمراء الأيوبين[1].

وبذلك استطاع الملك العادل حكم والبلاد وتوحيدها تحت سلطة مرة أخرى، بعد أن فرقها الصراع الداخلي بين أبناء البيت الأيوبي، حتى أصبحت دولته تضم بلاد الجزيرة والشام ومصر، ويخطب له على منابرها، وتضرب السكة باسمه، وكان يرجع كل الفضل للخلافة العباسية بأن أعطته الصبغة الشرعية على لتوحيد البلاد تحت حكمه، حيث كان الملك الناصر لدين الله قد أرسل إليه سنة "604هـ/1207م" الخلع والهدايا وأعطائه تقليدًا بالحكم له ولأبنائه على البلاد[2].

2.3.3 ثالثًا: توحيد المملكة الأيوبية زمن السلطان الكامل

بعد أن استتاب الملك العادل ابنه الكامل على ملك مصر سنة "609هـ/1212م"، قام بتفويضه على تدبير شئون مصر، والنظر في أموالها ومصالحها، فكسب الملك الكامل الخبرة من خلال مجاورة أبيه في حكم البلاد[3]، وبعد أن توفي الملك العادل تولى الأمر من بعده ابنه الملك الكامل، وأخذ يدير شئون مصر الداخلية، وأصبح سلطانًا عليها، وأن اعتلاءه لمنصب السلطنة في مصر، واستقراره بها، جعله يفكر في إعادة توحيد البلاد التي كانت تحت سلطة أبيه، لذلك أخذ يتقرب من الخلافة العباسية، فعندما تولى المستنصر بالله الخلافة أرسل إليه يهنئه على توليه الخلافة، فأرسل إليه الخليفة مبعوثه الأمير محي الدين بن الجوزي لتقليده على البلاد التي تحت حوزته[4].

وأن تأييد الخليفة العباسي للملك الكامل على تولي السلطنة في مصر، وغيرها من البلاد أدى إلى فرض نفسه على أمراء الشام، ولم يخرج عن طاعته إلا المعظم عيسى حاكم دمشق[5]، الذي اتحد مع مظفر الدين حاكم إربل، والمظفر غازي حاكم خلاط ضد الكامل، واتفقا على

(1)المقريزي، المرجع السابق (312/1).

(2) ابن واصل، مفرج الكروب(112/3-113).

(3) المقريزي، السلوك (295/1).

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان (83/5)؛ السيوطي، حسن المحاضرة (215/1) للإطلاع على مرسوم الخليفة انظر نفس الكتاب (215/1-218).

(5) المقريزي، السلوك (335/1).

قصد بلاد الملك الأشرف[1]، وعم الخلاف بين أبناء البيت الأيوبي حتى استعان كلٌ منهم بالقوى الخارجية من أجل إعادة توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطته، لذلك عمت الفتنه بينهم حتى توفي المعظم عيسى سنة" 624هـ/1227م"[2]، وما أن توفي الملك المعظم عيسى الخصم الأول للملك الكامل، حتى اتفق الملك الكامل مع أخيه الملك الأشرف بأن يسلم مدن الجزيرة له مقابل تسليم دمشق للملك الأشرف[3]، وبذلك أصبحت له القوة السياسية، والعسكرية في الجزيرة، بعد أن تخلى عنها الملك الأشرف له مقابل تملكه دمشق[4].

وفي عام "626هـ/1229م" استطاع الملك الكامل إخضاع بلاد المغرب إلى حكمه، وإقامة الخطبة بها للخليفة العباسي المستنصر بالله، وقام الملك الكامل بمراسلة الخليفة يبين له جهوده في ضم بلاد المغرب تحت راية الخلافة العباسية، فما أن علم الخليفة بذلك شكر الملك على جهوده الطيبة في إقامة الخطبة ببلاد المغرب للخلافة السنية، وكتب له منشورًا يذكر فيه شكره للملك الكامل، وحرصه على إقامة الخطبة للخليفة في بلاد المغرب[5].

تعتبر إقامة الخطبة في بلاد المغرب الإسلامي باسم الخلافة العباسية السنية تعبر عن قوة السياسة التي اتبعتها مؤسسة الخلافة في تقوية كيانها في البلاد، وذلك من خلال دعمها الدبلوماسي للأمراء، والسلاطين الذين يحكمون البلاد باسم الخلافة العباسية، وحثهم دائمًا على مواصلة الجهاد والمقاومة في وجه أعداء الخلافة السنية، وإعطاء الصبغة الشرعية للأمراء في حكم البلاد التي يتم السيطرة عليها.

كانت من ضم الدول المنافسة للدولة الأيوبية الدولة السلجوقية الرومية، فقد قام سلطان الروم باستغلال الخلاف الذي حصل داخل البيت الأيوبي للسيطرة على الحكم، وأخذ يتوسع

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (441/10).

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (93/29).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (482/10)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (331/5)؛ بدران، منادمة الأطلال (ص349).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (482/10)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (331/5)؛ بدران، منادمة الأطلال (ص349).

(5) الغساني، العسجد المسبوك والجوهر المحبوك (ص442).

على حساب الأيوبيين، فسار إلى بلاد الجزيرة، وسيطر على الرها، وحران، وآمد[1]؛ ولكن في عام "633هـ/1235م"[2]، استطاع الملك الكامل أن يسترد البلاد من يد سلاجقة الروم، وقام بتسليم بلاد الجزيرة لابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب[3]، وجاءه وهو قائم ببلاد الجزيرة رسول الخليفة الشيخ جمال الدين بن الجوزي، ومعه تقليده للكامل بالبلاد التي بيده، ومن ثم عاد إلى مصر[4].

وأخذ الملك الكامل يفكر في إعادة نفوذه على بلاد الشام، فأرسل الخلع إلى أبنائه، وللملك الناصر، وبعض أمراء الدولة، وأرسل إلى ابنه الصالح أيوب بأن يُسَيّر إليه العسكر للاتجاه بها إلى الشام؛ لكنه كشف سره، وقامت كبار رجال الدولة في الشام بالاتحاد ضده، وكان من ضمن من اتحد مع أخيه الملك الأشرف موسى، والملك المجاهد، والملك المظفر، وعزموا على الخروج عليه، وعين لكل واحد منهم شيء من بلاده، وتحالفوا عليه، وسيروا رسلًا إلى ملك سلاجقة الروم كيخسرو بن كيقباذ فلبى لهم دعوتهم[5].

لذلك قوي عزمهم باتحادهم، وأرسلوا للملك الكامل أنهم اتحدوا وقالوا له:" إننا قد اتفقنا كلنا، ونطلب منك ألا تخرج من مصر، ولا تنزل إلى الشام"، فرد عليهم الكامل "مبارك أنتم اتفقتم، فلم تطلبوا مني اليمين، احلفوا لي أنتم ألا تقصدوا بلادي، ولا تتعرضوا لشيء مما في يدي وأنا أوافقكم على ما تطلبون"[6].

وبذلك استطاع الكامل تحقيق الوحدة، حيث حلف له أمراء الشام، ويذكر ابن خلكانخطبة بمكة سنة "635هـ/1238م" ذكر فيها " أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل، سلطان مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين، الملك الكامل أبو المعالي ناصر

---

(1) آمد: بلد قديم حصين ركين يقع على نهر دجلة. الحموي، معجم البلدان (56/1)؛ الزبيدي، تاج العروس (392/7) محاطة بسور من الحجر الأسود. خسرو، سفر نامة (ص42).

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام (15/46).

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (293/6)؛ الحموي، التاريخ المنصوري (ص236–239).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (113/29)؛ للاطلاع على التقليد انظر المصدر نفسه (113/29–123).

(5) ابن العديم، زبدة الحلب (ص487–488).

(6)ابن العديم، المرجع السابق(ص488–489).

الدين محمد خليل أمير المؤمنين"[1] حتى أنه أصبح في خدمته في فترة حكمه بضعة عشر ملكًا، منهم: أخوه الملك الأشرف[2].

وأمام هذا الزخم من الأحداث كان في بغداد الخليفة المستنصر بالله "623-640هـ/ 1226-1243م"، على رأس الخلافة العباسية، ولم يكن له في تلك الفترة سوى السيادة الاسمية فقط على الدولة الأيوبية، لذا لم يستطع القيام بأي دور في حل النزاعات التي كانت قائمة بين أفراد البيت الأيوبي، واقتصر دوره على الاعتراف بالأوضاع القائمة، وإرسال التقليد بالسلطنة، والخلع لكل من يصل إلى الحكم، فسياسة مؤسسة الخلافة، في مراحل ضعفها معروفة فهي تستعيض بالدبلوماسية عن القوة، فهي تؤيد، وتبارك الرجل القوى الذي يعمل على التوحيد، فتسارع بتقديم الدعم الروحي، والمعنوي، وإضفاء الشرعية عليه أمام العالم الإسلامي، ويجوز هنا أن نطلق على هذا العمل الدبلوماسية السلبية، وهي تهدف إلى الحفاظ على ما هو موجود ومحاولة الترميم بأبسط الإمكانيات[3].

---

(1) وفيات الأعيان (ص5، 83).

(2) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة (235/6)؛ السيوطي، حسن المحاضرة (218/1).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (434/4)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (420/3)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (12/42).

الفصل الثالث

دور الدبلوماسية العباسية في مواجهة الأخطار الخارجية

3.1 المبحث الأول: محاربة الخلافة العباسية العدوان الصليبي على العالم الإسلامي

3.1.1 أولًا: جهود الدبلوماسية العباسية في دعم الدولة الزنكية لمحاربة الصليبيين

يمثل القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري حلقة صراع خطيرة دارت ما بين الصليبيين والمسلمين، فقد قام الغرب الأوروبي بحملات عسكرية جعلت شعار الصليب رمزًا لها في البلاد الإسلامية، واستطاعت من خلال حملاتها إقامة إمارات صليبية قوية تتصارع مع المسلمين، لذلك أخذت المقاومة الإسلامية تقاتل الاحتلال الصليبي بين الحين والآخر لتحرير البلاد الإسلامية، وفي تلك الفترة كانت الخلافة العباسية تعاني من مشاكل داخلية، وتسلط الحكم السلجوقي عليها، لذلك فقد كان دور الخلافة في محاربة الصليبيين ضئيلًا جدًا بسبب التسلط الأجنبي على الحكم، فقد سيطر السلاجقة على شئون الدولة العباسية في الداخل والخارج، وظلت الخلافة العباسية خاضعة تحت سلطنة السلاجقة في ظل سلاطين السلاجقة العظام ألب أرسلان، وملكشاه[1].

وبقيت الخلافة في تلك الفترة بعيدة عن الأمور السياسية، والتدخل في شئون الحكم، وبذلك انحسرت سلطة الخلفاء العباسيين في ذكر أسمائهم في الخطبة، ونقشها على السكة، ولم يكن لهم دور فعلي في التصدي للأخطار الخارجية، ويذكر عاشور أن الخليفة العباسي يسمع، ويرى، ولا يحرك ساكنًا في تلك الفترة[2]، حتى أن الخلافة العباسية لم تقم بدور فعال سواء أكان دبلوماسيًا أم عسكريًا في الدفاع عن مدن الشام، والجزيرة، التي أخذت تنهار واحدة تلو الأخرى على يد الصليبيين، ويذكر الغامدي أن سبب عدم قيام الخلافة العباسية في التصدي للصليبيين، أنها كانت في مرحلة الشيخوخة، وكذلك كانت مجردة من أي قوة عسكرية في ظل سلاطين السلاجقة[3].

هذا بالإضافة إلى ما كانت تعانيه بلاد الشام من الفرقة، والتشتت بين أمرائها الذين أخذوا يتصارعون فيما بينهم على الحكم، كذلك ضعف الجبهة الفاطمية، حيث أصبح الخليفة الفاطمي

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم (144/16-147).

(2) ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية "بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته" (ص459).

(3) الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عصر الأسرة الزنكية (ص125).

تحت رحمة الوزراء، كل ذلك سهل على الصليبيين سيطرتهم على بعض المدن الإسلامية الرئيسة في المشرق الإسلامي.

استغل الغرب الأوروبي الوضع القائم في البلاد الإسلامية من ثورات، وذبول الخلافة العباسية، وانحلالها، وعزم على غزو العالم الإسلامي، والسيطرة عليه، وعقد البابا أوربان الثاني المؤتمر في مدينة كليرمونت بفرنسا سنة "488هـ/1095م"[(1)]، دعا الناس به للقيام بالحملة الصليبية على المسلمين، وبذلك توافدت الجيوش الصليبية على العالم الإسلامي، واستطاعت تأسيس الإمارات الأربع: أنطاكية، والرها، وبيت المقدس، وطرابلس[(2)].

وفي بداية الحملة الصليبية على بلاد الشام، والسيطرة على أنطاكية كانت الخلافة الفاطمية قد سيطرت على بيت المقدس، فأرسل الأفضل بن بدر الجمالي الرسل إلى الصليبيين للاتفاق معهم على تقسيم بلاد الشام بينهم، على أن تأخذ القوات الصليبية شمال بلاد الشام، وأن تأخذ الخلافة الفاطمية الجزء الجنوبي من بلاد الشام، وهي فلسطين، وأرسل أمراء الحملة الصليبية الهدايا للخلافة الفاطمية؛ لكنهم لم يلتزموا بالمواثيق[(3)]، وبذلك نجد بأن الخلافة الفاطمية أخذت تتفرج على احتلال الصليبيين لبلاد الشام، ولم تحرك ساكنًا، إلا بعد أن سيطر الصليبيون على بيت المقدس، وكان الفاطميون يحاولون الاحتفاظ بنفوذهم في بلاد الشام[(4)].

خرج الصليبيون من أوروبا متجهين نحو المشرق الإسلامي سنة "491هـ/ 1098م"، فعبروا خليج قسطنطينية، وساروا إلى قونية[(5)]، وجرى بينهم وبين قليج أرسلان[(6)] قتال انتصر

---

(1) باركر، الحروب الصليبية (ص23)؛ سيد، مختصر تاريخ العرب (ص282–283).

(2) عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية (ص18–25).

(3) الحياري، القدس في زمن الفاطميين والفرنجه (ص39).

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (179/5)؛ الحويري، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين (ص59).

(5) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم، وهي من مدن تركيا. الحموي، معجم البلدان (415/4).

(6) قليج أرسلان: قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش السلجوقي صاحب بلاد الروم. ابن الوردي، تتمة المختصر (18/2).

فيه الصليبيون، فاتجهوا نحو أنطاكية، وحاصروها تسعة أشهر، وتصدى لهم ياغي سيان؛ لكنه لم يستطع مقاومتهم، إلى أن سقطت بأيديهم، فقتلوا أهلها، ونهبوا أموالهم[1].

فلما علم الخليفة العباسي بما حصل لبلاد الشام من سيطرة الحملة الصليبية على بعض بلدانها، أرسل إلى السلطان بركيارق مستنفرًا له لصد الصليبيين، ومبالغًا في تعظيم الأمر وتداركه قبل أن يزداد قوة[2]، ومن الواضح أن الخلافة العباسية هنا لم تستطع أن تفعل شيئًا سوى الاستنكار، وقام الخليفة بمراسلة السلطان بركيارق ليحثه على محاربة الصليبيين فأرسل السلطان إلى العساكر يأمرهم بالمسير إلى عميد الدولة ابن جهير للجهاد، ووصلت الأخبار إلى بغداد بأن الصليبيين قد ملكوا أنطاكية ومعرة النعمان[3].

وكان حينها النزاع مستمر بين السلطان بركيارق وأخيه محمد، من أجل الوصول إلى عرش السلطنة السلجوقيه في العراق[4]، وقد اكتفى السلطان بإرسال حملة بقيادة كربوغا أتابك الموصل الذي سار على رأس جيش لإنقاذ أنطاكية، فهزمت قواته أمام القوات الصليبية بسبب الخلاف الذي حصل بين كبار رجال الحملة سنة "491هـ/ 1098م"[5]؛ وبهزيمة كربوغا في المعركة سقطت أنطاكية بأيدي الصليبيين، "وغنموا ما في العسكر من الأقوات، والأموال، والأثاث، والدواب، والأسلحة، فصلحت حالهم، وعادت إليهم قوتهم"[6].

وبعد أن سيطر الصليبيون على أنطاكية اتفقوا على السير إلى بيت المقدس، فاتجهوا إلى معرة النعمان[7]، ونصبوا عليها الأبراج، والسلالم حتى ملكوها[8]، ثم اتجهوا نحو بيت المقدس،

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (14/9)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (161/28-162)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (292/1).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (17/9).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (9/34-10).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (9/13-17)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (161/5).

(5) ابن العديم، زبدة الحلب (ص238)؛ سيد، مختصر تاريخ العرب(ص286)؛ الحويري، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين(ص50-51)؛ زيان، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية (ص55-56).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (16/9).

(7) معرة النعمان: بليدة بين حلب وحماة، كثيرة التين والزيتون. القزويني، آثار البلاد (ص109).

(8) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص81)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (14/9)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (164/28).

فحاصروه، وقاتلوا أهله، وضيقوا عليهم ونصبوا الأبراج، وأسندوها إلى الأسوار، حتى تمكنوا من فتحها، وتملكها سنة "492هـ/1099م"[1]، وبدخول الصليبيين بيت المقدس أخذوا ينشرون الرعب، والدمار، ويذكر الصوري تلك الحادثة الشنيعة بقولة :" فذبحوا ذبح الشاه كل من لجأ إلى هنا يبتغي الحماية، وأعملوا القتل فيهم، ولم تأخذهم رحمة بأحد، حتى فاض المكان كله بدماء الضحايا"[2]، ويصف باركر تلك المذبحة التي نفذها الصليبيون بحق المسلمين في بيت المقدس"، وأجرى الصليبيون مذبحة مريعة، إذ إن الدماء بلغت من شدة التدفق في الشوارع"[3].

أما المصادر العربية فتصف مذابح الصليبيين في بيت المقدس بأبشع الجرائم، حيث قال ابن الأثير: " وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم، وزهادهم ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف"[4]، أما ابن الوردي فيقول: "وقتل الفرنج في المسلمين أسبوعاً، وقتلوا في المسجد الأقصى فوق سبعين ألفاً فيهم أئمة وعلماء وعباد وزهاد ممن جاور لشرف الموضع"[5]، أما ابن القلانسي، فيصف شراسة الصليبيين بالسيطرة على بيت المقدس بقوله:" وهجموا على البلد فملكوه، وانهزم بعض أهله إلى المحراب، وقتل خلق كثير، وجمع اليهود في الكنيسة، وأحرقوها عليهم"[6].

وبعد سقوط بيت المقدس توجه سائر أهل الشام وبيت المقدس إلى الخليفة العباسي يستجدونه على الصليبيين بما حل بالمسلمين من المذابح، حيث أرسل الخليفة على الفور وفدًا دبلوماسيًا من أمراء بغداد يستصرخون السلطان بركيارق على ما حل بأهل الشام من مذابح على أيدي الصليبيين؛ لكن السلطان لم يرسل أي نجدة لاختلاف السلاطين فيما بينهم[7]؛ وبذلك تمكن الصليبيون من البلاد، وولوا على بيت المقدس ملكهم جودفري[8]، ويبدو أن الخلافة

---

(1) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص81).

(2) الحروب الصليبية (127/2).

(3) الحروب الصليبية (ص36).

(4) الكامل في التاريخ (19/9).

(5) تتمة المختصر (11/2).

(6) ذيل تاريخ دمشق(ص81).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (19/9-20)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (17/34)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (11/2).

(8) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (211/5).

العباسية لم تكن تعلم إلا القليل عن الغرب الأوروبي، فقد اعتقدت بأن الحملة الصليبية على بلاد الشام ما هي إلا غزوة من غزوات الإمبراطورية البيزنطية على العالم الإسلامي[1].

ويبين أحد المؤرخين المعاصرين للأحداث وصول أهل بغداد لفلسطين لنجدتهم؛ لأن أهل الشام قد بينوا لديوان العزيز ما حل بالمسلمين في المسجد الأقصى من قتل الرجال، وسبي الحريم، والأولاد، ونهب الأموال[2]، وبعد أن سيطر الصليبيون على بيت المقدس اتجهوا نحو الساحل فاحتلوا عكا، وحيفا[3]، وقيسارية[4]، وأرسوف[5]، وقتلوا، ونكلوا بأهل المدن التي سيطروا عليها[6]، وحينها كان سلاطين، وملوك السلاجقة في خراسان، والعراق، والشام على خلاف فيما بينهم، وكانت الحروب، والفساد قائمة بينهم للسيطرة، والوصول إلى الحكم، فقد كانوا يهتمون بالسلطنة أكثر من محاربة الصليبيين[7].

حاول الملك الأفضل أمير الجيش المصري المسير إلى بيت المقدس لاسترجاعه من أيدي الصليبيين، فلما علم الصليبيون بتوجه الجيش المصري إليهم، تجمعوا وأعدوا العدة، فالتقى الطرفان بالقرب من عسقلان، ودارت بينهما معركة شديدة هزمت فيها القوات المصرية، وغنم فيها الصليبيون الكثير من الغنائم ما لا يعد، ولا يحصى[8]، ويبدو هنا أن الضعف العسكري للخلافة العباسية كان له دور في انتصارات الصليبيين، وتأسيس أربع كيانات سياسية على أراضي المسلمين، فقد كانت مؤسسة الخلافة تستنفر الأمراء، والعامة للجهاد؛ لكن المرجح أن عملية مقاومة منظمة لها استراتيجياتها لم تكن موجودة، ولعل الاحتلال الصليبي كان سببًا ودافعًا قويًا دفع بالخلافة أن تغير من استراتيجياتها من أجل خلق مقاومة ضد الوجود الصليبي.

---

(1) الحويري، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين (ص58).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (20/9).

(3) حيفا، حصن منيع على ساحل البحر المتوسط بالقرب من يافا. الحموي، معجم البلدان(332/2)

(4) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين. الحموي، معجم البلدان (421/4).

(5) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. الحموي، معجم البلدان (151/1).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (43/9)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(295/1)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (167/28)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام(36/34)؛ اليافعي، مرآة الجنان(156/3).

(7) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص84).

(8) وليم الصوري، الحروب الصليبية (160/2-166).

فعندما توغل الاحتلال الصليبي في المنطقة، وضرب بعرض الحائط كل الاتفاقيات، والمعاهدات مع الفاطميين عندها اضطرت الدولة الفاطمية إرسال الجيوش المصرية سنة "498هـ/1105" إلى الشام لمحاربة الصليبيين، وكاتبوا طغتكين(1)، فأرسل اليهم ألفاً وثلاثمائة فارس، وقصدهم بلدوين صاحب القدس، فكان اللقاء بين يافا، وعسقلان، وثبت الفريقان، حتى قتل من المسلمين ألف ومائتان، ومن الصليبيين مثلهم (2)، وفي تلك الفترة كان الصليبيون قد ملكوا حصن عسكري عال بالقرب من طبرية(3)، فاستطاع طغتكين إعادة الحصن، وأعاد الأسرى، والغنائم(4)، ثم سار إلى حصن رفنية، فحاصره حتى ملكه، وقتل به خمسمائة من الصليبيين(5).

وعندما فرض الصليبيون الحصار حول طرابلس سنة "502هـ /1109م"، فاتجه صاحبها فخر الملك ابن عمار إلى بغداد مستنفرًا على الصليبيين، وما حصل بطرابلس على إثر الحصار (6)، فاجتمع بالسلطان محمد، والخليفة المستظهر، ورتب له الخليفة الرواتب العظيمة، ثم قدم للسلطان، وطلب المساعدة منه، فأجابه السلطان، وحضر بدار الخلافة، وخلع عليه الخليفة، وجرد السلطان معه عسكرًا لم يغنِ شيئًا(7)، وعاد إلى دمشق، فأقام عند طغتكين، وأما طرابلس فإن أهلها دخلوا في طاعة خليفة مصر، وخرجوا عن طاعة ابن عمار (8).

---

(1) طغتكين: سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين. الذهبي، تاريخ الإسلام (65/39).

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام (68/34).

(3) طبرية: مدينة بقرب دمشق بينهما ثلاثة أيام، مطلة على بحيرة معروفة ببحيرة طبرية، وجبل الطور مطل عليها. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد (ص86).

(4) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص89)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (70/34).

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام (70/34).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (120/9)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (7/35)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (46/5).

(7) الذهبي، تاريخ الإسلام (7/35).

(8) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (301/1).

وأما غياب المقاومة الموحدة للصف الإسلامي استطاع الصليبيون السيطرة على طرابلس[1]، وعلى أثرها سقطت مدينة جبيل، وبيروت[2]، وبانياس[3]، في أيدي الصليبيين[4]، فصعد طغتكين، والتقي بالصليبيين، وعلى رأسهم بلدوين، فانتصر المسلمون، ورجعوا منصورين، وبعث بالأسرى إلى بغداد، ثم تهادن طغتكين، وبلدوين على وضع الحرب أربع سنين[5]، وعلى أثر سيطرة الصليبيين على طرابلس، أرسل السلطان محمد مبوعثيه إلى سائر البلاد من أجل الجهاد ضد الصليبيين، وأخذ يستصرخهم؛ لكن تأخرت العساكر السلطانية للذهاب إلى الشام بسبب الخلافات بين الأمراء، فسارت متأخرة، واستطاعت قوات السلطان هزيمة الصليبيين عند الرها، ومن ثم تفرقت القوات الإسلامية، ولم تكمل جهادها ضد الصليبيين[6].

ويرجع السبب الأكبر في نجاح الحملة الصليبية في السيطرة على الإمارات الأربع، هو تفرق وحدة المسلمين من الناحية الدينية، والسياسية، بين الخلافة العباسية، والخلافة الفاطمية، والنزاع الذي حصل بين الأمراء في بلاد الشام على السلطنة[7]، وبذلك يمكن القول هنا بأن الخلافة العباسية سيطر عليها السلاجقة الذين غرقوا في التنافس، والصراع على السلطنة، وقد اشتد النزاع على السلطنة بين الحكام السلاجقة، أبناء ملكشاه أثناء حروب الصليبيين في الشام؛ الأمر الذي أدى إلى زعزعة الأمر في الشام، مما سهل على الصليبيين امتلاك الإمارات الأربع في بلاد الشام.

---

(1) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص98)؛ ابن الجوزي، المنتظم (117/17)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (301/1)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (171/12).

(2) بيروت: مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال دمشق. الحموي، معجم البلدان(525/1).

(3) بانياس: كوخ من أكواخ مدينة دمشق. الحموي، معجم البلدان (317/1).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (149/23).

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام (13/35).

(6) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص100–102)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (251/1–252).

(7) باركر، الحروب الصليبية (33/7).

- **دور مؤسسة الخلافة في دعم الأمير مودود لمحاربة الصليبيين**

بعد أن استقر الأمير مودود في الموصل، تلقى أمراً من الخليفة بالسير إلى قتال الصليبيين وأمدوه بالعساكر سنة "503هـ/1109م"[1]، فاستعد مودود للجهاد وانضم إليه أمراء الأطراف في الجزيرة، وهم سقمان القبطي، وإيلغازى بن أرتق، ويشير ابن القلانسي إلى ذلك قائلًا : "اجتمع المسلمون في عدد لا يقوم بلقائه جميع الصليبيين، واتفقت الآراء على افتتاح الجهاد بقصد الرها، ومضايقتها إلى أن يسهل الله افتتاحها بحكم حصانتها، ومنعتها"[2]، استغل مودود فرصة التشتت بين الأمراء الصليبيين، وفرض الحصار على الرها؛ ولكن صاحبها استنجد ببلدوين الأول ملك بيت المقدس، وقام الملك بلدوين بتكوين حلف صليبي انضم إليه عدد كبير من الأمراء، حيث اجتمع طنكرى أمير أنطاكية، وابن صنجيل أمير طرابلس، وبلدوين أمير القدس، وتحالفوا على قتال المسلمين، والتقى الجيشان الإسلامي والصليبي على شاطئ الفرات، فوقعت بينهم معركة شديدة استطاع المسلمون فيها أن يحرزوا النصر على أعدائهم، وغنموا منهم الكثير[3].

كما أن القوات الصليبية لم تلبث أن انسحبت من الرها، وتوجه المسلمون إلى حصارها إلا أن حصانة المدينة، وما نقله العدو إليها من مقادير تموينية أعجزت الجيش الإسلامي عن فتحها، كما ان إطالة فتره الحصار على الرها أدى إلى نقص في الإمداد، والتموين عند المسلمين، مما جعلهم يتفرقون في البلاد[4].

عانا سكان حلب من ويلات حصار الصليبيين لهم سنة "504هـ/ 1110م"، حيث بسط الصليبيون سيطرتهم على كثير من القرى، والحصون المجاورة لها، وانتشرت قواتهم في أعمال حلب تنهب، وتحرق، فأصاب الناس أضرارًا كبيرة، كما استولى الصليبيون على منبج، وزردنا، وبالس، من أعمال حلب[5]، فما كان منهم أن اتجهوا إلى بغداد، "واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج"[6].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (141/9).

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص102).

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (199/5).

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق(ص103).

(5) ابن العديم، زبدة الحلب (ص251–252)؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (302/1).

(6) ابن العديم، زبدة الحلب (ص253).

كما بين بعض أهل حلب للخليفة، والسلطان سوء معاملة الملك رضوان معهم، وتقاعسه عن الجهاد، وتخاذله أمام الصليبيين، وفي تلك الأحداث قدم وفد من الإمبراطور الرومي يستنصر الخليفة، والسلطان على الصليبيين في الساحل الشامي، وبين ذلك ابن الأثير بقوله: "ورد رسول الروم إلى السلطان يستنصره على الفرنج، ويحثه على قتالهم، ودفعهم عن البلاد، وكان وصوله قبل وصول أهل حلب"، فثار الناس ضد الخليفة، والسلطان، وندد المحتجون بالسلطان قائلين :"أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك بالإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم"[1].

فكان الصليبيون قد ملكوا مدينة صيدا بالأمان، وملكوا الأثارب، وذردنا، ومنبج، وبالس، وفي الوقت نفسه كان الملك رضوان قد صالح الصليبيين على مبلغ يدفعه لهم، ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الصليبيين، فبذل لهم أصحاب البلاد أموالًا، فصالحهم أهل مدينة صور، وشيزر[2]، ومن الواضح أن ضعف السلاجقة قد أتاح الفرصة للصليبيين للسيطرة على البلدان الإسلامية[3].

واستنادًا إلى ذلك أوعز الخليفة إلى السلطان محمد بتوجيه العساكر إلى الشام، فأرسل السلطان إلى الأمير مودود بالسير إلى الشام[4]، وكان السلطان قد سير ابنه مسعود على رأس عددٍ من العساكر لمشاركة مودود في حملته الجهادية، كما أرسل السلطان إلى بقية أمراء الشام، والجزيرة للاتفاق تحت راية مودود، فنظم إليه كل من أحمد يل الكردي ، وأبو الهيجاء حاكم أربل، وسقمان القطبي، والأميران: إيلنكى، وزنكي أبناء برسق[5]، ثم انضم إليهم طغتكين بعد مراسلة السلطان له[6].

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (141/9).

(2) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(302/1).

(3) حسن، تاريخ الإسلام (ص63).

(4) ابن الأثير، الباهر (ص18)؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر(9/4)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(49/5).

(5) ابن كثير، البداية والنهاية (173/12)، ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة (201/5).

(6) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص106).

وكان مودود أول من سار بجيشه، ونزل على أطراف مدينة الرها، وحرر عددًا من الحصون في الجزيرة، وديار بكر[1]، ولما تكاملت قواته توجه إلى الرها ضاربًا حولها الحصار، وبعد أن امتنعت عليه تحول إلى مهاجمة تل باشر، وبذلك فقد فشلت حملة مودود في فتح الرها، وتفرقت القوات الإسلامية بعد رفض الملك رضوان استقبالها[2].

وبعد أن سيطر الصليبيون على مدينة بيروت عام "504هـ/1110م"، وصلت الأخبار للخلافة العباسية في بغداد بسقوط المدينة، فتجهز كبار رجال الدولة في بغداد من فقهاء، ورجال، وخرجوا إلى الشام لمجاهدة الصليبيين؛ لكن ما لبثوا أن تراجعوا عن الخروج للشام بعد أن تبين لهم صعوبة محاربة الصليبيين[3]، وكان الخليفة العباسي قد طلب من الأمراء القيام بحملة ضد الصليبيين سنة "507هـ/1114م"، وبذلك اجتمع أمير دمشق طغتكين، والأمير مودود، وأمراء سنجار، وماردين، وتوحدوا في مواجهة الصليبيين، فاستطاع الجيش الإسلامي أن يلحق بالصليبيين هزيمة قوية بالقرب من طبرية[4].

ومن ثم قامت حملة جديدة قادها الأمير برسق بن برسق من الجزيرة، اتجه بها إلى الشام سنة "508هـ/1115م" لجهاد الصليبيين بأمر من الخلافة، وقد استطاع الأمير برسق فتح كفر طاب عنوة؛ ولكنه انهزم أمام أمير أنطاكية روجيل، وهرب من أرض المعركة في طائفة قليلة، وتفرق الجيش[5]، ثم ساروا منها إلى حلب، فالتقيا بالصليبيين، وانهزم المسلمون، وقتل منهم الكثير، وهرب من سلم إلى بلاده[6].

وفي عام "513هـ/1119م" اجتمع طغتكين، مع إيلغازي في حلب على الجهاد، وقد حشد الصليبيون عشرون ألف فارس بقيادة روجير أمير أنطاكية، ونزلوا في بشرمدا بين أنطاكية

---

(1) ابن الأثير، الباهر (ص17).

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص106).

(3) ابن كثير، البداية والنهاية (172/12)؛ الحويري، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين (ص67).

(4) سيد، مختصر تاريخ العرب (ص293).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (159/9)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (179/12).

(6) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر (304/1)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (22/2)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (34/35-35)؛ ابن كثير، البداية والنهاية (179/12).

وحلب، فاتجه إليهم المسلمون، وأحاطوا بهم من جميع الجهات ضربًا بالسيوف، ورشقًا بالسهام، وانتصر المسلمون عليهم، وعاد ظهير الدين إلى دمشق عقيب هذا النصر[1].

ومن الواضح أن دور الخلافة العباسية في حشد القوى الإسلامية ضد الاحتلال الصليبي ظل محدودًا في هذه المرحلة؛ ولكن بعد أن اعتلى الخليفة العباسي المسترشد بالله الخلافة، أخذ يبذل جهده من أجل التخلص من سيطرة الأمراء، ودعم حركة الجهاد ضد الصليبيين، فالمتتبع للأحداث سيجد أن وتيرة العمل العسكري ضد الصليبيين قد زادت، والجدير أن الآلة الدبلوماسية العباسية نجحت في توجيه الجهود، والطاقات نحو المقاومة؛ بل كان أمراء الجهاد يقاتلون تحت راية الخلافة العباسية، فقد استطاع الأمير طغتكين سنة "515هـ/1122م" الإيقاع بطائفة من الصليبيين، فقتل منهم، وأسر، وأرسل من الأسرى، والغنيمة للخليفة، والسلطان في بغداد[2].

وعقب هزيمة الصليبيين في المعركة اتجهوا إلى مدينة حلب، وملكوها عنوة، وقتلوا أهلها، فسار إليهم أيلغازي بن أرتق في جيش كثيف استطاع هزيمتهم، ولحقهم إلى جبل قد تحصنوا به، فقتل منهم مقتلة عظيمة، ولم يفلت منهم إلا اليسير، وقتل أمير أنطاكية وحُمِل رأسه إلى بغداد[3]، وفي عام "518هـ/1125م" التقى بلك بن بهرام[4]، مع الصليبيين، فهزمهم، وقتل منهم خلقًا، وأسر قائدهم؛ ولكنه قتل بسهم، وحمل إلى حلب[5]، وبموته فقد النضال الإسلامي ضد الصليبيين بطلًا من أهم أبطاله[6].

وفي عام "523هـ/1129م" اجتمع من الصليبيين ألفين فارس، وعلى رأسهم صاحب القدس، وساروا إلى دمشق ليحاصروها، ولما سمع الملك بوري بن طغتكين بذلك جمع حوالي ثمانية آلاف فارس، ووصل الصليبيون دمشق، والتقوا بجمع من المسلمين، واقتتلوا، فظفر بهم

---

(1) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص124).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (211/9).

(3) ابن كثير، البداية والنهاية (184/12).

(4) بلك بن بهرام: بلك بن بهرام بن أرتق حاكم مدينة حلب. الذهبي، العبر في خبر من غبر (42/4).

(5) الذهبي، تاريخ الإسلام (302/35)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (31/2).

(6) الحويري، بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين (ص79).

المسلمون، وقتلوهم، فلم يفلت منهم غير مقدمهم، ومعه أربعون رجلًا، وأخذوا ما معهم، وهي: عشرة آلاف دابة موقرة، وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق[1].

وعلى الرغم من صعوبة الظروف المحيطة بالخلافة العباسية سواء الخارجية أم الداخلية إلا أنها استطاعت أن تستخدم طاقات الشعوب، والأمراء، وتضع منهم قادة للمقاومة ، ففي تلك الفترة كانت الخلافة العباسية تسعي للتخلص من سيطرة السلاطين السلاجقة على الحكم في بغداد، وكذلك كانت العراق تعاني من ظهور الفتن، وخروج أمراء الحلة على الخلافة العباسية[2]، وفي الوقت نفسه كان عماد الدين زنكي قد صعد نجمه في الموصل والجزيرة، فاستنجد به أهل حلب للتصدي للصليبيين، فسار إلى حلب، ومعه الأمير سنقر دراز، والأمير قراقوش، وهما من أكابر البرسقي، وكان معه التوقيع من السلطان على الجزيرة، والشام، فملك حلب، وقلعتها، ولولا أنَّ الله منّ على المسلمين بملك مثل: زنكي لبلاد الشام لملكها الصليبيون؛ لأنهم كانوا يحاصرون بعض البلاد الشامية، وهنا بدأت حملات عماد الدين في محاربة الصليبيين[3].

فبعد أن استقرت له الأمور في الموصل، وبلاد الجزيرة سنة "524هـ/1130م"، سار إلى الشام قاصدًا حلب؛ بسبب تشديد الصليبيين عليه الحصار، لذلك اتجه إلى حصن الأثارب، فجمع الصليبيون حيشهم، وساروا إليه، فالتقوا، واقتتلوا أشد قتال حتى انتصر المسلمون، ومن ثم سار زنكي إلى حصن الأثارب، وفتحه عنوة[4]، وقال لجنده: "هذا أول مصاف عملناه معهم، فلنذقهم من بأسنا ما يُبقي رعبه في قلوبهم"، ومن ثم اتجه زنكي إلى حارم، وفرض عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمان، وصالحهم زنكي، على أن يدفع أهلها نصف دخل بلدهم، ومن ثم عاد إلى حلب[5].

ويذكر ابن الاثير نتائج فتح حصن الأثارب بأنه رفع المعونات لدى المسلمين في بلاد الشام، أما الصليبيون فقد ضعف أمرهم، "وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب،

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (251/9).
(2) الغامدي، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين(ص113-114).
(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (246/9-247).
(4) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر(313/1).
(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (254/9).

وصار قصارهم يحفظون ما بأيديهم بعد أن طمعوا في ملك الجميع"[1]، ويذكر ابن العديم أنه بعد أن فتح زنكي حصن الأثارب، فتح زردنا، ثم تل أغدي، ثم فتح معرة النعمان، وكفر طاب[2].

ومن الواضح أن تلك الانتصارات التي حققها عماد الدين زنكي ضد الصليبيين جعلت الصليبيون يفكرون في التخلص منه، وتوجيه ضربة قاضية له، فاستغل الأمراء الصليبيون محاصرة زنكي لحمص، فقاموا بحشد قواتهم، وعندما سمع زنكي بذلك سار للقائهم، واتجه إلى حصن بعرين للقائهم، واجتمع الصليبيون بقيادة فولك ملك بيت المقدس، وريموند صاحب طرابلس، ودارت معركة بين الطرفين؛ انتهت بانتصار المسلمين، وقتل، وأسر من قادتهم الكثير فأسر ريموند، أما فولك هرب إلى حصن بعرين[3]، وعاود عماد الدين زنكي حصار الحصن، وضيق عليهم، وطلب الصليبيون الأمان، فقرر عليهم تسليم حصن بعرين، وخمسين ألف دينار يحملونها إليه، فأجابوا إلى ذلك، فأطلقهم، وتسلم الحصن سنة "531هـ/1137م"[4].

وأثناء حصار فولك في بعرين طلب النجدة من الإمبراطور البيزنطي، والغرب الأوروبي، اجتمعت العساكر الصليبية مع البيزنطيين، وقام تحالف بينهم، فقصدوا مدينة حلب، وفرضوا عليها الحصار، فتصدي أهل المدينة لتلك الحملة، وطلبوا النجده من عماد الدين الذي أمدهم بجنده، فاستبسل أهلها في الدفاع عنها حتى انسحب الحلف البيزنطي الصليبي[5].

ومن ثم سارت الحملة إلى معرة النعمان، فملكوها، واتجهوا منها إلى حصن شيزر، وفرضوا الحصار عليه، فقاوم أهلها من بني منقذ أصحاب شيزر، حتى إن الصليبيين قاموا بنصب المجانيق، وأخذوا يقاتلون، ويهاجمون الحصن، فطلب السكان النجدة من عماد الدين، الذي سار إليهم، واتجه نحو حماة، وتحصن بالقرب من شيزر، وأخذ بمساعدة بني منقذ بالرجال والسلاح، كما أنه استطاع منع وصول المؤن إلى القوات المهاجمة، وأخذ زنكي يراسل

---

(1) ابن الأثير، المرجع السابق (254/9).

(2) زبدة الحلب (ص312).

(3) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص160).

(4) ابن واصل، مفرج الكروب (72/1-74)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (318/31).

(5) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص163).

الصليبيون، والروم حتى استطاع أن يوقع ببينهم الفتن، وأخذ كلٌ منهم يشك بالآخر نتيجة مراسلتهم لزنكي[1].

وكان عماد الدين زنكي على اتصال مع الخلافة العباسية، ويسير حسب توجيهاتها، فكان يرسل السفارات الدبلوماسية، حيث طلب منهم النجدة أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب، فقد أرسل القاضي كمال الدين أبو الفضل الشهرزوري للخليفة المقتفي لأمر الله، والسلطان السلجوقي مسعود سفيرًا يستنجدهم ضد الصليبيين، وأثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب، وغيرها من مدن الشام سنة "532هـ/1138م"، وعده السلطان بإنفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك؛ لما له من تسلط على الحكم في بغداد[2]، لذلك عمل القاضي على إثارة الفقهاء، والناس في بغداد لنجدة المسلمين في الشام، حتى سمح السلطان للقاضي بأخذ العساكر، ويسير بهم إلى الشام، فجمع عشرة آلاف فارس، وراسل عماد الدين بذلك، فأرسل إليه " إن الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين"[3].

ومن الواضح أن الخلافة العباسية تمر بظروف صعبة، مما زاد الأمر صعوبة عليها هو العلاقة السيئة مع الأمراء السلاجقة، الذين يعملوا على التسلط عليها، من أجل ذلك لن يتعدى موقف الخلافة العباسية الدعم الروحي، والمعنوي؛ بل يصطدم أحيانًا سلاطين السلاجقة بأمراء الجهاد، والمقاومة مما يعرقل خطوته في التوحيد، ومحاربة الصليبيين فقد عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعساكره، وبسبب اختلاف بينه وبين زنكي ترددت الرسل بينهما حتى استقرت الحال على أن يدفع زنكي للسلطان مائة ألف دينار، وأن يحضر زنكي في خدمته، فامتنع، واعتذر باشتغاله بالصليبيين، فعذره، وشرط عليه فتح الرها، لذلك أصر زنكي على فتح الرها[4]، وبذلك يجب عليه توحيد الجبهه الإسلامية للقيام بحملة قوية يستطيع من خلالها فتح الرها، ومن خلال حملاته لتوحيد البلاد استطاع أن يوحد شمال الشام بشمال العراق، فسنحت له الفرصة السير إلى الرها، وتخليصها من قبضة الصليبيين.

في المقابل كانت إمارة الرها قد اضطربت أمورها الداخلية بعد اعتلاء أميرها جوسلين الثاني، وعمت فيها الفوضى بين الأرمن – السكان الأصلين – وبين النصارى الغربيين، وكان

(1) ابن الأثير، الباهر (ص55-56).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (303/9-304).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (130/1-134)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (77/1-84).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (136/1).

أميرها جوسلين ضعيف الشخصية لا يحكم على شيء في الإمارة، لذلك استغل عماد الدين تلك الظروف، وأخذ يفكر في تملكها، فسار إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، كي يخرج أمير الرها من القلعة، وبالفعل فقد سار جوسلين إلى تل باشر للتخلص من خصومة بها، واستغل زنكي خروج جوسلين، فجمع العساكر، وسارع في النزول إليها في عسكر عظيم، وكاتب التركمان بالوصول إليه، فوصل عسكر عظيم[1]، ففرض عليها الحصار، ومن ثم أخذ يراسل أهالي الرها باذلًا لهم الأمان، طالبًا منهم أن يفتحوا له الأبواب حتى لا يدمر عليهم أسوار المدينة، إلا أنهم رفضوا التسليم، فأحاط المسلمون بهم من كل الجهات، ونصب عليها المجانيق، وقام العسكر بنقب عدة مواضع تحت أساس أبراج السور، وأشعلوا فيها النيران، حتى ركبوا الأساور، ودخلوا المدينة، وملكوها بالسيف، وأخذوا يقتلون، ويأسرون، حتى امتلأت أيديهم من الغنائم[2]، وخلص زنكي منها خمسمائة أسير مسلم سنة "539هـ/1144م"[3]؛ ةأصبح يعد فتح الرها عند المسلمين" نصر الانتصار"[4].

فبعد سقوط الرها على يد القائد عماد الدين زنكي مرحلة جديدة من مراحل الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي، فقد أحدث هذا العمل توازنًا في الرعب بين الطرفين، فمن بعد تحرير الرها دخلت المقاومة الإسلامية مرحلة التحرير، والانتصار حيث أكمل السلطان نور الدين بن زنكي مرحلة المقاومة، والتحرير، فزاد على ذلك الرعب في نفوس الصليبيين[5]، ومن الواضح أن الخلافة العباسية كانت على إطلاع بكل كبيرة، وصغيرة في شئون محاربة الصليبيين، وبالأخص في فترة الخليفة العباسي المقتفي بأمر الله، الذي ما أن سمع بفتح الرها، وسيطرة زنكي عليها، حتى أرسل له الهدايا، والتشريفات، ولقبه " الأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، عماد الأمراء، أمير العراقيين والشام"[6]، وقد أطلقت يد الشعراء لمدح عماد الدين زنكي بعد فتح الرها:

" فكـــان ثباتـــه للقلـــب قلبًـــا   وهيبتـــــه جناحًـــــا للجنـــــاح

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب (ص324)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون(5/ 277).

(2) ابن العديم، زبدة الحلب (ص325)؛ النويري، نهاية الارب في فنون الأدب (101/27).

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام (228/26).

(4) سيد، مختصر تاريخ العرب، (ص297).

(5) عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب (ص58–59).

(6) القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ص172).

صـــــفوح عنــــد قدرتــــه ولكــــن قليــل الصــفح مــا بــين الصــفاح
وأروع جيشـــــه ليـــــل بهــــيم وغرتـــــه عمـــــود للصــــــباح
وألســـنة مـــن العـــذبات حمـــر تخاطبنــــا بـــــأفواه الريـــــاح
بجـــيش جـــاش بالفرســـان حتـــى ظننــت البــر بحــراً مــن ســلاح [1]"

ومن الواضح أن حصول عماد الدين زنكي على دعم الخلافة بالمراسيم التي تؤكد ولايته وشرعية في الحكم كان له أثر كبير في دفعه لمواصلة طريقه في مواجهة الصليبيين، وتحرير المدن الشامية من الصليبيين، فقد زودته الخلافة بمرسوم تمنحه الولاية على بلاد الجزيرة، والشام، ففتح بعدها مباشرة معرة النعمان، وكفر طاب، وبعرين، والأثارب، وزردنا، وتل أعذى، وبزاعا، وسروج، والرها، فقد كان لعماد الدين أثر عظيم في نصرة الإسلام، ومهد لمن بعده في فتح البلاد بعد أن كان الصليبيون قد ضايقوا مدينة حلب، واستولوا على حصونها، وأخذوا المناصفة من المسلمين إلى بابها، فأغاثهم الله بزنكي، وبولده من بعده[2].

وبعد مقتل عماد الدين زنكي، ورث نور الدين محمود مقاومة الاحتلال الصليبي، فقد أقسم الأيمان على مواصلة الطريق على تحرير البلاد الإسلامية من دنس الاحتلال الصليبي، وكانت قد واجهته تحديات عظيمة بمجرد وصوله لسدة الحكم، استطاع أن يتغلب عليها، وأثبت أنه جدير بميراث أبيه عماد الدين في قيادة جبهة المقاومة الإسلامية، فقد كان أول تحدٍ واجه نور الدين محمود هو حملة التمرد، والعصيان التي قام بها أهل الرها من الأرمن الذين طلبوا المساعدة من جوسلين الذي لبى النداء، وسار لتسلمها من الأرمن، وبالفعل استطاع جوسلين دخول المدينة؛ لكنه لم يستطع السيطرة على قلعتها، وهنا بدأ موقف نور الدين الذي قام بمحاصرة جوسلين حول المدينة، وأصبح الصليبيون بين فكي كماشة محاصرين من الداخل والخارج، ووقعت اشتباكات قوية بينهم، استطاع المسلمون الانتصار عليهم، وهرب جوسلين من أرض المعركة، وهنا قام نور الدين باقتحام المدينة ودخلها وسيطر عليها وسبى أهلها، وقام بإرسال بعض من غنائمها إلى الأمراء[3].

---

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (141/1).
(2) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب (3846/8).
(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (175/1-176).

الحملة الصليبية الثانية "542هـ/1147م"

كانت نتيجة تحرير إمارة الرها على أيدي القوات الإسلامية قدوم الحملة الصليبية الثانية التي دعا لها البابا يوجين الثاني[1]، بقيادة ملك فرنسا لويس السابع "1137–1180م"، وامبراطور ألمانيا كونراد الثالث " 1138–1152م" على رأس سبعين ألف من فرسان الصليبيين تم جمعهم من دول أوروبا[2]؛ ولكن حصل الخلاف بينهم قبل سير الحملة، لذلك سار الواحد منهما مستقلًا عن الآخر خشية أن يقع بين العسكرين منازعات[3]، فسار في بداية الأمر الإمبراطور الألماني كنراد الثالث نحو مضيق البوسفور، تصدر لهم سلاجقة الروم حيث استطاعوا أن يلحقوا بهم الهزيمة، وأثناء مسيرهم إلى الشام تعرضت قواتهم إلى الهزيمة بالقرب من قونية، وهزم الإمبراطور كنراد على يد السلاجقة، وهلك معظم جيشه، وحينها غنم السلاجقة الكثير من جيش الصليبيين[4].

وسار الطرف الثاني من الجيش بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع الطريق، وكان الإمبراطور البيزنطي قد نصحة بتجنب اشتباكه مع السلاجقة، إلا أنه سار باتجاههم، فمني بهزيمة قاسية سنة "543هـ/1148م"، حيث تعرض معظم جيشه إلى الهلاك[5]، في المقابل كان نور الدين محمود يوجه لهم ضربات متتالية؛ بل قام بمهاجمة الصليبيين داخل بلادهم، واستطاع أن يحرر أرتاح منهم، وفتح حصن مابولة، وبسرفوث، وكفرلاثا وهاب[6]، وفي تلك الفترة كان خروج إمبراطور الألمان كنراد الثالث في جيوش عظيمة لا تحصى إلى بلاد الشام، فاتفق هو ومن بساحل الشام من الصليبيين، فاجتمعوا، وقصدوا مدينة دمشق[7].

وكان حينها عدد الصليبيين عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون من دمشق للقائهم، فكانوا مائة وثلاثين ألف رجل، وعسكر البلد، فاستشهد نحو المائتين، ثم برزوا

---

(1) باركر، الحروب الصليبية (ص73).

(2) عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب(ص 59).

(3) باركر، الحروب الصليبية (ص73).

(4) عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى (ص92)؛ طقوش، تاريخ سلاجقة الروم (ص145–146).

(5) عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى(ص93)؛ طقوش، تاريخ سلاجقة الروم (ص146–147).

(6) ابن العديم، زبدة الحلب (ص330).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (193/10)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (189/1).

في اليوم الثاني، فاستشهد جماعة، وقتل من الصليبيين عدد كبير، وقد وصل سيف الدين غازي وأخوه نور الدين في عشرين ألفًا إلى حماة، حيث ادعى أحد القساوسة هناك أن المسيح وعده بأخذ دمشق، فاجتمعوا حوله[1] وهاجموا دمشق، فحمل عليهم المسلمون، فقتلوهم، وانهزم الصليبيون، وحرقت صلبانهم[1]، وانسحبت الجيوش الصليبية إلى فلسطين، ومنها غادر الإمبراطور كونراد عن طريق البحر إلى القسطنطينية ثم إلى ألمانيا، بينما تأخر الملك لويس عدة أشهر، ثم غادر بطريق البحر إلى فرنسا، وبذلك فشلت تلك الحملة[2].

فاستغل نور الدين فشل الحملة في استرداد الرها، فقام بفتح ما تبقى فى أيدي الصليبيين من إمارة الرها، المتمثلة بتل باشر في الجزء الغربي من الرها، واستطاع هزيمة عساكر أنطاكية، والتخلص من صاحبها ريموند، ثم استولى على مدن عديدة قريبة من إمارة أنطاكية[3].

ومن ثم استنجد صاحب حصن العريمة بنور الدين زنكي، فاستغل ذلك نور الدين، وسير معه معين الدين آنر، وطلب المساعدة من أخيه سيف الدين غازي، يستنجده ضد الصليبيين فأمدهما بعسكر كثير، فنازلوا الحصن، وحصروه، فطلب الصليبيون الأمان، فأمنهم المسلمون، وملكوا الحصن، وأخذوا كل من به من أسرى، وخربوا الحصن، وعادوا إلى حمص[4]، ومن ثم تجمع الصليبيون ليقصدوا أعمال حلب، فخرج إليهم نور الدين بعسكره، والتقاهم بيغري، واقتتلوا قتالًا شديدًا، فانهزم الصليبيون، وأسر وقتل منهم الكثير، ولم ينج منهم إلا القليل[5]؛ وأرسل نور الدين من الغنيمة، والأسارى إلى أخيه سيف الدين، وإلى الخليفة ببغداد، وإلى السلطان مسعود[6].

وقد كان الأمير نور الدين محمود يراسل الخلافة بكل كبيرة، وصغيرة، حتى أنه عندما انتصر على الصليبيين في تلك المعارك أرسل إلى الخليفة العباسي المقتفي بأمر الله من

(1) ابن العماد، شذرات الذهب (134/4).

(2) باركر، الحروب الصليبية (ص76)؛ عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى (ص93).

(3) باركر، الحروب الصليبية (ص77).

(4) ابن العديم، زبدة الحلب (ص330)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (196/1).

(5) ابن العديم، زبدة الحلب (ص330).

(6) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب(109/27).

غنائمهم، وأسراهم، وهذا ما يؤكد ما كانت تقوم به الخلافة العباسية من تشجيع الملوك في الشام على محاربة الصليبيين[1].

وهكذا انتهت حملة من أكبر الحملات الصليبية إلى الفشل الذريع؛ بسبب تضامن الإمارات الإسلامية، كالموصل، وحلب مع دمشق، وسلاجقة الروم فى وجه العدوان، وبسبب توفر إرادة المقاومة، والقتال فى نفوس القادة، بعكس الوضع الذي حصل خلال الحملة الصليبية الأولى التي حققت أهدافها باحتلال معظم بلاد الشام، وبسبب اختلاف هذه الإمارات، وعدم توفر إرادة القتال، وضعف روح المقاومة في نفوس الحكام، والفضل في تنسيق الجهود، وتنظيم الأدوار، وفي تقريب وجهات النظر يعود لمؤسسة الخلافة العباسية التي نشطت دبلوماسيًا بين الأطراف[2].

فقد انتصر نور الدين محمود على الصليبيين في معركة انب سنة "544هـ/1149م"، وسيطر على الغنائم، وقتل أميرهم ريموند، فعمت الفرحة في صدور المسلمين[3]، فما كان من نور الدين إلا أن قام بوضع رأس ريموند، وذراعة الأيمن في صندوق من فضة، وأرسله للخليفة العباسي في بغداد[4].

وفي عام "545هـ/1150م" فتح نور الدين حصن إعزاز[5]، وسيطر على قلعة أفاميه، وبانتصاره على الصليبيين استطاع أن يأسر الملك جوسلين الثاني، وبأسرهم عمت الفرحة في البلاد، ثم استطاع نور الدين محمود السيطرة على تل باشر، وعنتاب، ونهر الجوز، وبرج الرصاص[6]، ونتيجة الانتصار الذي أحرزه السلطان نور الدين على الصليبيين جاءه منشور

---

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (281/5).

(2) المرجع السابق(ص281).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (363/9-364) النويري، نهاية الأرب (109/27-110)؛ سيد، مختصر تاريخ العرب (ص300).

(4) عاشور، ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية (ص468).

(5) اعزاز: قلعة تقع شمالي حلب. الحموي، معجم البلدان (118/4).

(6) سيد، مختصر تاريخ العرب (ص300).

من بغداد، وكان قد لقبة الخليفة في هذا المرسوم " الملك العادل" نتيجة انتصاره، ومقاومته للصليبيين[1].

وما أن استلم نور الدين دمشق سنة "549هـ/1154م" حتى حقق الوحدة الإسلامية تحت حكم سلطة الخليفة، فما كان من الخليفة المقتفي بأمر الله، إلا أن أعطى للسلطان نور الدين عهدًا دبلوماسيًا بإقرار السلطنة السيادية له، كذلك يحثه على السير إلى مصر، لانتزاعها من الفاطميين[2]؛ وبعد سقوط دمشق بيد السلطان نور الدين محمود كان ذلك ضربة قاضية لإمارة بيت المقدس، إذ فتحت له الطريق لتوحد الموصل، مما يجعل الطريق مفتوحة لمواجهة الصليبيين في بيت المقدس[3].

ومن ضمن المراسلات الدبلوماسية التي كان يرسلها نور الدين للخلافة في بغداد أثناء محاربة الصليبيين، أنه بعد انتصاره على الصليبيين في غزة، وتملكه لها سنة "552هـ /1159م"[4]، قام بإرسال وفدًا إلى بغداد يحمل تحفًا، وهدايا، ورؤوس قتلى الصليبيين وأسلحتهم، وهذه المراسلات بين الخلافة ونور الدين ما هي إلا إشارة إلى تأديته لدوره القتالي ضد أعداء المسلمين لكسب دعم وتأثير مؤسسة الخلافة العباسية[5].

وفي عام "558هـ/1163م" كان السلطان نور الدين محمود عازمًا على قصد طرابلس للسيطرة عليها، وفتحها من الصليبيين، وفي مسيره إلى طرابلس حاصر حصن الأكراد، بينما عسكر نور الدين في خيامهم، ظهر الصليبيون فجأة من الخلف، وقد اجتمعوا، واتفقوا على مهاجمة المسلمين على غفلة، فلم يشعر المسلمون بذلك إلا وقد اقتربوا منهم، وهاجموهم فجأة، فلم يثبت المسلمون أمام غدر الصليبيين، فأكثروا فيهم القتل، والأسر[6]، وقد اشترك الروم مع الصليبيين في هذه الحملة ضد نور الدين، وقصد الصليبيون خيمة نور الدين، وقد ركب فيها

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية (228/12)؛ سيد، مختصر تاريخ العرب (ص301).

(2) السيوطي، حسن المحاضرة (206/1)؛ عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية (ص63-64) عاشور، ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية (ص469).

(3) باركر، الحروب الصليبية (ص51).

(4) ابن الجوزي، المنتظم (119/18)؛ عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية (ص64).

(5) ابن الجوزي، المنتظم (119/18)؛ عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية (ص64).

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (463/9).

فرسه، ونجا بنفسه بأعجوبة حتى وصل حمص، وهنا أخذ نور الدين يفكر بالثأر من الصليبيين، ومهاجمتهم حتى أنه قال" والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام "[1].

وقام نور الدين بتحصين جيشه، وأخذ يعد العدة لملاقاة الصليبيين، وأرسل إلى حلب، ودمشق، وأحضر لهم الأموال، والثياب، والخيام، والسلاح، والخيل، فأعطى الناس، وقوي عسكره، وكأنه لم يهزم[2]، وأما الصليبيون كانوا عازمين على قصد حمص بعد هزيمة المسلمين، فبلغهم مقام نور الدين عندها، فقالوا :"إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا"[3]، وبالفعل فقد قام نور الدين بتجنيد الجند، وتحصين العسكر للثأر منهم حتى إن الصليبيين أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة، فلم يجبهم، لذلك تركوا الحصن، وتفرق جمعهم [4].

وقام نور الدين بمراسلة أخيه قطب الدين في الموصل وطلب النجدة منه، وكذلك راسل أرسلان صاحب حصن كيفا، ونجم الدين حاكم ماردين، وغيرهم من الأمراء يدعوهم إلى مساعدته في محاربة الصليبيين[5]، وفي تلك المرحلة – كما ذكرنا – كان الملك عموري ملك بيت المقدس قد سار إلى مصر لتملكها، ومحاربة الصليبيين فيها، لذلك أخذ نور الدين يفكر في محاربة الصليبيين في حارم للتخفيف عن المسلمين في مصر[6].

وبعد أن اجتمعت القوات الإسلامية من جميع المناطق، قام نور الدين بمهاجمة حارم، فتصدى أمير حارم ربنو اف سانت فاليري لعسكر المسلمين، وانضم إليه بوهمند الثالث أمير أنطاكية، وريموند الثالث أمير طرابلس، حتى أن البيزنطيين ساعدوا الصليبيين بقيادة كولمان حاكم قلقيلية وبعض الأمراء الصليبيين؛ لمساندة أمير حارم ضد نور الدين، وبذلك التقى الطرفان عند حارم في رمضان سنة "559هـ / 1164"[7].

---

(1) ابن الأثير، المرجع السابق (463/9).

(2) ابن العديم، زبدة الحلب (ص344)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (398/1).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (398/1).

(4)أبو شامة، المرجع السابق(399/1).

(5) ابن واصل، مفرج الكروب (143/1-144).

(6)ابن واصل، المرجع السابق(143/1).

(7) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (220/28)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (39/38)؛ عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية (ص64).

وفي نهاية المطاف انتصر المسلمون على القوات المتحالفة، وأخذ المسلمون يقتلون، ويأسرون في صفوف الصليبيين، حتى أُسِرَ كل من بوهمند أمير أنطاكية، وريموند أمير طرابلس، وجوسلين الثالث، ولوزجنان، وكولمان حاكم قلقيلية، وكان عدد القتلى في صفوف الصليبيين يزيد عن عشرة آلاف قتيل(1).

وأما الخلافة العباسية فقد كانت في تلك الفترة مشغولة في محاربة الفتن داخل بغداد، فقد قام الخليفة المستنجد بمحاربة بني أسد أصحاب الحلة، وإجلائهم عن العراق، بسبب عدائهم لأهل بغداد(2)، والجدير أن السلطان نور الدين كان حريصًا على مراسلة الخلافة العباسية في كل الأمور، وكذلك الخلافة كانت تستشير نور الدين في أغلب أمورها، فعندما تولى المستضيء بأمر الله أمر الخلافة أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك، ويطلب مبايعته(3).

وحرص نور الدين على الحصول على التقليد بتوليته على مصر، والشام، وبلاد الجزيرة، وتم له ما أراد، وهذا يدل على مدى الدبلوماسية التي لعبتها الخلافة في محاربة الصليبيين عن طريق الدولة الزنكية، نتيجة دعمها لها في المواضع العسكرية، والسياسية، والدينية، والاقتصادية، وما يدل على رضى الخلافة العباسية عن نور الدين، تلك النقوش الموجود على جدران الآثار، والتي شيدت في عهد الدولة النورية، إذ وصف نور الدين بأنه " نصير أمير المؤمنين " في نقش على جامع بمدينة الرقة يرجع إلى عام "561هـ/1165م" (4)، وكذلك لقب بأنه "ناصر أمير المؤمنين" في نقش على قلعة حلب(5).

وكانت الخلافة العباسية قد حرصت على دعم الدولة الزنكية من أجل حمايتها من الخطر الخارجي بتوفير الدعم المالي لها عندما احتاجت إليه، وخير مثال على ذلك عندما ضرب الشام زلزال سنة "565هـ/1117م"، كان قد دمر البنية التحتية للدولة الزنكية، وقام نور الدين بإصلاح ما تم تدميره، وأنفق الأموال على ترميم مدينة حلب، وهي أكثر المدن الرئيسة المدمرة من الزلزال(6)؛ ولكن لم يستطع نور الدين تغطية هذه الميزانيات، فطلب مساعدة الخلافة، وبين لها

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (468/9-469).

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام(38/38).

(3) عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية (ص29).

(4) الشافعي، تاريخ مدينة دمشق (74/58)؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق(278/7).

(5) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (58/1)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء(531/20).

(6) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (155/2).

ما حصل في بلاد الشام من دمار، وخراب على أثر الزلزال، وطالب بالعون المالي لإصلاح ما تم تدميره، فأمدته الخلافة بالدعم المالي الذي يغطي كل ما تم إنفاقه [1].

ومن الواضح أن الدولة الزنكية احتاجت من الخلافة تأييد حكمها للمناطق الخاضعة لها في بلاد الشام، والجزيرة، إذ أن تأييد الخلافة يدعم حكم نور الدين، لذلك حرص نور الدين للحصول على تقاليد سيادته السياسية من خلال إرسال البعثات الدبلوماسية، للخلافة العباسية، تطلب منها الاعتراف، والتقليد للأمراء الزنكيين، وكذلك تطلب من الخلافة الدعم المادي وقت الحاجة للتصدي للخطر الصليبي في المنطقة، ويبدو أن الخلافة العباسية رأت في الدولة الزنكية قوة سياسية فعالة في المنطقة، من الممكن أن تجني من ورائها الكثير بتوطيد علاقاتها معها، وهي التي تصارع الصليبيين، وتحقق الانتصارات عليهم؛ لذلك فإن تأييد الخليفة العباسي لنور الدين كان يجعله محط تقدير بالغ لرعاياه في العراق وخارجه[2].

وكما عملت الدولة الزنكية على توطيد علاقاتها بالخلافة العباسية عن طريق السفارات الدبلوماسية المتبادلة، وكان نور الدين حريصًا في اختيار السفراء من الفقهاء، والعلماء، ذوي أصل عراقي، لكي يدعم صلته ببغداد، والخلافة معًا، وقد حمل أولئك السفراء الرسائل، والهدايا لمخاطبة ود خليفة بغداد، واحتوت الرسائل على بعض المطالب، أو إظهار الولاء، أو التهنئة بمناسبة تولية الخليفة، ومن ضمن السفراء الذين لعبوا دورًا مهمًا في العلاقات بين الخلافة والدولة الزنكية الأصفهاني[3]، وكمال الدين الشهرزوري[4].

وأخذ نور الدين زنكي يدعم تلك العلاقة مع الخلافة لحماية نفسه من الولايات المجاورة له؛ وكذلك حتى تساعده الخلافة على توسعاته الخارجية[5]، وفي عام "568هـ/1173م" أرسل

---

(1) حمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية (ص212-213) ؛ عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية، (ص71-72).

(2) حمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية (ص212-213) ؛ عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية، (ص71-72).

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان (148/5).

(4)ابن خلكان، المرجع السابق(241/4).

(5) عوض، السياسة الخارجية للدولة النورية (ص64-66).

السلطان نور الدين محمود ثلاثين رأسًا من رؤوس كبار قادة الصليبيين للخليفة العباسي في بغداد[1].

كان السعي لوحدة بلاد الشام، ومصر أمرًا مقررًا في خطط نور الدين المستقبلية، وتوسيع مملكته، فقد كان يهدف من وراء ذلك إقامة الدولة الإسلامية الكبرى باعتراف الخلافة العباسية، وحتى يتحقق هذا الهدف يجب عليه توحيد الدولة، ومحاربة الصليبيين، وكذلك فإن نور الدين اعتمد القاضي كمال الدين سفيرًا له للخلافة، فقد أرسله للخليفة العباسي المستضيء يطلب منه تقليدًا بما في يده من بلاد الشام، ومصر، والجزيرة، والموصل، وبما في طاعته كديار بكر، وما يجاور ذلك كخلاط، وبلاد أرسلان، وعاد القاضي، ومعه منشور من الخليفة المستضيء لنور الدين بالموصل، والجزيرة، وأربل، وخلاط، والشام، وبلاد الروم، وديار مصر، وذلك سنة "568هـ/1173م"[2]، كان هذا التقليد بالنسبة لنور الدين يشكل دعمًا كبيرًا من الخليفة لمحاربة الصليبيين في مصر، والشام تحت سلطة الخلافة.

ويرى الباحث هنا بأن العلاقة الدبلوماسية ما بين الخلافة، والدولة النزكية كانت علاقة حسنة، وبالأخص زمن السلطان نور الدين زنكي، فقد كانت هناك مراسلات ما بين السلطان نور الدين، والخليفة العباسي تبين للخليفة ما يحصل في بلاد الشام، ومن المرجح أن مؤسسة الخلافة كانت حريصة على ذلك، فدعمت نور الدين بالمال، والسلاح، والشرعية، فشكلت لنور الدين غطاء سياسي، وديني، وهذا العمل يسجل للخلافة العباسية، فقد استطاعت أن تستخدم الآلة الدبلوماسية، وتحقق ما لم تحققه جيوش الأمراء المتنازعين المتفرقين، فقد نجحت في صناعة قائد كنور الدين محمود، وجعلت له رمزية في قلوب المسلمين، فقد تعاقبت مراسيم الدعم، والشرعية لنور الدين من الخلافة، ولعل كثافة وزحمة البعثات الدبلوماسية في عهد نور الدين محمود تدلل بشكل قوي ما ذهب له الباحث.

3.1.2 ثانيًا: دعم الخلافة العباسية للدولة الأيوبية في محاربة الصليبيين

يعد صعود الدولة الأيوبية في محيط من الإمارات الصليبية في بلاد الشام ومصر سببًا رئيسًا للقيام بمحاربتهم ومقاومتهم، فجهاد الصليبيين هي السمة الأساسية والغالبة في تاريخ الدولة الأيوبية، فقد استطاعت فتح العديد من الحصون والقلاع والسيطرة عليها سيطرة كاملة.

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية (271/12).

(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (396/5).

فقد كان السلطان صلاح الدين الأيوبي مناصرًا للخلافة العباسية في بغداد، حتى أنه كان يناصر الخلافة، ويخبرها بكل ما يحصل في البلاد، حيث كان يحارب الصليبيين في عقر دارهم قبل أن يؤسس دولته، ففي عام "565هـ/1169م"، وصلت الحملة البيزنطية على دمياط، فأرسل يخبر الخليفة بأحداثها، وما حصل في بلاد مصر، فأرسل للخلافة بأنه" ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضدين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره وخابت المطامع من المصريين والصليبيين"[1].

فقد كان صلاح الدين جديرًا بميراث نور الدين في قيادة جبهة المقاومة الإسلامية ضد الاحتلال الصليبي، من أجل ذلك وثقت به الخلافة، وأصبح يمثل رجل الخلافة العباسية القوي والمؤيد بشرعيتها، ويدعمها في مشروعاته على الرغم أنه ليس من البيت الزنكي، فبعد إفشاله للحملة الصليبية على دمياط بعام واحد فقط توجه لضرب الصليبيين داخل حصونهم، وقلاعهم، وداخل فلسطين، وهاجم عسقلان، والرملة، وانتصر على الصليبيين في غزة، ومن ثم عاد إلى مصر، وعمل مراكب مفصلة، وحملها في البر، وقصد أيلة، وحاصرها براً وبحراً حتى فتحها[2]، وأرسل للخليفة العباسي يبين له النصر الذي أحرزه على الصليبيين في فتح مدينة أيلة[3].

وأرسل السلطان صلاح الدين للخليفة المستضيئ بأمر الله يؤكد له مواجهته للصليبيين ومحاربته لهم، ويبين له خططهم وما يحصل بينهم، وما جاء في هذا الكتاب : " أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار، وسيروا الصليب ومن كسى مذابحهم بقمامة، وهددوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، ونفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورونه ممن يسمونهم القديسين ... يا أمير المؤمنين أعز ناصرًا لاسيما وهم ينصرون باطلًا وهو ينصر حقًا، وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا"[4].

وفي عام "573هـ/1177م" اجتمع الصليبيون بالشام قاصدين مدينة حماة، وكان بها الأمير شهاب الدين محمود الحارمي، وهاجم الصليبيون المدينة، فاجتمع المسلمون على صدهم في المدينة حتى رحلوا عنا خائبين[5]، وعندما وصلت أخبار عدوان الصليبيين على حماة، أرسل

---

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (161/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى (90/13).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (31/10).

(3) القلقشندي، صبح الأعشى (90/13-91).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (367/2-368).

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (86/10)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (ص376).

صلاح الدين للخلافة في بغداد يخبرهم بهجوم الصليبيين على حماة، وصد المسلمين لهم[1]، وحينها استطاع صلاح الدين فتح الكثير من البلدان من أيدي الصليبيين، فأرسل مع الرسول الشهرزوري عشرة من أسرى الصليبيين إلى بغداد[2].

واتجه السلطان صلاح الدين إلى أنطاكية ففرض عليها الحصار فجاءته رسل صاحبها ريموند، وسأله الهدنة ثمانية أشهر بحيث يطلق جميع ما عنده من أسرى المسلمين، فاستشار السلطان أصحابه، فأشار أكثرهم بذلك ليستريح العسكر ويجددون ما يحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك، ووقعت الهدنة ثمانية أشهر[3]، وكان صلاح الدين قد عقد الهدنة مع الصليبيين سنة "576هـ/1178م"، فأرسل إلى الخليفة المستضيء بأمر الله يبين له سبب توقيع الهدنة مع الصليبيين وما جاء في الكتاب" قد علم الله سبحانه أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكنا قد بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولًا وكالأنعام أو أضل سبيلًا، إن بنى معهم فعلى غير أساس، وإن عدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس"[4].

وكان الصليبيون قد حاولوا المسير إلى المدينة المنورة، والسيطرة على مراكب الحجاج بقيادة أرناط[5]، وقد اجتمعوا، وأنشأوا مراكب، ودفعوها في البحر، وركبوها قاطعين بالحجاج، حيث ساروا إلى عيذاب[6]، فأخذوا فيه مركبًا للحجاج من جدة، وأخذوا في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عيذاب، وقتلوا الجميع، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن، وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام، وكانوا عازمين على دخول مدينة الرسول؛ ولكن

---

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (471/2).

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام (34/40).

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص93-94)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (275/28).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (85/3).

(5) أرناط: واسمة ريجنالد شتيون حاكم الكرك، أسر بيد نور الدين سنة 455هـ حتى 572هـ، تزوج زوجة صاحب حصن الكرك اشتهر بالغدر والخيانة وعدم الوفاء بالعهود، الشامي، صلاح الدين والصليبيين (ص123).

(6) عيذاب: تقع على شاطئ البحر الأحمر وبها مسجد جمعة، تابعة لسلطان مصر، وفيها تحصل المكوس على ما في السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن. خسرو، سفر نامة (ص118).

استطاعت المراكب المصرية التي أعدها صلاح الدين صدهم، وإلحاق الخسائر بهم، وقتلوا، وأسروا منهم الكثير، وفرق من الأسارى على البلاد[1].

فكاتب السلطان صلاح الدين الخلافة العباسية، وبين لها ما حل بالمسلمين أثر مهاجمة أرناط للمدينة المنورة، وتصدي المسلمين له، وذلك في عام "578هـ/1183م"، حيث بين ذلك بكتاب جاء فيه" وسارت هذه المراكب الإسلامية طالبة شوكة المراكب الحربية المتعرضة للمراكب الحجازية، واليمنية،، وكانت مراكب العدو قد أوغلت ... إلى عيذاب ... نالت منه وشعثت وأفسدت فيه، وعتت وتمادت في الساحل الحجازى إلى سواحل الحوراء، وهناك وقع عليها أصحابنا، وأوقعوا بها أشد الإيقاع، وأخذوا المراكب الصليبية بأسرها على حكم البدار، والإسراع، وفر فرنجها إلى الساحل، فركب أصحابنا وراءهم خيول العربان التي وجدوها، وأسروا الكفار "[2].

وأثناء سيطرة الأسطول المصري مرة أخرى على مسطبة للصليبيين في عرض البحر المتوسط أرسل صلاح الدين البشرى للخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة "579هـ/1183م"[3]، وفي العام نفسه كان المسلمون قد انتصروا على الصليبيين بالقرب من بيسان فأحرقها، فجمع المسلمون الغنائم وعادوا إلى دمشق، ومعهم أسرى الصليبيين[4]، ومن ثم أرسل السلطان إلى الخلافة العباسية يبشرهم بالنصر في بيسان، وما حدث حول أحداث المعركة مع الصليبيين[5].

وقد أرسل السلطان إلى الخليفة يبشره باستعداده لمواجهة الصليبيين بمعركة كبرى، وتحصين نفسه، حيث استدعى العساكر في بلاد الشام، ومصر، وأخذ يستنفرهم لحملة كبرى لملاقاة الصليبيين، فتجمعت عنده العساكر من مصر، وبلاد الجزيرة، والشام استعدادًا للمعركة[6]، وأرسل إلى بعض الأمراء للاستعداد للمعركة الفاصلة، حيث جاء في الكتاب " وقد

---

(1) رحلة ابن جبير (ص57).

(2) الأصفهاني، البرق الشامي (72/5-73)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (138/3).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين(141/3).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (119/10)؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (266/28).

(5) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (187/3-189).

(6) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (276/3-277).

ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لا يحصله الخاطر"[1].

وتجمع الطرفان وكل طرف محصن نفسه، فقام صلاح الدين بجمع عسكره وأغار على طبرية حتى أخذها عنوةً، فتأهَّبت العساكر الصليبية وحشدوا، وجاءوا من كل فجّ، وأقبلوا على جيش صلاح الدين، وكان المسلمون اثني عشر ألف فارس، وخلقٍ من الرجَّالة، وقيل كان الصليبيون ثمانين ألفًا مابين فارس ورجل، التجأ العسكريون إلى جبل حطين[2]، فأحاط المسلمون بهم من كل جانب، ووقع القتال، فهزم الصليبيين أشد هزيمة، وانتصر المسلمون أعز انتصار، وأُسِر خلقٌ، منهم الملك كي، وأخوه جفري، وأمير جُبيل، وهنفري بن هَنفري، والإبرِنْس أرناط، وابن أمير إسكندرونة، وأمير مرقيّة[3].

فأرسل السلطان صلاح الدين بكتاب للخليفة العباسي يصف فيه انتصاره في حطين قد جاء فيه" صبح الخادم طبرية فاقتض عذرتها بالسيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل، وعاجلهم الأمر فلم يقدروا على الخداع ... وأسر الإبرنس لعنه الله، فحصد بذره، وقتله الخادم بيده، ووفى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدمي دولته، وكبراء ضلالته، وكان القتلى تزيد على أربعين ألفاً"[4].

وبعد أن استطاع هزيمة الصليبيين في حطين سار متجهًا إلى بيت المقدس، ونزل جيشه حول المدينة، ونصب صلاح الدين المجانيق في الناحية الشمالية، ورمى بها المدينة، وهاجموها يدًا واحدة، حتى أنهم نقبوا السور، وأشلعوا النيران فيه، فتأثر الصليبيون من هجمات المسلمين حتى قرروا إرسال وفد لطلب الأمان، فطلب صلاح الدين تسليم المدينة مقابل الأمان على أرواحهم وأموالهم [5] فوقع الصلح بين الطرفين، وقد نصت المعاهدة على الأتي:

- فدية الرجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة دنانير، الطفل دينارين.

---

(1) ابو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (275/3).

(2) حطين: قرية بين أرسوف، وقيسارية بالشام القيسراني، المؤتلف والمختلف (56/1).

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (144/10-149)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (18/41-19)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (357/5-358).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (312/3-313).

(5) اغنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون (ص41).

- مدة دفع الجزية أربعون يوما، فمن عجز عن السداد بعد هذا الوقت صار مملوكًا.
- التزم قائدهم باليان بدفع ثلاثين ألف دينار عن الفقراء.
- سمح للفرنجة بحمل سلاحهم ليأمنوا شر اللصوص وقطاع الطرق.
- إطلاق سراح جميع أسرى المسلمين(1).

وتسلم صلاح الدين المدينة، وأخذ ينظف المسجد الأقصى، ويطهره من نجس الصليبيين، وصلى المسلمون بالمسجد، وكبروا به فرحًا، وهكذا حرر بيت المقدس من أيدي الصليبيين بعد أن سيطروا عليه أكثر من ثمانين عامًا(2)، وأرسل صلاح الدين للخليفة يبشره بفتح بيت المقدس من الصليبيين، وفتح العديد من المدن التي تحيط به، وما جاء بالكتاب :" تقلص ظل الكفر المبسوط، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط، واسترد المسلمون تراثًا كان عنهم آبقًا، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النائم طارقًا"(3).

وفي تلك الفترة أرسل الخليفة العباسي الناصر لدين الله للسلطان صلاح الدين "585هـ/1189م " بأن يدعو لابنه من بعده، وفوض ولاية العهد إلى ولده عدة الدين أبى نصر محمد من بعده، وأرسل إلى صلاح الدين من أجل إقامة الخطبة له من بعده في مصر، والشام، وجميع بلاد الإسلام، فأكرم صلاح الدين رسول الخليفة، وعاد الرسول إلى بغداد ومعه " التحف السنايا، وأسارى الفرنج الفوارس، وعددها النفائس، وتاج ملكهم السليب، والملبوس، والطيب، والصليب"(4).

- **الحملة الصليبية الثالثة "585هـ/ 1189م"**

كانت نتيجة تحرير بيت المقدس على يد المسلمين انتشار الرعب في قلوب الأوربيين، ودعا حينها البابا بقيام حملة صليبية ثالثة، قادها ثلاثة ملوك أوربيين، وهم: الإمبراطور فردريك بربروسا، والملك فيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الأول ملك إنجلترا؛ لكن الحملة فشلت بسبب غرق بعض السفن، والنزاع الذي حصل بين ملك فرنسا، وريتشارد، بالإضافة لوجود

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (146/10)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص134).

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (154/10-156)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص134).

(3) ابن واصل، مفرج الكروب (239/2)؛ للإطلاع على باقي الكتاب انظر نفسا لمصدر (239/2-240).

(4) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين(65/4)؛ عاشور، ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية(ص477).

شخصية صلاح الدين الذي قاد المقاومة ضد هذه الحملة التي تمثل أكبر حملة صليبية في تاريخ الحملات الصليبية من ناحية القيادة، وتعداد الجيوش[1].

كان من ضمن المدن التي سيطر عليها صلاح الدين مدينة عكا، إلا أن الصليبيين قاموا بحصارها أكثر من عامين، بحيث طلب أصحابها الأمان من الصليبيين، وتسليم المدينة مقابل الأمان على أرواحهم، وهذا كان نتيجة الحملة الصليبية الثالثة على بلاد الشام، والتي اتخذت مدينة عكا مركزًا لها[2].

وبعد أن انتصر صلاح الدين في حطين، وطهر بيت المقدس من نجس الصليبيين، استنجد الصليبيون بالغرب الأوروبي، فقرر إرسال الحملة الثالثة على بلاد الشام، فما كان من صلاح الدين أن استنجد بالخلافة العباسية، وأرسل كتابًا للخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة "586هـ/1190م"، وما جاء في هذا الكتاب:" أدام الله ظل الديوان العزيز النبوي الإمامي الشريف الناصري، ومده على الأمة ظليلًا وجعل الأنوار عليه دليلًا، وأحاطه بلطفه، وتقبل أعماله بقبول حسن، وأنبتها، وأرغم أعداءه وكبتها، ومسها بعذاب من عنده، وسحتها، ولا زالت رايته السوداء بيضاء الخبر، محمرة المخبر في العداة، مسودة الأثر"[3].

ارسل صلاح الدين للخليفة يوضح له مجرى أحداث الحملة الصليبية الثالثة، وسيطرتها على عكا، واستبسال أهلها من المسلمين في الدفاع عن الحملة، وهنا استنجد صلاح الدين بالخليفة، حيث جاء من ضمن الكتاب "اللهم إن تهلك هذه العصابة ونرجو على يد أمير المؤمنين الإجابة "[4]، وأثناء تشديد الصليبيين الحصار على عكا أرسل السلطان للخليفة كتابًا آخرًا، وبين فيه الحصار الذي فرض على المدينة، واتحاد الجيوش الغربية، والألسنة الأعجمية على فتح المدينة، وقلة الذخيرة لدى المدافعين عنها، وصبرهم على القتال[5].

لكن الخليفة لم يجبه صلاح الدين في طلب المساعدة، وأرسل إليه الشريف فخر الدين بالشئ القليل من الجند، فسار رسول الخليفة إلى عكا "ومعه حملان من النفط الطيار، وحملان

---

(1) عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب (ص68-69).

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص167)؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (255/4).

(3) القلقشندي، صبح الأعشى (135/7-136).

(4) الذهبي، سير أعلام النبلاء (211/22)

(5) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (25/4-252).

من القنا الخطار، وتوقيع بعشرين ألف دينار يقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الإحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ما أحضره، وأخلص الدعاء للديوان العزيز، وشكره غير أنه أبدى رد التوقيع، وقال كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان"[(1)].

كان الصليبيون يريدون السيطرة على بيت المقدس وعزموا على قصده، فقويت نفوسهم باستيلائهم على عكا، وتحصنوا، واخذوا يجمعون الأموال، وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم، وأخذوا يجمعون الأموال، والعتاد، واستنجدوا بأصحاب صور، وطرابلس، وعكا، واستحضروا المقاتلة ليصعدوا إلى القدس، ولما عرف السلطان صلاح الدين أخذ يحصن بيت المقدس، ويقطع الميرة عنهم في البلاد المجاورة لبيت المقدس[(2)].

فما أن علم الأمراء الصليبيون بتحصين صلاح الدين لبيت المقدس، حتى اختلفوا فيما بينهم، وتمثل رأيهم نحو اتجاهين: فقد رأى أصحاب العسكر الفرنسي بأنه يجب علينا المسير إلى القدس، والسيطرة عليها، إلا أن الطرف الآخر المتمثل بالعسكر الإنجليزي بقيادة ريتشارد فقد علم بتحصينات صلاح الدين، الأمر الذي أوقفه عن المسير إلى بيت المقدس، وهدد بأنه سوف يتخلى عن قيادة القوات بسبب قلة القوات مقابل تحصينات صلاح الدين[(3)].

ونتيجة الاختلاف في العسكر الصليبي تراجع المعسكر الفرنسي عن الجيش، وسار إلى يافا، والساحل، وتعرض عسكر ريتشارد لضربات من قبل القوات الإسلامية، فتراجع الآخر عن الحملة، وبذلك اطمأن صلاح الدين لفشل تلك الحملة[(4)]؛ ووقع النزاع بين العسكرين، فعاد ملك فرنسا إلى بلاده، فانفرد ريتشارد بالأمر في عكا؛ الأمر الذي جعله يعقد الصلح مع صلاح الدين، ومن ثم عاد الآخر إلى بلاده، وتم توقيع اتفاقية الرملة سنة "587هـ/1192م" بين الطرفين[(5)]، وكان أهم بنود الاتفاقية:

---

(1) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (120/4)؛ النويري، نهاية الأرب (283/28).

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص215)؛ الحياري، القدس في زمن الفاطميين والفرنجه (ص84-85).

(3) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (305/4).

(4) ابن شداد، النوادر السلطانية (ص216-218)؛ عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية (ص33).

(5) باركر، الحروب الصليبية (ص91)؛ عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب (ص68-70)؛ عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية (ص34).

- أن تكون عسقلان بأيدي المسلمين.
- تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين(1).
- أن يكون الساحل من صور إلى يافا بأيدي الصليبيين.
- ضمان سلامة الحجاج الصليبيين أثناء زيارتهم إلى بيت المقدس.
- أن تبقى بيت المقدس بأيدي المسلمين(2).
- مدة الهدنة ثلاث سنوات(3).

وبعد وفاة صلاح الدين بقيت الهدنة سارية المفعول حتى ملك الملك العادل مدينة دمشق من الأفضل بن صلاح الدين، وقد تحصن الصليبيون للغدر بالمسلمين في بيروت، وصور، فلما سمع العادل بذلك طلب المساعدة من العزيز، وأرسل إلى ديار الجزيرة، والموصل يطلب العساكر، فجاءته الإمدادات، واجتمعوا على عين جالوت، ومنها ساروا إلى يافا، وملوكها عنوة، وأخذ كل ما بها غنيمة، فأسروا الكثير من الصليبيين، وكان فتحها سنة "593هـ/1197م"(4).

وفي عام "607هـ/1211م"، توجهت مراكب من عكا إلى البحر إلى ثغر دمياط، وفيها ملك قبرص المسمى إليان، فدخل الثغر ليلًا، فأغار على بعض البلاد، فقتل، وسبى، ولم يحرك المسلمون ساكنًا، وفي العام نفسه عاثت العساكر الصليبية بنواحي القدس، فبرز إليهم الملك المعظم، وحث على الجهاد، ثم سار هو ومن معه نحوهم فقتلوا خلقًا من الصليبيين، وخربوا أماكن كثيرة، وغنموا، وعادوا سالمين، فبعث الصليبيون إلى العادل يطلبون منه الأمان، والمصالحة فهادنهم(5).

من الملاحظ أن الخلافة العباسية كانت رافعة، وداعمة لكل قوى قادة الجهاد العسكري ضد الصليبيين من الأمير مودود، ثم آق سنقر البرسقي، ثم عماد الدين زنكي، ثم نور الدين محمود، ثم تلميذه صلاح الدين الأيوبي، فقد كانت داعمة بالمال، والسلاح، والمراسيم التي تضفي الشرعية على حكمهم؛ لكن بعد وفاة صلاح الدين، وتفرق دولته بين أبنائه، ثم وصول

---

(1) اغنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون (ص56).

(2) عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب (ص69)؛ عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية (ص34-35).

(3) باركر، الحروب الصليبية (ص91).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (246/10).

(5) ابن كثير، البداية والنهاية (58/13).

أخيه العادل الذي استطاع أن يوحد جزء لا بأس به من الدولة الأيوبية، فعاملت الخلافة الملك العادل، واعترفت به ملكًا، وسلطانًا، وأيدته على الرغم من وجود أبناء صلاح الدين، وسحبت اعترافها بهم[1]، فهي تبحث عن رجل قوي يستطيع أن يجمع الناس حوله، ويقودهم في جهاد الصليبيين، وعندما وصل لسدة الحكم الملك الكامل بن العادل دعمته الخلافة، واعترفت به، وطالبت جميع الأمراء بطاعته، إلا أنها تراجعت عن ذلك، وذمته عندما وقع هدنة يافا مع الصليبيين، وسلم القدس[2].

فالدبلوماسية العباسية تتغير حسب مقتضيات الحال، فبعدت قليلًا عندما أعلن الكامل أنه سيقود الحرب ضد الاحتلال الصليبي، وأرسل رسوله إلى ديون الخلافة في بغداد عام "630هـ/1233م" فعاد الرسول مع رسول الخليفة الشيخ جمال الدين بن الجوزي للكامل حاملًا معه تقليدًا على البلاد التي تحت بحوزته، داعمًا له محاربة الصليبيين في بلاد الشام، وتقليده على البلاد التي يفتتحها من أيدي الصليبيين، ولقبه في ذلك التقليد بأنه" بالملك الأجل، السيد الكامل، المجاهد المرابط، نصير الدين، ركن الإسلام، جمال الأنام، جلال الدولة، فخر الملة، عز الأمة، سند الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج، والمتمردين"[3]، ويعتبر هذا المنشور خير دليل على دعم الخلافة للدولة الأيوبية على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين، وأن كل ما يفتحه السلطان الكامل من بلاد الصليبيين تحت زعامته[4].

كان المسلمون رافضين تسليم القدس للصليبيين، فتمهل القادة المسلمون حتى انتهت الفترة سنة "637هـ/1240م"، حيث كان الصليبيون في تلك الفترة متفرقين متنازعين فيما بينهم، فاستغل الفرصة الملك الناصر داود، وأخذ يحصن نفسه من أجل استرداد بيت المقدس، ومن ثم اتجه إلى بيت المقدس، ومعه العسكر المصري، واستطاع فتحه[5]، وكان الخليفة قد خلع على الناصر، فألبسه الخلعة بالكرك، وركب بأعلام الخلافة، وزيد في ألقابه "المولى المهاجر"[6]، وهذا دليل على دعم الخليفة العباسي لأفعال الملك الناصر في محاربة الصليبيين، فالخلافة

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (10/375-376).

(2) المقريزي، السلوك (1/353-354)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (2/147)؛

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (29/115-116)؛ القلقشندي، صبح الأعشى (10/105-106).

(4) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (29/115-116)؛ القلقشندي، صبح الأعشى (10/105-106).

(5) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (29/165).

(6) الذهبي، تاريخ الإسلام (48/242).

تحاول الاستفادة من كل طاقات الأمراء الأيوبيين، وتعمل على توجيه حرب العدو الصليبي المشترك.

وبذلك استطاع الملك الناصر داود استعادة بيت المقدس بعد أن استمر في حوزة الصليبيين أكثر من عشرة سنين، وقد كان لفتح بيت المقدس أثر كبير في نفوس المسلمين رغم شدة الانقسام الذي كان بين الأمراء الأيوبيين، وما أن علم الصليبيون في عكا باستيلاء المسلمين على بيت المقدس، أخذوا يعدون العدة لمواجهة المسلمين، وساروا نحو مصر؛ ولكن العسكر الصليبي التقى بالمسلمين في غزة، وانتهى الأمر بانتصار المسلمين، وانسحاب الصليبيين إلى عكا[1]، فمن الواضح أن مؤسسة الخلافة نجحت في دعم حاكم مصر الجديد الصالح نجم الدين أيوب، فدعمته بالمراسيم، والمال، فالتف الأمراء حوله، واستطاع أن ينتصر على خصومه، ثم قاد حركة الجهاد ضد الصليبيين، فقد استطاع هزيمة الصليبيين بالقرب من غزة سنة "638هـ/1240م"، حيث كان بعض الأمراء الأيوبيين، ومنهم: الملك الصالح إسماعيل قد اتحدوا مع الصليبيين في محاربة السلطان نجم الدين، فالتقى الفريقان بالقرب من غزة، واستطاع السلطان هزيمتهم، ويذكر المقريزي ما حصل في أرض المعركة" عندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة، ومالوا جميعًا على الفرنج، فهزموهم، وأسروا منهم خلقًا لا يحصون"[2].

استطاع عسكر الصالح أيوب هزيمة الصليبيين أيضًا في غزة سنة "642هـ/1244م"، حيث اعتمد في هذه المعركة على الخوارزمية، حيث استطاع هزيمة الصليبيين، وأعوانهم من المسلمين بالقرب من غزة[3]، ويذكر ابن كثير عن القتلى في صفوف الصليبيين، "فقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة عن ثلاثين ألفا، وأسروا جماعة من ملوكهم، وقساوسهم، وأساقفتهم ... وبعثوا بالأسرى إلى الصالح أيوب في مصر"[4].

وبعد أن انتصر جيش الملك الصالح أيوب في معركة غزة، استقر أمره في مصر، وقاد جيشه في الشام فخر الدين بن الشيخ الذي أخذ يحارب الصليبيين، فقد سار نحو طبرية، وفرض

---

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (165/29).

(2) المقريزي، السلوك (407/1).

(3) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب (198/29).

(4) ابن كثير، البداية والنهاية (165/13).

عليها الحصار حتى استطاع تملكها من الصليبيين[1] ومن ثم جمع الجيش من أجل استرداد عسقلان من الصليبيين، حيث توجه فخر الدين بالعسكر، وفرض الحصار عليها، ونصبوا المجانيق، وحفروا الخنادق حتى استطاع المسلمون فتحها، وهدمها، ومن ثم توجه العسكر الإسلامي، واستطاع فتح بيت المقدس، وتطهيره من أيدي الصليبيين، وعندما وصلت البشائر بهذا الفتح للسلطان في القاهرة، فضربت البشائر لهذا النصر[2]، وهكذا استطاع جيش الملك الصلح أيوب استعادة بعض المدن في الشام من الصليبيين، واستطاع هزيمتهم في المعارك التي دارت بينه وبينهم[3].

3.1.3 ثالثًا: سقوط الخلافة العباسية على أيدي المغول

كانت الخلافة العباسية تعاني من التمزق، والانحلال فتره سيطرة المغول على المشرق الإسلامي، وتخلصها من الدولة الخوارزمية، وقضائها على الإسماعيليين في إيران، وهنا لم يبق أمام المغول سوى بلاد العراق، والخلافة العباسية التي كانت تعاني من الضعف، والتمزق، في فترة الخليفة العباسي المستعصم بالله "640-656هـ/1242-1258م"، وقد كان الخليفة في تلك الفترة ضعيف الشخصية، قليل الخبرة بالأمور الخارجية[4]،مهملًا للأمور حتى أنه لم يهتم بالأمور التي يشرف عليها بعض الأمراء داخل شئون الخلافة [5].

وهنا أصبح هم الخليفة هو المحافظة على أمر العراق، وكان كذلك قليل التدبير، والتيقظ هذا بالإضافة إلى كثرة الفتن والاضطرابات التي كانت تحصل بين السنة والشيعة، كانت سببًا في ضعف الخلافة العباسية نتيجة كثرة المشاكل التي كانت تواجهها لحل تلك المنازعات، حيث حصلت حرب قوية بين الطائفتين، فقام الخليفة بتوكيل ابنه أبي بكر في التخلص من مقر الشيعة في الكرخ، فضربهم ضربة قويه جعلت الشيعة تضمر للخليفة سوءًا، وكان في تلك الفترة

(1) ابن كثير، البداية والنهاية (173/13)؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (415/5).

(2) ابن واصل، مفرج الكروب (378/5)؛ المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (ص117).

(3) ابن واصل، مفرج الكروب (378/5)؛ المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (ص117).

(4) ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية (ص122).

(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان (ص57)؛ الكتبي، فوات الوفيات (580/1).

وزير الخليفة ابن العلقمي شيعيا، فأضمر الشر للخليفة، وأخذ يراسل المغول ويطمعهم في السيطرة على بغداد[1].

فعندما قام المغول بالحملات العسكرية ضد طائفة الإسماعيلية في إيران أرسل قائدهم هولاكو إلى الخليفة يطلب منه المساعدة للتخلص من هذه الطائفة، فرفض الخليفة طلب المغول؛ لأن الخلافة في تلك الفترة كانت تمثل العالم الإسلامي التي يحترم من قبل المسلمين في شتى أرجاء المملكة، فقد كان الخليفة يحترم، ويقدر المسلمين جميعًا، وكذلك كانت مؤسسة الخلافة تسعى دائما إلى تجميع القوى ضد الأعداء، ولم تتحد مع الأعداء من أجل التخلص من بعض البلدان المسلمة، لذلك أخذ الخليفة يحصن بغداد حتى لا تكون فريسه لهجمات المغول[2].

- **المراسلات بين الخلافة والمغول**

فلما تخلص هولاكو من أمر الطائفة الإسماعيلية في إيران سار إلى همذان سنة "655هـ/1257م"، وأرسل إلى الخليفة المستعصم يهدده، ويتوعد له بسبب رفضه مساعدته في حروبه ضد الإسماعيلية، وقد طلب هولاكو من الخليفة العباسي أن يصبح سلطانًا بالعراق، كما كان من قبل للبويهيين، والسلاجقة [3].

إلا أن الخليفة رفض مطلبه، ورد عليه ردًا قويًا يهدده، ويتوعده، ومن خلال رسالته القوية لهولاكو بصفته أنه يملك السيادة الروحية للأمة الإسلامية، وبين له بأن علاقته قوية مع الأمراء المسلمين في كافة البلاد، وأنهم " كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي ... إنني حينما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم الأمور في إيران، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه ... وإن لي ألوفًا مؤلفة من الفرسان، والرجالة، وهم متأهبون للقتال، وإنهم ليثيروا الغبار من ماء البحر وقت الحرب، والطعان"[4]؛ إلا أن هولاكو لم يأخذ برسالة الخليفة، وسار متجهًا لبغداد بجيشه الكبير الذي استطاع من خلاله أن يسقط الكثير من الممالك، والبلاد الإسلامية، وأرسل للخليفة رسالة مضمونها " فعليك أن تكون مستعدًا للحرب، والقتال، فإني متوجه إلى

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام (34/48).

(2) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول(ص169)؛ الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد (ص205–206)؛ العزاوي، حكومة المغول(ص157).

(3) الهمذاني، جامع التواريخ (267/1–268).

(4) الهمذاني، المرجع السابق(269/1– 270).

بغداد بجيش كالنمل، والجراد، ولو جرى سيل الفلك على شاكلة أخرى، فتلك هي مشيئة الله العظيم"[1].

حاول الخليفة ترهيب هولاكو وإجباره على الرجوع عن سيره إلى بغداد بصفته أنه محمي من الله تعالى، وبين له بأن هذا البيت محكم للغاية، وسيبقى إلى يوم القيامة، فاشتد غضب هولاكو بسبب استهتار الخليفة به بأن بيته محمى، وأنه على استعداد للحرب، فأرسل إليه هولاكو "اذهب، واصنع من الحديد المدن والأسوار، وارفع من الفولاذ الأبراج، والهياكل، واجمع جيشًا من المردة، والشياطين، ثم تقدم نحوي للخصام، والنزال، فسأنزل لك ولو كنت في السماء، وسأدفع بك غضبًا إلى أفواه السباع"[2].

وبعد وصول تهديد هولاكو بالمسير إلى بغداد حاول الخليفة مشاورة الوزير العلقمي فيما يجب أن يفعلوه، فأشار إليه بأن يبذل الأموال، والهدايا، والتحف له، ولخواصه أفضل من محاربة هولاكو، فأخذ الخليفة بتجهيز الهدايا، والجواهر، والمرصعات، والثياب، والذهب، والفضة، والمماليك، والجواري، والخيل، والبغال، والجمال، لإرسالها لهولاكو؛ لكن الدويدار الصغير، وأصحابه أشاروا إلى الخليفة، وبينوا له إن الوزير يريد تسليمنا للمغول، لذلك تراجع الخليفة عن إرسال الهدايا للمغول، واقتصر على شيءٍ نذير لا قدر له[3]؛ فاحتقرها هلاكو وأرسل إلى الخليفة أن يسير هو بنفسه أو أحد الثلاثة: الوزير، أو دويداره، أو سليمان شاه، وهم كبار رجال الخلافة، فرفض الخليفة طلبه[4].

- **حصار بغداد وسقوطها**

غضب هولاكو على استهانه الخليفة به، وأصر على القدوم إلى بغداد، ومحاربة الخليفة، قدمت جحافل المغول عن طريق أربل متجهين إلى الجانب الغربي من بغداد في بداية سنة "656هـ/1258م"، وحفروا خندقًا عميقًا داخل السور، ونصبوا المجانيق من جميع الجوانب[5]، وفرض عليها الحصار، وأرسل للخليفة بأن " ارحموا أرواحكم، واطلبوا الأمان؛ لأن لا طاقة لكم

---

(1) الهمذاني، المرجع السابق(1/270-271).

(2) الهمذاني، المرجع السابق(1/275-276).

(3) ابن كثير، البداية والنهاية (13/200)؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص169)؛ الصياد، المغول في التاريخ (ص257-258).

(4) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص169)؛ الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد (ص206).

(5) الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد (ص209).

بهذه الجيوش الجرارة "، فرد الخليفة برسالة " من يكون هولاكو، وما قدرته ببيت عباس، من الله ملكهم، ولا يفلح من يعاندهم، ولو أراد هولاكو الصلح لما داس أرض الخليفة، ولما أفسد فيها"[1].

وجاءت إليهم إمدادات من قبل أمير الموصل، وذلك خوفًا على نفسه من المغول، وبذلك حوصرت بغداد ونصبت عليها المجانيق[2]، وأحاط المغول بدار الخلافة، وأخذوا يرشقونها بالسهام، والنبال من كل جانب[3] وحينها لم يستطع الخليفة أن يصنع شيئًا، فكان يقرأ القرآن وقت الإحاطة بسور بغداد، فجاء سهم إلى قصره أصاب إحدى بناته، وهي بين يديه، فوقعت ميتة[4].

وبعد أن تمكن هولاكو من تمكين الحصار على بغداد، وقوة جيشه، وتقهقر جيش الخليفة، أرسل رسالة إلى الخليفة مضمونها" إذا كان الخليفة قد أطاع، فليخرج، وإلا فليتأهب للقتال، وليحضر لنا قبل كل شئ الوزير، وسلمان شاه، والدويدار ليسمعوا ما نقول"[5].

حاول جيش الخليفة مقاومة الجيش المغولي، والتصدي لهم، فقام الدويدار الصغير بقيادة فرقة من الجيش بالجانب الغربي من بغداد، واستطاع في بداية الأمر هزيمة المغول، وأخذ يلاحقهم حتى وقع عسكره بأحد كمائنهم، فلم يثبت بأرض المعركة، فانكسروا، وفروا راجعين هاربين بأعجوبة من المغول حتى دخلوا بغداد[6]، ويذكر ابن طباطبا بأن هزيمة المسلمين بهذه المعركة هي مفتاح الشر للمغول للسيطرة على بغداد[7]، واستمر القتال بين الجيشين على أبواب

---

(1) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول (ص169)؛ الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد (ص207-208).

(2) ابن كثير، البداية والنهاية (200/13).

(3) ابن كثير، البداية والنهاية (200/13)؛ العيني، عقد الجمان (ص40).

(4) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (272/8).

(5) الهمذاني، جامع التواريخ (284/1).

(6) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة (ص232)؛ الهمذاني، جامع التواريخ (286/1).

(7) الفخري في الأداب السلطانية (ص27).

بغداد أكثر من احدى عشر يومًا، وكان المغول على أسوار بغداد[1]، فخرج إليهم الوزير ابن العلقمي يريد الصلح مع المغول[2].

وكان الوزير قد اتفق مع هولاكو، ودبر مكيدة بالخليفة، فبعد أن عاد إلى بغداد قال للخليفة:" إن السلطان يا مولانا أمير المؤمنين قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر، ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يؤثر إلا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف عنك بجيوشه، فمولانا أمير المؤمنين يفعل هذا فإن فيه حقن لدماء المسلمين"[3].

خرج الخليفة والوزير في يوم الاثنين الثامن عشر من المحرم، ومعه جمع كثير، وخرج مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير، وشهاب الدين سليمان شاه، وسائر الأمراء، ثم خرج ابن الخليفة الأكبر أبو العباس أحمد، وسائر الناس[4]، ودخل المغول قصر الخلافة، واحتفل هولاكو مع الأمراء، وأمر بإحضار الخليفة، وقال له: "أنت المضيف ونحن الضيوف، فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة" فقام الخليفة بإخراج ما عنده، وأمر بكسر أقفال خزائن الخلافة، وإخراج ألفين من الثياب، وعشرة آلاف دينار، ونفاس، ومرصعات، وجواهر عديدة، قدمها هدية لهولاكو، واعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر، فلما حفروا ذلك المكان وجدوه مملوءًا بالذهب الإبريز، وكانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال[5].

وما أن سيطر هولاكو على بغداد سيطرة كاملة بأن أصبح الخليفة، وكبار الدولة تحت رحمة أمر عسكره بإبادة المدينة، فبذل فيهم المغول السيف، وقتلوا من بها، ولم ينج منهم إلا القليل، ولم يسلم منهم إلا من كان صغيرًا، فأخذ أسيرًا، ودام القتل، والنهب في بغداد أربعين يومًا، ثم نودي بالأمان، وقتل الخليفة المستعصم، فقيل قتل خنق، وقيل جعل في عدل، ورفس

---

(1) الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد (ص210-211).

(2) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة (ص232-233).

(3) العصامي، سمط النجوم العوالي (519/3)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (35/48)؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى(270/8)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (50/7)؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء(ص472)؛ الديار البكري، تاريخ الخميس (376/2).

(4) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة (ص232-233).

(5) الهمذاني، جامع التواريخ (291/1-292).

حتى مات، وقيل غرق في دجلة[1]، وكان المغول قد سيطروا بعد أن دخلوا بغداد على الأموال، والجواهر، والحلي، والزركش، والثياب، وأواني الذهب، والفضة، والأعلاق النفيسة، جملة عظيمة[2].

وكان من نتائج سقوط الخلافة أن قتل من بغداد أكثر من ألف ألف وثمانمائة ألف شخص غير من لم يعد، ومن غرق[3]، ويذكر بعض المؤرخين بأن عددهم بلغ ثمانمائة ألف[4]، وبعد أن أمر هولاكو جنده بالكف عن القتل، وأن ينصرف كلٌ منهم إلى عمله، كان قد عم الخراب، والدمار ببغداد، ونودى ببغداد بالأمان، وخرج من كان تحت الأرض من كان مختبئًا بالمضامير، والقنى، والمقابر، كأنهم الموتى، فخرجوا، ولم يعرف من بعضهم حتى لا يعرف الوالد من ولده، والأخ من أخيه، وأخذهم الموت؛ بسبب انتشار الوباء بينهم[5]، وبذلك انقضت الخلافة من بغداد، وزالت أيامهم من تلك البلاد، وخربت بغداد الخراب العظيم، وأحرقت كتب العلم التى كانت بها من سائر العلوم والفنون[6].

كان المغول بعد سيطرتهم على بغداد قد قاموا بتدمير حضارتها، واستمروا أكثر من سبعة أيام يقتلون البشر، ويدمرون البيوت، وينهبون ما كل شيء يرونه، وكان من ضمن من قتل على أيديهم الخليفة، وأبنائه دون رحمة، وبموت الخليفة المستعصم، وأولاده على أيدي المغول انقرضت خلافة بني العباس التي استمرت خلافتهم حوالي 524 سنة[7].

خلاصة القول أن الخلافة العباسية بذلت مجهودًا عظيمًا في سبيل توحيد الأمة، ومواجهة الأعداء، فنجحت الآلة الدبلوماسية العباسية في ذلك مع الصليبيين؛ ولكن مع المغول يبدو أن دور العملاء أفشل جهود الخلافة في التصدي لذلك الخطر، فانهارت الخلافة العباسية التي

---

(1) ابن العبري، المختصر في أخبار البشر (ص444)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (261/48)؛ ابن الوردي، تتمة المختصر (191/2)؛ القلقشندي، مآثر الأناقة (92/2).

(2) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة (ص233)؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (262/48).

(3) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (271/8)؛ الديار البكري، تاريخ الخميس (376/2-277).

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام (36/48)؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (50/7).

(5) ابن كثير، البداية والنهاية (203/13)؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى (ص8، 271)؛ الديار البكري، تاريخ الخميس (376/2-277).

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (50/7).

(7) الدخيل، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد (ص211-213).

كانت تجمع المسلمين تحت لافتة واحدة في أصعب الظروف، ونجحت في توجيه البوصلة نحو مواجهة الاحتلال حتى آخر يوم من عمر الخلافة التي كان المسلمون يتوحدون تحت شرعيتها الإسلامية.

الخاتمة

4.1 أولًا: النتائج

لقد توصلت الدراسة للعديد من النتائج هذه أهمها:

- لقد شهدت الخلافة الإسلامية – في مرحلة مدة الدراسة – صراعًا سياسيًا، وعسكريًا بين مختلف القوى الإسلامية التي تحكم البلاد، وقد تسبب هذا الصراع بتفكك وحدة الأمة الإسلامية، ونجاح الصليبيين في دخول بلاد الشام.
- على الرغم من أن الخلافة العباسية كانت تمر بحالة ضعف إلا أنها استطاعت بالآلة الدبلوماسية أن تحدث تغيرات جوهرية في المنطقة، فقد تخلصت من النفوذ السلجوقي بتأجيج الخلاف الداخلي بين الأمراء السلاجقة، وتوجيه قوة الخوارزميين الصاعدة لضرب، وإنهاء القوة السلجوقية.
- لقد استطاعت الدبلوماسية العباسية خلق قيادات عسكرية، وتوجيه طاقات الأمة نحو مقاومة الاحتلال الصليبي.
- استطاعت الخلافة العباسية احتواء الدولة الأيوبية فمنذ البداية قامت بدعم صلاح الدين، وساندته على خصومه في كل المواطن، وبعد وفاة صلاح الدين استطاعت أن تدير التنافس الأيوبي بطريقة حكيمة.
- لقد كان للخلافة العباسية دور دبلوماسي بارز في سيطرة نور الدين محمود على مصر وتحويلها للمذهب السني.
- كانت الخلافة العباسية تستعين بأحد الإمارات الإسلامية المجاورة عندما تقع تحت السيطرة الخارجية – مثل سيطرة البويهيين – وبذلك تنجح في التخلص من السيطرة الأجنبية.
- أظهرت الدراسة مدى الضعف، والخلاف الذي عانت منه الخلافة العباسية قبيل الغزو الصليبي، مما كان له أثر كبير في نجاح الصليبيين في احتلال البلاد، وإقامة ممالك صليبية على أراضٍ إسلامية.
- حاولت الخلافة العباسية تفادي الهجوم المغولي عليها بالعمل الدبلوماسي، وذلك بإرسال الرسائل القوية مع السفراء من أجل تخذيل المغول عن غزو العراق؛ لكن شيعة العراق كان لهم دور واضح في تشجيع المغول للإقدام على الغزو، وإسقاط الخلافة العباسية.

4.2 ثانيًا: التوصيات

بعد دراسة موضوع موقف الدبلوماسية العباسية من النزاعات الإسلامية (630-656هـ/1136-1258م) توصل الباحث لعدد من التوصيات:

- ضرورة الاستفادة من موقف الخلافة العباسية وقت الضعف، وذلك باستخدام الآلة الدبلوماسية في فرض قوتها على خصمها.
- التوسع في دراسة الخلافة زمن السقوط، والانهيار.
- الاهتمام بالدراسات الدبلوماسية في التاريخ الإسلامي.
- دراسة موضوع العلاقات الدبلوماسية بين الدولة الخوارزمية، والمغول.

المصادر والمراجع

***القرءان الكريم.**

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني.(1995م). *الكامل في التاريخ*، تحقيق: عبد الله القاضي، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن الأثير، أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني. (د.ت). *الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)*. تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة: دار الكتب الحديثة.

ابن إدريس، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني. (1989م). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ط1. بيروت: عالم الكتب للنشر.

الأربلي، شرف الدين بن أبي البركان المبارك بن أحمد الأربلي . (1980م). *تاريخ اربل*. تحقيق : سامي بن سيد خماعد الصقار، العراق، وزارة الثقافة والإعلام للنشر،(د.ط).

الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد. (د.ت). *المسالك والممالك*. تحقيق: محمد صابر.

الأصفهاني، *ديوان عماد الدين الأصفهاني*. (د.ت). (د.ن).

الأصفهاني، عماد الدين. (1987م). *البرق الشامي*. تحقيق: فالح حسين، عمان، الأردن: مؤسسة عبد الحميد شومان للنشر.

الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي. (1984م). *طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وأخبار وأسرار*. القاهرة : مكتبة القرآن للنشر.

ابن أيبك الدواداري، أبي بكر بن عبد الله. (1972م). *كنز الدرر وجامع الغرر*. تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة : مركز ودود للمخطوطات.

الأيوبي، محمد بن تقي الدين. (د.ت). *مضمار الحقائق وسر الخلائق*. تحقيق: الدكتور حسن حبشي، عالم الكتب للنشر، القاهرة.

بارتولد. (1996م). *تاريخ الترك في آسيا الوسطى*. ترجمة: أحمد السعيد سليمان، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

باركر، أرنست،(1967م). *الحروب الصليبية*. ترجمة: السيد الباز العريني، ط2. بيروت، لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

بدران، عبد القادر بدران. (1985م). *منادمة الأطلال ومسامرة الخيال*. ط2. تحقيق : زهير الشاويش، بيروت: المكتب الإسلامي للنشر.

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي. (1984م). *رحلة ابن بطوطة المسماه بـ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*. ط4. تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة للنشر، بيروت.

البكري، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي أبو عبيد . (1982م). *معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*. تحقيق: مصطفى السقا، ط2. بيروت: عالم الكتب.

البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني البنداري. (1900م). *تاريخ دولة آل سلجوق*. شركة طبع الكتب العربية، مصر.

البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني البنداري. (1979م). *سنا البرق الشامي اختصار البرق الشامي للأصفهاني 562هـ/1166م- 583هـ/1187م*. تحقيق: فتحية النبراوي، مصر : مكتبة الخانجي للنشر.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي. (د.ت). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. وزارة الثقافة والإرشاد القومي للنشر، مصر.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي. *مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة*. (1997م). تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، القاهرة : دار الكتب للنشر.

ابن جبير، أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبر الكناني الأندلسي. *رحلة ابن جبير*. تحقيق وتقديم: الدكتور محمد مصطفى زيادة، بيروت: دار الكتاب اللبناني(د.ت).

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد. (1939م). *المنتظم في تاريخ الرسل والملوك والأمم*. ط1. بيروت: دار صادر للنشر.

حبش، محمد،(2013م). *الإسلام والدبلوماسية*، قراءة في القيم الدبلوماسية في الإسلام،(د.ن).

ابن حجة، تقي الدين أبي بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي. (1997م). *طيب المذاق من ثمرات الأوراق*. تحقيق : أبو عمار السخاوي، الشارقة: دار الفتح للنشر.

الحسن، عيسى،(2008م). *تاريخ العرب من بداية الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة العثمانية*. ط1. عمان، الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع.

الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن أبي الفوارس. (1933م). *أخبار الدولة السلجوقية*. نشر محمد إقبال، لاهور.

الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن أبي الفوارس.(1986م). *زبدة التواريخ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية*. تحقيق: محمد نور الدين، بيروت: دار إقرأ.

حمادة، محمد ماهر، (1985م). *الوثائق السياسية والإدارية للعهود الفاطمية والأتابكية والأيوبية (دراسة ونصوص)*. ط3. بيروت: مؤسسة الرسالة.

حمدي، (د.ت). *الدولة الخوارزمية والمغول غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي آثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية*. دار الفكر العربي للطباعة والنشر، دار الكتاب الحديث للطبع والنشر والتوزيع .

الحموي، أبو الفضائل محمد بن علي بن نظيف. (د.ت). *التاريخ المنصوري" تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان"*. تحقيق: دكتور أبو العبد دودو، دمشق: مطبعة الحجاز– مطبوعات مجمع اللغة العربية .

الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي. (د.ت). معجم *البلدان*. بيروت: دار الفكر للنشر.

الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم. (1980م). *الروض المعطار في خبر الأقطار*، تحقيق: إحسان عباس، ط2، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة.

الحويري، محمود محمد، (1979م). *الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني والثالث من الميلاد –عصر الحروب الصليبية* . القاهرة : دار المعارف.

الحويري، محمود، (1992م). *بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين*. ط1. القاهرة: دار المعارف للنشر.

الحياري، مصطفى، (1998م). *القدس في زمن الفاطميين والفرنجة*. المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان.

خسرو، ناصر خسرو. (1983م). *سفرنامه*. تحقيق: يحيى الخشاب، ط3. بيروت: دار الكتاب الجديد للنشر.

خلف، محمود، (1989م). *النظرية والممارسة الدبلوماسية*. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي للنشر.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمي. (1954م). *(تاريخ ابن خلدون) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*. ط5. بيروت: دار القلم للنشر.

ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشامي. (د.ت). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق إحسان عباس. بيروت، لبنان : دار الثقافة للنشر.

ابن خياط، خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر. (1977م). *تاريخ خليفة بن خياط*. د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، ط2. دمشق، بيروت:دار القلم للنشر.

الدخيل، سليمان. (2003م). *الفوز بالمراد في تاريخ بغداد*. تقديم وتعليق: محمد زينهم محمد عزب، ط1. القاهرة: دار الأفاق العربية.

الدمشقي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي. (1989م). *الدارس في تاريخ المدارس*. تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن المالكي. (د.ت). *تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس*. بيروت : مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (1993م). *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم. (1944م)، *دول الإسلام في التاريخ*، ط2، حيدر أباد الدكن.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (1985م). *سير أعلام النبلاء*، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (د.ت). *العبر في خبر من غبر*، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العلمية.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم. (1984م). *المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ الدبيثي*. ط1. لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية للنشر.

الرشدان، عبد الفتاح، والموسي، محمد خليل،(2005م). *أصول العلاقات الدبلوماسية والقنصلية*. عمان، الأدرن: المركز العلمي للدراسات السياسية.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني،(د.ت). *تاج العروس من جواهر القاموس*. تحقيق : مجموعة من المحققين، دار الهداية للنشر.

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارسل الدمشقي. (2002م). " *الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)* "، ط15، بيروت: دار العلم للملايين.

زيان، حامد زيان، (1983م). *الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية*. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

سبط ابن الجوزي، يوسف بن قره اوغلي. (1968م). *مرآة الزمان في تاريخ الأعيان*. تحقيق: علي سويم، تركيا: أنقرة.

السبكي، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي. (1992م). طبقات الشافعية الكبرى. تحقيق: محمود الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، ط2. هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

السخاوي، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. (1984م). تحقيق : محمد عثمان الخشت، ط1، بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي للنشر.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغـــــــدادي. (1990م). *الطبقات الكبرى*، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية.

السقاف، ومجموعه من الباحثين. *موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام*. المكتبة الشاملة.

سيد، أمير علي. (1967م). مختصر *تاريخ العرب*. ترجمة: عفيف البعلبكي. ط2. بيروت: دار العلم للملايين.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (1952م). *تاريخ الخلفاء*. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مصر: مطبعة السعادة.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (د.ت). *حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة*، (د.ن).

الشافعي، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي. (1995م). *تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل*. تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، بيروت: دار الفكر.

الشافعي العاصمي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي المكي. (1998م). سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود– علي محمد معوض، بيروت : دار الكتب العلمية.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي. (1997م). *الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية*. تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة.

شبانه، عبد الفتاح، (2002م). *الدبلوماسية القواعد القانونية، الممارسة العلمية، المشكلات الفعلية*. القاهرة، مصر: مكتبة مدبولي للنشر.

ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المشهور بابن شدّار. (1964م). *النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية*، تحقيق : جمال الدين الشيال، ط1.(ب. د).

ابن شداد، علاء الدين محمد بن علي بن إبراهيم. (د.ت). *الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة*. (د.ن).

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله. (2007م). *نكث الهميان في نكت العمـــــيان*، علق عليه ووضع حواشيه: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

الصلابي، علي محمد، (2007م). السلطان الشهيد عماد الدين زنكي شخصيته وعصره. ط1، القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.

الصوري، وليم، (1992م). *الحروب الصليبية*. ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الصياد، عبد المعطي، (1980م). *المغول في التاريخ*. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

ابن طباطبا، محمد بن علي ابن الطقطقي. (د.ت). *الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية*. (د.ن).

الطبري، محمد بن جرير.(1977م). *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيـــــم، القاهرة: دار المعارف.

الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي. (د.ت). *سراج الملوك*. (د.ن).

طقوش، سهيل محمد، (2002م). *تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى "470-704هـ / 1077-1304م"*. ط1. بيروت، لبنان: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.

عاشور، سعيد عبد الفتاح. (1964م). *أضواء جديدة على الحروب الصليبية*. المكتبة الثقافية دار القلم، القاهرة.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، (1987م). *ظل الخلافة العباسية في الحركة الصليبية. "بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته*. ط1. القاهرة : الناشر عالم الكتب.

أبو عامر، (2001م). *الوظيفة الدبلوماسية، نشأتها، مؤسساتها، قواعدها، قوانينها*. عمان، الأردن: دار الشرق للنشر والتوزيع.

عباس إقبال، (1989م). *تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القلجارية (205هـ/820م- 1343هـ/1925م)*. ترجمة: عن الفارسية وتعليق محمد علاء الدين منصور، راجعه السباعي محمد السباعي، القاهرة: دار الثقافة والنشر والتوزيع.

ابن العبري. أبو الفرج غريغوريوس ابن أهرون (أو هارون) بن تومــــا الملطي. (1992م). *تاريخ مختصر الدول*، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، ط3، بيروت: دار الشرق.

العبود، نافع توفيق، (1978م). الدولة الخوارزمية. بغداد، العراق: مطبعة الجامعة السورية.

العجرمي، محمود عبدربه،(2011)، الدبلوماسية (النظرية والتطبيق)

ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله. (د.ت). *بغية الطلب في تاريخ حلب*. تحقيق : سهيل زكار، دار الفكر للنشر.

ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله. (1996م). *زبدة الحلب في*

تاريخ حلب. تحقيق: خليل المنصور، بيروت، لبنان : دار الكتب العلمية.

ابن عربشاه، أبو محمد أحمد بن محمد. (د.ت). *فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء*. (د.ن).

العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني. *رفع الإصر عن قضاة مصر*. تحقيق: علي محمد عمر، ط1، مكتبة الخانجي للنشر، القاهرة، مصر، 1998م.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري. (د.ت). الأوائل .(د.ن).

عسيري، مريزن سعيد مريزن ، (1987م). *الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي*. ط1. مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي.

عطا، زبيده، (د.ت). *بلاد الترك في العصور الوسطى، بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون*. الكويت: دار الكتاب الحديث.

عطيه، عزيز سوريال، (د.ت). *الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب*. ترجمة: فيلب سيف، راجعه أحمد خاكي، القاهرة: دار الثقافة.

العليمي، مجير الدين الحنبلي العليمي. (1999م). *الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل*. تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، عمان: مكتبة دنديس للنشر.

ابن العماد الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي العكري الحنبلي. (1985م). *شذرات الذهب في أخبار من ذهب*، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، ط1، دمشق: دار ابن كثير للنشر.

ابن العميد، مكين جرجس ابن العميد. (د.ت). *أخبار الأيوبيين*، مكتبة الثقافة الدينية للنشر(د.ن).

عوض، محمد مؤنس، (1998م). السياسة الخارجية للدولة النورية (541–569هـ/1146–1174م). ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

العيني ، بدر الدين محمود بن أحمد العيني. *عمدة القاري شرح صحيح البخاري*. بيروت: دار إحياء التراث العربي للنشر(د.ت).

الغامدي مسفر سالم، (1986م). *الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عصر الأسرة الزنكية (491–569هـ/1097–1173م)*. ط1. جدة : دار المطبوعات الحديثة للنشر.

الغساني، إسماعيل بن العباس. (1975م). *العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك*. تحقيق: شاكر عبد المنعم، بغداد: دار البيان للنشر، بيروت: دار التراث الإسلامي للنشر.

غنيم، اسمت ، (1990م). *الدولة الأيوبية والصليبيون*. دار المعرفة الجامعية.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه ابن أيـــــوب، الملك المؤيد، صاحب حماة. (د.ت). *المختصر في أخبار البشر*، القاهـــــــرة: المطبعة الحسينية المصرية.

فرج، سمير (ابن الشاطئ) ، (2005م). *الدولة الأيوبية. مركز الراية للنشر والإعلام*، القاهرة.

ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني البغدادي.(2003م). *الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة*. تحقيق: مهدي النجم، للنشر، ط1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

فياض، هيثم توفيق، (2013م). *الدبلوماسية : المساومة القسرية والسياسة الدولية، دور صناع القرار في إثارة وإدارة واحتواء الصراعات والأزمات الدولية*. عمان، الأردن: دار دجلة للنشر والتوزيع.

الفيتري، يعقوب بطريك عكا، (1998م). *تاريخ بيت المقدس*. ط1. ترجمة وتعليق: سعيد البيشاوي، عمان، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع.

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب(د.ت). *القاموس المحيط*. بيروت: مؤسسة الرسالة للنشر.

القرماني، العالم الفاضل أبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت1019هـ/1610م). (1992م). *أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ*. دراسة وتحقيق أحمد حطيط، وفهمي سعيد، ط1. بيروت: عالم الكتب للنشر.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. (د.ت). *آثار البلاد وأخبار العباد*، بيـــــــروت– لبنان: دار صادر.

ابن القلانسي، أبو يعلى، حمزة بن أسد بن علي. (د.ت). *ذيل تاريخ دمشق*،(د.ن).(ب.د).

القلقشندي، أحمد بن علي. (1981م). *صبح الأعشى في كتابة الإنشا*. تحقيق: عبد القادر زكار، وزارة الثقافة للنشر، دمشق.

القلقشندي، أحمد بن علي. (1985م). *مآثر الأناقة في معالم الخلافة*. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط2، الكويت : مطبعة حكومة الكويت للنشر.

القيسراني، محمد بن طاهر بن علي بن القيسراني. (1990م). *المؤتلف والمختلف(الأنساب المتفقة في الخط المتماثلة في النقط)*. تحقيق : كمال يوسف الحوت، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية للنشر.

ابن الكازروني، ظهر الدين بن علي بن محمد البغدادي. (1970م). *مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباسي*. تحقيق: مصطفى جواد، بغداد،(د.ن).

الكتبي، محمد بن شاكر. (2000م). *فوات الوفيات*. تحقيق: علي محمد بن يعوض الله، عادل أحمد عبد الموجود، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. (1988م). *السبداية والنهاية*، تحقيق: علي شيري، بيروت- لبنان: دار إحياء التراث العربي.

محي الدين، محمد بن صالح (2004م). *عودة الروح للخلافة العباسية*. ط1، الرياض: دار طويق للنشر والتوزيع.

المدائني ، أبو حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد . (1998م). *شرح نهج البلاغة*. تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، ط1، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية للنشر.

المطوي، محمد العروسي، (1982م). *الحروب الصليبية في المشرق والمغرب*. دار الغرب الإسلامي.

المقدسي، محمد بن أحمد.(1980م). *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*. تحقيق: غازي طليمات، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

المقدسي، المطهر بن طاهر المقدسي. (د.ت) *البدء والتاريخ*. بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية للنشر.

المقريزي، أحمد بن علي.(1996م). *اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء*. تحقيق: جمال الدين الشيال، ط2. مصر: وزارة الأوقاف للنشر.

المقريزي، أحمد بن علي. (1997م). *السلوك لمعرفة دول الملوك*. تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1. لبنان: دار الكتب العلمية للنشر.

نجم، جمال أحمد جميل، (2008م). *أحكام الرسل والسفراء في الفقه الإسلامي*. نابلس، فلسطين، (د.ن).

النسوي، محمد بن أحمد. (د.ت). *سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي*، تحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي للنشر.

أبو النصر، محمد عبد العظيم، (2001م). *السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري*. ط1. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(2004م). *نهاية الأرب في فنون الأدب*. تحقيق مفيد قمحية وآخرون، ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية للنشر.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد.(1990م). *السيرة النبوية لابن هشام*. تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، ط1. بيروت: دار الجيل للنشر.

الهمذاني، رشيد الدين فضل الله. (د.ت). *"جامع التواريخ" تاريخ المغول الايلخانيون – تاريخ هولاكو*. نقلة الى العربية: محمد نشأت ومحمد هنداوي وفؤاد الصياد، راجعة وقدم له، يحيى الخشاب، دار احياء الكتب العربية

ابن الوردي، زين الدين عمر.(1996م). *تاريخ ابن الوردي (تتمه المختصر في أخبار البشر)*. ط1. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم. (د.ت). *مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*.

- الجزء 1-3 ، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة.
- الجزء 4-5، تحقيق: حسن محمد ربيع، القاهرة: مطبعة دار الكتب.
- الجزء السادس، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، طرابلس: الجامعة اللبنانية.

اليافعي، أبو محمد عبد الله بن سعيد بن علي. (1932م). *مرآة الجنان وعبرة اليقظان*. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح. (2002م). *البلدان*، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد. (د.ت). *ذيل مرآة الزمان*.(د.ن).